مفاهيم يجب أن تُصَحَّح

تأليف

السيد محمد بن علوي المالكي الحسني
خادم العلم الشريف بالبلد الحرام



مفاهيم يجب أن تصحح

تأليف

السيد محمد بن علوي المالكي الحسني
خادم العلم الشريف بالبلد الحرام



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ الله سبحانه وتعالى أنعم علينا بِنعَمٍ كثيرة، أجلُّها وَأعظَمُها نعمةُ الإسلام، أكرِم بها من نعمة، ومنها نعمة الأمن التي نتمتع فيها بالأمان والسكينة والاطمئنان في ربوع هذه البلاد، ومنها نعمة تطبيق الشريعة الإسلامية، بإقامة الحدود والتحاكم إلى كتاب الله وَسُنّة رسوله محمد بن عبد الله ﷺ، وذلك بفضل الله، ثم بفضل الحُكّام الذين جعلهم الله حُماةً لهذه البلاد ـ بلاد الحرمين الشريفين ـ والذين وفقهم الله لخدمتها وشرفهم بالقيام بأمانة الحراسة والرعاية والحفظ لها، فبذلوا جهدهم في سبيل ذلك.

ووجدوا بحمد الله العون في أبناء هذا الشعب المخلص الوفي، الذي أعطىٰ البيعة بصدق، وحفظ العهد بحق، ورعىٰ الذمة في الحضور والغيبة، فنحن على ذلك العهد قائمون، وبتلك الذمة مُوفُّون، انطلاقًا من إيماننا الصافي، وعقيدتنا السلفية، ومنهجنا النبوي؛ لأنَّ هذه البلاد بفضل الله طاهرة من كل رِجْس، سالمة من كل شرك، بإخبار رسول الله ﷺ إذ قال: «**لا يجتمع دينان في جزيرة العرب**»[1]. وقال: «**إنَّ الشيطان قد أيس أن يُعبد في جزيرة**

(١) رواه الإمام مالك في «الموطأ».

العرب»[١]. وقال: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد**»[٢]. ـ ودعاؤه مستجاب ـ ... وقال: «**إنَّ أخوَفَ ما أتخوَّفُ على أمتي: الإشراك بالله، أما إني لست أقول يعبدون شمسًا ولا قمرًا ولا وثنًا، ولكن أعمالًا لغير الله وشهوةً خفية**»[٣]. خصوصًا وقد أخبر أنَّ هذه البلاد مَعْقِل الإيمان، ومَرْجِع أهله، ومَلَاذ حملته؛ إذ قال: «**إنَّ الإيمان لَيأرِزُ إلى المدينة كما تَأرِزُ الحَيّة إلى جُحرها**»[٤]. وفي رواية: «**إنَّ الدِّين لَيأرِزُ إلى الحجاز كما تَأرِزُ الحَيّة إلى جُحرها وليعقلنَّ الدِّين من الحجاز معقل الأروية**[٥] **من رأس الجبل**»[٦].

وفي حديث ابن عمر عند «مسلم»: «**إنَّ الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، وهو يَأرِزُ بين المسجدين كما تَأرِزُ الحَيّة في جُحرها**».

ولقد عمل أئمة هذه البلاد وحكامها منذ بداية عهدهم على ترسيخ هذه المعاني، وتثبيت ذلك في قلوب الناس، ابتداء من المرحوم الملك عبد العزيز الذي وَحّدَ الجزيرة، وجمع الكلمة، وأزال الفوارق العصبية، وهدم الحواجز العنصرية، فعاش الناس متحابِّين يجمعهم مَبدأٌ واحدٌ، وتَلُمُّ شعثهم راية واحدة؛ راية لا إله إلَّا الله محمد رسول الله. عاشوا على هذا المبدأ؛ وإن اختلفت آراؤهم أو تنوعت مشاربهم، فالأصل واحد والولاء واحد، والعهد صادق، والوفاء لازم، ولكن بعض المتطفلين من الدخلاء والعملاء الأجانب يحبون أن يصيدوا في الماء العَكِرْ، فيشوهون الصورة ويشيعون الفتنة ويلبسون البُرَآءَ الذين لا يعرفون النفاق؛ ثوب السوء وإرادة الشر، وهم بهذا يفتحون بابًا آخر، نحن في غنًى عنه، ويُوَجِّهون الأنظار إلى ما هي غافلة عنه، ولكن لا بأس، فإنَّ الثقة في الله وحسن الظن في حكامنا أهلِ العقلِ والنظر يبعثان الطُّمَأْنِينَة في النفوس بأن لا

---

(١) رواه البزار بإسناد حسن. (الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠: ٥٤).
(٢) رواه الإمام مالك في «الموطأ»، وأحمد في «المسند».
(٣) رواه ابن ماجه في (كتاب الزهد).
(٤) رواه الشيخان.
(٥) الأروية: ـ بضم الهمزة وتكسر وتشد الياء ـ الأنثى من المعز الجبلي.
(٦) رواه الترمذي في (كتاب الإيمان).

يأخذوا بأقوال الوشاة، ودعاة الفتنة من الذين لا همَّ لهم إلَّا تفريق كلمة المسلمين.

وخصوصًا وإننا في ظل هذه الدولة السنية التي تحمي العقيدة الصحيحة الصافية، وتبذل جهدها لنشرها والدعوة إليها في ظل دولة التوحيد التي تنصر العلم وحَمَلَته والدعاة إليه، وتشجع على البحث العلمي النزيه النظيف في أي مجال كان، وعلى أي ميدان ومن أي جهة، وَتُكرِّمُ في سبيل ذلك أهلَه، وَتُقدِّمُ لهم الجوائز السخية، والأوسمة الرفيعة، سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين، سعوديين أم غير سعوديين على حَدٍّ سواء في مجال الدعوة الإسلامية، أو البحوث العلمية والتطبيقية؛ لأنَّ المقياس هو العلم وَحْده، والبحث وحده، وهي بهذا الموقف تعمل على صقل العقول، وتنوير البصائر، وتلاقي الأفكار المعبرة عن المفاهيم التي تجيش في خواطر العلماء والباحثين، وتفيض على قلوبهم، وتتواجد في نفوسهم، فيجدون السبيل مُيَسَّرًا للتعبير بالكلمة، ولا شك أنَّ هذا أقوىٰ سبيل لإظهار الحق وإثباته؛ لأنَّ الوضوح والجلاء هو الأساس في بناء المجتمع، وتلاحم أبنائه، ولا يتم هذا إلَّا بالتعبير عن المفاهيم التي يحس بها الإنسان ويراها بالنسبة لأي قضية إسلامية واجتماعية.

وهذه القاعدة هي من أجَلِّ الأصول التي ينبغي أن تتبع في الدعوة إلى الإسلام؛ لقد أعطىٰ الإسلام الفرصة لأعدائه للنظر والتبصر، فقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] .

وأعطىٰ الفرصة لإبداء أي اعتراض، أو مفهوم، أو برهان في نفس المعارض المعاند، فقال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

وطلب من المشركين أن ينظروا ويتفكروا في أمر الدِّين، تارة منفردين وتارة مجتمعين، وذلك بعقد المجالس والندوات للتشاور في حقيقة الدِّين وحقيقة الدَّاعي محمد ﷺ، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

بل وأعظم من هذا وذاك؛ أنه أعطىٰ الثقة للمعانِد ليتقدّم ويتكلّم ويحسّ بنفسه وبموقعه، وبأنه كائنٌ حيٌ له عقله فلا بد أن يعقل، وله فهمه فلا بد أن

يفهم، وبعد هذا التعقُّل والتفهُّم؛ لا بد أن نسمع منه ثمرة عقله وثمرة فهمه، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

هكذا أمر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ أن يقول للمشركين المبطلين الضالين الذين لا دين لهم صحيح، ولا عقيدة معتبرة عند الجدال والمناقشة: إمَّا أن أكون أنا على هدًى أو أنتم، وإما أن أكون أنا على ضلال أو أنتم؟!

ومن هذا المنطلق؛ أقدِّم هذه المفاهيم عن بعض القضايا الإسلامية المختلَف فيها بين العلماء، والتي لا يستطيع أحدٌ أن يقول: إنه اتفقت آراء العلماء فيها على كلمة واحدة.

ولا بُدّ من إظهارها ووضعها بين يدي العلماء والباحثين للدراسة والنظر، فإن كانت صوابًا فالحمد لله، وذلك من توفيق الله وتسديده، وإن كانت خطأً؛ فإنه مني وباجتهادي، وذلك لبيان الحقيقة وتصحيح المفاهيم العامة، وليس لنا من وراء ذلك إلَّا الإصلاح وتَوَخِّي الصواب، لأننا بشر نُصِيبُ وَنُخطئ، وكلٌّ مِنَّا يؤخذ منه ويُرَدّ عليه؛ إلَّا السيد المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلَّا وحي يُوحَىٰ، وكلّ كتاب قابل للزيادة والنقصان والتغيير والتبديل والإصلاح والتهذيب؛ إلَّا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومن ادَّعىٰ سوىٰ ذلك فهو مُفْتَرٍ مُمْتَرٍ.

ونحن نعوذ بالله من أن نكون ممن يتعلَّمْ العلم للمماراة أو للمجادلة كما قال ﷺ: «**من طلب العلم ليماري به السفهاء، أو يكابر به العلماء، أو يصرف به وجوه الناس إليه؛ أدخله الله النار**»(١).

وكتابنا هذا كغيره من الكتب، قابل للإصلاح والمراجعة، وأنا بفضل الله أعترف في كُلِّ كتاب ألفته بذلك، **وأقول في آخر ما كتبت**: «إني أسأل الله التوفيق والسَّداد فيما كتبته، فإن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطأً فمن نفسي واجتهادي، وأرجو ممن يَطَّلِع عليه أن يرشدني وأن يدلني على أخطائي».

---

(١) رواه الترمذي، وغيره.

والعلماء لا يزالون يراجع بعضهم بعضًا فيما يكتبون، فإذا حصل الإقناع والرضا لا يتوقف عن الأخذ به إلا مُستكبِر، إلا إذا كان له في ذلك تأويل أو وجهة نظر أو دليل أو شبهة دليل، فإنه إن لم يلتمس له العذر؛ فأقل ما في الأمر أن يسكت عنه.

والحوار بين العلماء بصورة خاصة يتميز بالموضوعية وروح التفاهم والورع وتقوى الله عزّ وجَل؛ لأنَّ رائدهم جميعًا التوعية والتوجيه والذَّوْد عن محارم الله عز وجل، والأخذ بيد الناس لكل ما فيه الخير، فهم ورثة الأنبياء.

وإنّي أسأل الله عزّ وجَل أن يُجَنِّبَنا مصادر الزلل، وأن يهدينا سواء السبيل، إنه سميع مجيب، وبالله التوفيق.

السيد محمد بن علوي المالكي الحسني

تتعلق

بالأحاديث الواردة في الكتاب

هذا؛ وقد نقلنا في هذا الكتاب جملة وافرة من الأحاديث النبوية والآثار المروية، ونقلنا أقوال أئمة العلم من كبار علماء الحديث المعتمدين في الحكم عليها، وبيان درجاتها، فمنهم من صَحّح بعضها، ومنهم من حسَّن بعضها، ومنهم من توقف في بعضها، ومنهم من ضعف بعضها.

والمقصود: أنَّ التصحيح والتحسين والتضعيف، إذا ثبتت عن واحد من علماء الحديث المعتمدين؛ مثل: الترمذي، والبيهقي، والمُنذري، والهيثمي، ففيه كفاية عن البحث والتنقيب والمراجعة في كتب الجرح والتعديل وأسماء الرجال.

نعم؛ إذا لم يتكلم أحد من المُحدِّثين المعتمدين في الحديث بشيء، فالمجال مفتوح أمام من يريد البحث والنظر والمراجعة، وهذا باب واسع وميدان فسيح، ومئات الأحاديث التي من هذا النوع تنتظر من يخدمها ويحققها ويخرِّجها.

تقديم
فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف
مفتي الديار المصرية السابق
وعضو جماعة كبار العلماء بالأزهر الشريف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

وبعد: فقد اشتمل هذا الكتاب العظيم للعلامة المُحقق الجليل فضيلة الأستاذ السيد محمد علوي المالكي، على مباحث هَامّةٍ مُفيدةٍ، وموضوعات جليلةٍ عديدة، تنفع المسلمين في هذه الأزمان التي يحتاجون فيها إلى الوقوف على المعلومات الهامة، والأحكام العامة لخدمة الإسلام، وتحقيق العقائد الدينية، والدعوة إلى الأخذ بما جَاد به الرسول صلى الله عليه وسلم على الأمة الإسلامية من الخير الجزيل، والفوائد العظيمة النادرة، والنصح لأمّة الإسلام في هذه الأزمان بالموعظة الحسنة، والتي يُحارب فيها الإسلام من كثير من الأعداء، ويحرصُون فيه على تأييد المبادئ الضّالة، والدّعايات الكاذبة ضد الإسلام وأهله، تحقيقًا لأغراضهم ضد الإسلام وأهله، وسعيًا لتأييد أعدائه، والله تعالى مُتِمُّ نُوره على عباده المسلمين؛ بما وُفّق له هذا العالم الجليل لتأييد ونشر دعوته، وتحقيق مسائله والإرشاد إلى ما دعىٰ إليه من العلم الجزيل، والفوائد الثمينة، والموضوعات الهامة التي تحقق الهداية والدراية، والدعوة الصالحة حسمًا للنزاع والمُكابرة، والخلاف والمُدابرة.

وقد ظهر من مباحث هذا الكتاب أنه حُجّةٌ وبُرهان، وقَولٌ صَادقٌ وبيان؛

فيه للمسلمين عِزّةٌ وكَرامة، وتحقيقٌ وَافٍ وأمانة، وأن نَشرهُ في هذه الأزمان مما يَعتزّ به الإِسلام، ويُقْضَىٰ به على مكائد الأعداء اللئام.

وقد أفاض المؤلف حفظه الله في البيان الواضح، حيث تحدَّث بعلم غزير، وتحقيق واضح، عن مسائل هَامّة في معرفة المفاهيم الصحيحة السليمة، والذودِ عن كُلِّ مفهوم سقيم، ولصدّ الأعداء الكائدين، ولإِقامة الحق المبين في بلاد الإِسلام والمسلمين.

ذلك أنَّ من مباحث هذا الكتاب ودعوته الحقة؛ وأسلوبه الرصين ما يأتي:

التحذير من المجازفة بتكفير المسلمين، ونقل فيه انعقاد الإِجماع على منع تكفير أحدٍ من أهل القبلة.

التفرقة بين مقام الخالق والمخلوق، وهو الحدُّ الفاصل بين الكفر والإِسلام.

المجاز العقلي، وضرورة ملاحظته في مقياس الكفر والإِيمان.

التعظيم بين العبادة والأدب.

الواسطة بين الخالق والمخلوق، وبيّن فيها الواسطة الشِّركية.

البدعة وتقسيم العلماء لها، بَيّنَ فيه لأصحاب الأفهام السقيمة، والصدور الضيّقة، من حاربوا كُلَّ جديد، وتنكروا لكل مُخترع مُفيد، بَيَّنَ لهم المفهوم الصحيح للبدعة، وتقسيم العلماء لها.

الأشاعرة، بَيَّنَ فيه مذهبهم، وذكر بعض من ينتسب إليهم، لكي يتورع كُلّ من يَنسِبُ إليهم سهام الضلال والمروق من الدِّين.

حقيقة التوسل، وبَيّنَ فيه التوسل المتفق عليه، وحديث توسل آدم بالنبي صلى الله عليه وسلم، ونقل كلامًا نفيسًا ورأيًا لطيفًا للشيخ ابن تيمية، ومحمد بن عبد الوهاب، ونقل كلامًا جيدًا عن الشوكاني في جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم، وفي نهاية البحث ذكر أشهر من يقول بالتوسل من كبار الأئمة وحفاظ السُّنة.

الشفاعة، حقيقتها وطلب الصحابة من النبي صلى الله عليه وسلم الشفاعة،

وتفسير ابن تيمية لآيات الشفاعة.

مفهوم الاستعانة، والتَّوجّه بالطلب للنبي صلى الله عليه وسلم، وبعض الدَعاوىٰ الباطلة التي تُثار حول هذا الموضوع في «الباب الثاني» من الكتاب، فذكر فيه مباحث قيمة عن الخصائص النبوية، وحقيقة النبوة والبشرية، ومفهوم الحياة البرزخية.

وفي بحث مُستفيضٍ تَحدّث المؤلف عن التبرك، ومفهومه الذي يُخطِئُ كثيرٌ من الناس في فهم حقيقته.

وشرع في «الباب الثالث» من الكتاب فذكر فيه مَباحث مُختلفة يَتعطّشُ إليها الباحث، فمن بينها مشروعية الزيارة النبوية وما يَتعلّقُ بها.

والمفهوم الصحيح لحديث: «**لا تُشَدّ الرِّحَال**. . .»، وكلام أئمة السلف في مشروعية زيارة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وذكر في هذا الباب بعض المباحث اللطيفة عن الآثار النبوية والاعتناء بها، واعتناء القرآن بآثار الأنبياء السابقين، وَمُحافظة الصحابة على بعض الآثار النبوية، ومفهوم الاجتماع والمولد النبوي.

وذكر قصة عِتق ثُويبَة وتوجيه العلماء لها.

وهذا عَرضٌ إجمالي لما تَضمّنهُ الكتاب، والذي يُعتبر مُؤلّفه أحد علماء الحرمين الشريفين، من تَضلّع من بحر الحوض الإلهي والسُّنة النبوية، صاحب المجالس العلمية والدروس النبوية، والتي كان يَحضرُها الجَمُّ الغفير من المُستفيدين.

صَاحبُ المُساهمات العلمية والندوات الفقهية التي كان يُشارك بها في رابطة العالم الإسلامي، وفي حفلات مسابقة تحفيظ القرآن الكريم، ومؤتمرات السنة النبوية.

صاحب التآليف الكثيرة، والتي بلغت نيفًا وثلاثين مُؤلفًا، منها ما هو في القرآن وعلومه، وفي الحديث وفنونه، والسيرة النبوية، والنصائح الدينية، والدعوة الإصلاحية.

وَكلٌّ ذلك يَدعُونا إلى تقدير هذا الكتاب ودعوة المسلمين إلى مطالعته، والقيام بدعوته، وحثِّ العالم الإسلامي إلى وجوب دراسته، وتعليم أولادهم بما فيه من الحق الصريح، والقول الصحيح، والدفاع عن حرمات الإسلام، وبيان ما اجترحه الأعداء من الضلالات والأكاذيب والدعوات الباطلة، والله تعالى يُؤيِّد عباده الصالحين بتأييد دينه القويم أتم تأييد.

وفي الختام نسأل الله تعالى أن يُوفِّق المسلمين جميعًا لمطالعة هذا الكتاب وتأييد دعوته.

ونسأل الله تعالى لمؤلفه المثوبة والسلامة من المكائد، وتحقيقًا لما دَلّ عليه القرآن من نَصر دعاة الحقِّ والدِّين، وَخِذلانِ دُعاة الباطل أعداء الدين.

والله الموفق والهادي إلى الحق المبين.

تحريرًا في آخر جمادى الأولى سنة ١٤٠٥هـ.

حسنين محمد مخلوف
مفتي الديار المصرية السابق
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف
عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي
الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية
لخدمة الدعوة الإسلامية

مُصادَقةُ كِبار علماء العالم الإِسلامي

هذا، وقد اطّلعَ بعض كبار علماء العالم الإسلامي على ما كتبه سماحة الإمام شيخ الإسلام الشيخ محمد مخلوف، مُفتي مصر سابقًا، وعضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف، وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مقدمة كتاب «المفاهيم» فأيدوا ذلك ووافقوا عليه، وكتبوا المُصادقة عليه وهم:

(١) العلامة المؤرخ الفقيه الشيخ محمد بن أحمد بن حسن الخزرجي وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف بدولة الإمارات العربية المتحدة.

(٢) فضيلة العلّامة الكبير الدّاعي إلى الله الشيخ الأستاذ الدكتور محمد الطيب النجار، (رئيس جامعة الأزهر سابقًا، ورئيس مركز السنّة والسيرة، وعضو لجنة جائزة الملك فيصل العالمية).

(٣) فضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ أبي الوفاء التفتازاني.

(وكيل جامعة القاهرة).

(٤) فضيلة الفقيه المُفتي الشيخ محمد بن عبد الرحمن آل الشيخ أبي بكر بن سالم. (مفتي جمهورية جزر القُمُر الإسلامية).

(٥) فضيلة الأستاذ المستشار السيد علي بن عبد الرحمن الهاشمي الحسني.

(المستشار بديوان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة).

(٦) فضيلة الشيخ إمام موسى ضيف الله.

(عضو الرابطة الإسلامية، وإمام مسلمي تشاد).

تقريظ
العلّامة المؤرخ الفقيه الشيخ محمد الخزرجي
وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف
بدولة الإمارات العربية المتحدة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ذِي المحامد والآلاء، المُنعم على عباده بما شاء، وَأُصلي وأسلم على أفضل الأنبياء، وعلى آله وصحبه النُّجباء.

أما بعد:

فقد تَصفّحتُ الكتاب الذي جَمعهُ وألّفهُ العالِم الجليل، المُحقق النَّبيل السيد محمد بن علوي المالكي الحسني، فَرعُ الشجرة النبوية، وَسليلُ العترة الهاشمية المُسمّىٰ: **«مفاهيم يجب أن تصحح»**.

ففي كتابه هذا وضع الأمور في مَجاريها، وحَاد عن الشَّطط في مراميها، وجنّبها الإفراط والتفريط، وصحَّحَ الأوهام والتخليط، وبذل النصيحة لإخوانه المسلمين بالأدلة القاطعة والبراهين، ليسلكوا مسالك السلف، وَيُقلدوا أهل الفضل من الخلف.

والكتاب يتعلق بأمور ثلاثة: مباحث في العقيدة، مباحث نبوية، مباحث مختلفة في الحياة البرزخية، ومشروعية الزيارة والمناسبات الدينية.

ومعشر المسلمين اليوم أشدُّ حاجة إلى علم هذه الحقائق، المشتملة عليها هذه المباحث، وقد اختلط عليهم الحَابِلُ بالنَّابِل، وتصدر للفتوىٰ كُلّ جاهل، ممن يقصر إدراكه عن فهم كتاب الله عَز وجَل، ومقاصد السّنة النبوية.

فجاء بالإيضاح والتدقيق، ليبتعدوا عن مواقع الضلال ويكونوا خير مثال، مُوفّقين في الأفعال والأقوال.

والله أسأل أن يَمُنَّ على مؤلفه بلطفه وعنايته، ويشمله بحفظه ورعايته.

وصلَّىٰ الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

حرره
محمد ابن الشيخ أحمد
ابن الشيخ حسن الخزرجي
وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف
ورئيس لجنة التراث والتاريخ
وقاضي إمارات أبو ظبي سابقًا
في دولة الإمارات العربية المتحدة

تقريظ
العلّامة الشيخ محمد الطيب النجار
رئيس مركز السنة والسيرة الدولي
ورئيس جامعة الأزهر سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

وبعد: فإنَّ حياة العالم الجليل السيد محمد علوي المالكي المكي الحسني كحياة الشجرة الطيبة، التي نَمت في أرض طيبة، وترعرعت في بيئة صالحة، وتهيأت لها العناية والرعاية، حتى انبسطت ظلالها وأينعت ثمارها، وفاض على الناس خيرها وبرها.

ولا غرو ولا عَجب، فلقد كان والده الجليل السيد علوي المالكي طيَّب الله ثراه وأكرم مثواه، من العلماء الأعلام الذين وهبوا أنفسهم للعلم، فعاشوا في محرابه سَدَنةً رَاهبين وكرامًا كاتبين، وعلماء عاملين، وكان بيته في مكة المكرمة، وإلى جوار الكعبة المشرفة هو النَّدِيَّ الحافل الذي يَضُمّ الصفوة المختارة من علماء المسلمين، يستمعون إلى آي الذكر الكريم، وإلى السنّة النبوية الشريفة ويتدارسونهما في وعيٍ عميقٍ، وتمحيصٍ وتدقيق.

ثم تنتهي جلساتهم بالاستماع إلى المدائح النبوية من شعر العارف بالله صاحب الدار، حيث يلقيها فضيلته بلسان عربي، وقلب تقي وإيمان نقي،

فليس بغريب إذًا أن يكون الشيخ الجليل والابن الصالح السيد محمد علوي المالكي صورة صادقة لوالده الجليل، وأن يسير في حياته على نهج أبيه علمًا وأدبًا ودينًا (ومن يُشَابِهْ أباهُ فما ظلم).

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن إنما هو كتاب واحدٌ من بين عشرات الكتب الدينية والعلمية التي أخرجها السيد محمد، وكلها والحمد لله مَليئةٌ بالعلم النافع والرأي السليم والفكر الناضج، وقد نفع الله بها الملايين من المسلمين، وذلك فضل الله، والله ذو الفضل العظيم.

أما هذا الكتاب الذي سَمَّاهُ مؤلفه الفاضل «**مفاهيم يجب أن تصحح**»، فهو بحقٍّ بَيانٌ وَاضحٌ لبعض المفاهيم التي آمن بها بعض الناس، وظنوا أنَّ إنكارها باطلٌ من القول وزور.

وكان من حَقِّ العلم على المؤلف الفاضل؛ أن يُصحِّحَ تلك المفاهيم الخاطئة، وأن يدلي فيها بكلمة الحق خالصة لوجه الله وحده، وهو بهذا العمل الشجاع يتعرض لوخز الإبر ويمشي على الشوك، ولكن من أجل الوصول إلى أنبل الغايات وخير القربات.

فجزاه الله عن العلم والدين خير الجزاء.

هذا: ومن الله العون وبه التوفيق

أ.د/ محمد الطيب النجار
وكيل الأزهر الأسبق ورئيس جامعة الأزهر سابقًا
وعضو مجمع البحوث الإسلامية بمصر
وعضو مجمع اللغة العربية بمصر
وعضو المجالس القومية المتخصصة
وعضو لجنة جائزة الملك فيصل العالمية

تقريظ

علامة المغرب المُحدِّث المحقق الأستاذ

السيد عبد الله كَنُّون الحسني

رئيس رابطة علماء المغرب، وعضو رابطة العالم الإِسلامي بمكة المكرمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه، ومن والاه.

وبعد: فقد أطلعني الأخ في الله العلّامة الجليل السيد محمد علوي المالكي على هذا الكتاب الذي سماه: «**مفاهيم يجب أن تصحح**»، وجعله ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في العقيدة.

والباب الثاني: في النبوة.

والباب الثالث: في الزيارة.

ولا يعني بهذه المطالب أصولها وحقائقها المُبينة في مَظانّها، ولكنه يريد ما يتعلق بها من مباحث اختلفت الأقوال فيها بين العلماء من السلف والخلف، كما اختلفوا في المسائل الفقهية الفرعية، والتي لم يرد فيها نَصٌّ صَريح، فذهب اجتهاد كلٌّ منهم إلى ما اطمأنت إليه نفسه، ولكن أحدًا منهم لم يَعب على غيره، ولا أنكر ما أَدَّاهُ إليه اجتهاده، وكان الاجتهاد ولا يزال يُؤدّي إلى نفس النتائج، ولن يؤدي حتمًا إلى نتيجة واحدة، ولذا كان المجتهدون كلهم مَأجُورين، والأجر إنما يكون على عمل صالح، لا على عمل مذموم.

وكنّا نقول: إنَّ الخلاف في مثل هذه المطالب قد انتهىٰ كما انتهىٰ الخلاف في الفروع الفقهية بصلاة المسلمين في المؤتمر الإِسلامي المنعقد بالقدس سنة ١٩٣١م خلف الإمام الطباطبائي الشيعي على اختلاف مذاهبهم،

وبعدما أغلقت المحاريب المتعددة التي كانت في المسجد الأموي، والأزهر وغيرهما، وصار المسلمون يُصلُّون وراء إمام المسجد الواحد في المحراب الواحد، ولا يسألون عن مذهبه ولا عن عقيدته، كما كان الصحابة يُصلّون خلف الحجاج بن يوسف في البصرة وغيره في غيرها، ولكن أبىٰ الشيطان إلَّا أن يبعثها جَذعةً بين المسلمين في الوقت الذي هُمْ فيه أحوج ما يكونون إلى الوفاق، ونبذ الخلاف والتصدي لعدو دينهم، كما أمرهم الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ فعادت فتنة الأشعرية والسلفية في العقيدة، وَفرّقت المسلمين وجعلت بعضهم يُبدِّع بعضًا، أو يكفّره.

والأشعرية إنما قامت لما طَغىٰ التجسيم على الناس ـ أعني العامة ـ، وصاروا لا يُحققون مفهوم التنزيه، فجنحوا إلى التأويل إنقاذًا للعقيدة.

والتأويل مَنحىً شرعيٌ لا جِدال فيه بنص القرآن ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ الآية.

وقد كان الأشعري من الراسخين في العلم، وكذا أبو المعالي الجويني إمام الحرمين، وأبو حامد الغزالي حُجّة الإسلام، وغيرهم من أعلام الأشاعرة، وهي ثلاثة أقوال في المتشابهة:

ما يُعزىٰ إلى السلف، وهو اعتقاد مَدلول اللفظ مع التنزيه ونفي التشبيه.

والتأويل بما تَحتمله اللغة وَطُرق المجاز، وهو مذهب الخلف، ومذهب الأشعري الذي صار إليه بعد التأويل، وهو: أنَّ هذه المُتشابهات صفات لله عزّ وجل لا نَعرفُ كُنهها، ولكننا نُؤمن بها كما جاءت. على أنَّ المُؤولين كما قلنا إنما أرادوا بذلك إنقاذ العامة من شُبهِ المتشابهات، ولذلك قَلّ منهم من لم يكن يَرجع إلى التفويض حتى أنَّ بعضهم كان يقول: اللهم إيمانًا كإيمان العجائز.

والمهم أنهم كلهم أهل سُنّةٍ وجماعة، مؤمنون بما جاء به عن الله ورسوله الكريم كما أمر، فكيف يصح أن يكفّر أو يبدّع هذا ذاك؟

ما هو إلَّا التَعصُب وضيق العَطن إن لم يكن للسياسة في ذلك مدخل، وقد وقع فعلًا في المغرب أنَّ المهدي بن تومرت بعد أن رَجع من رحلته لطلب العلم في المشرق ولقي أقطاب المذهب الأشعري مثل الكِيّا الهراسي وتلك

الطبقة، قام بنشر هذا المذهب في المغرب، ولما ادّعىٰ المهدوية وأسس دولة الموحدين ألزم الناس به، وحارب مذهب السلف، ونبذ المرابطين أصحاب الدولة قبله بالمُجسمين، وكانوا على مذهب السلف في العقيدة، وسمّىٰ أصحابه بالموحدين، كما حارب المذهب المالكي ورجاله من فقهاء المغرب والأندلس، وهكذا نشأت العداوة بين الطرفين، وكان السبب سياسيًا قبل كلّ شيء.

وما قيل في هذه المسألة مما اشتمل عليه «الباب الأول» من الكتاب يقال في مسألة المولد النبوي من مسائل «الباب الثاني»، ومسألة الزيارة من مسائل «الباب الثالث».

فالاحتفال بمولده صلى الله عليه وسلم إن لم يفعله من سَبق، فكثير مما نفعله لم يفعله، وهي حُجّة لم يقبلها الفَاروق من الصِّديق لما طلب جَمع المصحف، فكان أن رجع إلى كلامه وجمعه.

ونظيرها: أمر عمر بن عبد العزيز علماء الأمصار بكتابة الحديث، وكان من قبلهم يَتحرجُونَ من ذلك، فوافقوه جميعهم ولم يقولوا له: أتفعل ما لم يفعله الأولون، كذا يُقال في نَقط المصحف وشَكله، وإحداث المحاريب في المساجد وبناء المآذن، بحيث صار الأمر إلى ألَّا يُبنىٰ مسجدٌ بدون محراب ولا مِأذنة، ولم يكن ذلك في عهده عليه الصلاة والسلام.

والقائمة طويلة، والمقصود أنَّ من غلبت عليه محبة المصطفىٰ نبي الرحمة وشفيع الأمة صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ومجد وعظم فاحتفل بمولده، فهو أحرىٰ أن نقول له حسنًا، لا أن نُنكر عليه وَنُقيم الدنيا وَنُقعِدها لأمرٍ أَقلُّ ما يُحكم به عليه أنه جائز.

والعَجبُ العجيب أن يعترضَ مؤمنٌ على زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أمرنا بزيارة القبور مطلق القبور لنتعظ بها ونعتبر، وبزيارة قبور آبائنا وأمهاتنا وقرابتنا صلة للرحم، وتعهدًا لهم بالدعاء الصالح، وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم استأذن ربه في زيارة قبر أمه؛ فَأُذنَ له.

فكيف لا نَزُور قبر أشرف المرسلين الذي هدانا الله به إلى الصراط المستقيم، وهو أمنُ الناس علينا وأحبهم إلينا، بل وأحبُّ إلينا من آبائنا وأبنائنا

ومن أنفسنا التي هي بين جنبينا؟

لا جَرم أنَّ ذلك ـ أي تَركَ زيارة قبره، وخصوصًا لمن حَجّ وأصبح من المدينة على غلوة أو غلوتين ـ لمن أعظم الجفاء، ولو لم يَصح حديث: (مَن حَجّ ولم يزرني فقد جفاني)، فاتركوا الناس وإيمانهم أيها المُنكرون، وإذا لم تتحرك مشاعركم لهذه المشاهد؛ فعليكم وأنفسكم، ولا تَحرمُوا عباد الله من التعرض لنفحاته التي مَنَّ بها على من يشاء، فالأمر كما قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم: **«إنما أنا قَاسِمٌ والله المُعطي»**، وشكرًا للسيد السّند محمد علوي لتحريره هذه المباحث وتحقيقه لمفاهيمها، وأعتقد أنه قد بلغ بها المُنتهىٰ، فلا يشغل نفسه بعدُ بالجدال فيها والمِرَاءِ عليها، ففي الحديث: **«من ترك المراء وهو محقٌّ، بَنىٰ الله له قصرًا في أعلىٰ الجنة، ومن تركه وهو مُبطِلٌ، بنَىٰ الله له قصرًا في رَبَضِ الجنة»**.

ذلك لأنَّ مَهمة العلماء في عصرنا هذا: هي إيقاظ الشعور والغيرة في نفوس المسلمين، وحملُ رؤسائهم وقادتهم على الوقوف في وجه أعداء الإسلام المستعبدين للمستضعفين من المؤمنين في فلسطين وأرتيريا وأفغانستان والفليبين، ومن يشغل نفسه بهذه المسائل وَيُفرق بها صفوف المسلمين؛ إنما يُغطي على تقصيره وانحرافه عما هو واجب عليه مما لا يُعذر فيه ولا يَجزيه من الله شيء، فالإسلام لا أرض له اليوم، والمسلمون يُسامُونَ الهوان في كلِّ مكان، ولن تقوم قَائمةٌ ولن تُرفع عنهم عَصا الذلّ؛ حتى يجندوا أنفسهم للدفاع عن كيان الإسلام وحماية بيضته، مع من بيده الحلّ والعقد من أولي الأمر.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

كتبه بفاس في ٢ شعبان ١٤٠٥هـ

عبد الله كنون الحسني الأمين العام لرابطة العلماء بالمغرب
وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة
وعضو الجامعة العربية، وعضو أكاديمية المملكة المغربية
وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي
وعضو مجلس الوصاية على العرش بالمغرب

تقريظ

فضيلة الدكتور الحسيني هاشم

وكيل الأزهر الشريف

وأمين عام مجمع البحوث الإسلامية سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين.

وبعد: فَأُقدِّمُ للعالم الإسلامي كتاب «**مفاهيم يجب أن تصحح**» لمؤلفه فضيلة الأستاذ الكبير والدّاعية الإسلامي المُحبِّ لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، السيد محمد علوي المالكي المكي الحسني، خادم العلم وأهله بالحرمين الشريفين.

وقد اتسم بيت المالكي بالعلم والهداية، وكُلُّ من له صلةٌ بالحرمين الشريفين المباركين يَعرِفُ أصالة بيت المالكي في الهداية والإرشاد والدعوة إلى الله تبارك وتعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وربط الدّارسين في حلقاتهم بأهم وسائل التربية وأنجحها؛ بحب الله تبارك وتعالى وحُبّ رسوله صلى الله عليه وسلم، وما قامت دولة الدعوة الإسلامية ونجحت هذا النجاح الباهر، إلّا بالحب الذي غَرسه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قلوب المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم.

حبٌّ لله ورسوله صلى الله عليه وسلم وَحبٌّ للمسلمين يتمثل في المؤاخاة بين الأوس والخزرج، وبين المهاجرين والأنصار.

امتنّ الله بمنهج الحُبّ على المسلمين، وبيّنَ لهم بأنه نِعمةٌ من عند الله

تعالى، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ الآية.

وأشاد بمنهج الحُبّ فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الآية.

وبيت المالكي اتّخذ هذا المنهج الإسلامي وركّزَ عليه، فقد رَأيتُ والد السيد محمد علوي في دروسه بالمسجد الحرام يُدرِّس التفسير والحديث، والفقه، وَيربطُ كُلَّ ذلك بحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وسار على منهجه نَجله السيد محمد، يُدرّسُ التفسير والحديث واللغة، وَيربطُ ذلك بحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

من أجل ذلك: التفَّت القلوب حول بيت المالكي، وتوافد عليه طلاب العلم من أرجاء العالم الإسلامي ليتعلموا العلم والعمل، وحبّ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ووضع الله القبول لهذا البيت المبارك.

وإنَّ القارئ لهذا الكتاب الذي نُقدِّمُهُ، يجد فيه المنهج العلمي الذي يدلُّ على الأصالة في الدراسة العلمية والتحقيق الجيد.

كما يَدلّ على الدعوة الصادقة إلى حُبِّ الله وحُبِّ رسوله صلى الله عليه وسلم، فالكتاب يَتعرّضُ لعدة قضايا هامّة مُجملةٍ فيما يلي:

الباب الأول: مَباحثُ في العقيدة، وفيها بيان فساد مقاييس التكفير والتضليل اليوم.

الباب الثاني: وفيه مَباحثُ نبوية، منها: الخصائص النبوية، وحقيقة النبوة البشرية، ومفهوم التبرك بالنبي وآثاره صلى الله عليه وسلم.

الباب الثالث: مَباحثُ مختلفة عن الحياة البرزخية، ومشروعية الزيارة النبوية، وما يتعلق بها.

وإنَّ هذا الكتاب يُوفِّر على المسلمين الخلافات التي تُمزق وَحدَتهم، وذلك ببيان المنهج السليم والقول الحق، حتى يَجتمع المسلمون على الخير والحق.

وفي الختام نسأل الله العليَّ القدير، أن ينفع المسلمين بهذا الكتاب القيم، وأن يكتب الخير والفلاحَ لمؤلفه ولكلِّ قارئ له. والله ولي التوفيق.

الدكتور الحسيني عبد المجيد هاشم

وكيل الأزهر الشريف

والأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية سابقًا

في ٣ ـ ٦ ـ ١٤٠٥هـ

تقريظ
فضيلة الأستاذ الدكتور رؤوف شلبي
وكيل الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله سيدنا محمد بن عبد الله، صلَّىٰ الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هداه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإنَّ الشيخ الفاضل الدكتور محمد علوي المالكي المكي الحسني من خيرة علماء الإسلام وأحسنهم سُلوكًا، وأفضلهم خُلقًا، وقد عرفناه منذ كان طالبًا بالدراسات العليا بجامعة الأزهر الشريف، والأزهر حِصنُ الضّاد، وَعرينُ الدعوة، وموئل الشريعة.

به صَان الله أُمّة العرب من الشرك في الدِّين، ومن اللحن في اللغة، ومن الصَدّ عن سبيل الله، وقد رفع لواء التوحيد النقي، ودافع عن الإسلام ونشر لواءه في ربوع الدنيا كلها، لا نَجدُ في قرية صغيرة ولا مدينة كبيرة في شتىٰ أنحاء العالم؛ إلَّا وهناك عالم من علماء الأزهر، تَخرّج في أروقته، وسمع من شيوخه، وحمل إجازته.

والشيخ محمد علوي من هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين ترعرعوا في جنبات الأزهر، وحمل مع علمائه لواء الدفاع عن التوحيد الحق، والسلوك الفاضل، وَتصدَّىٰ بخلق فاضل وأسلوب مُهذبٍ غير عَيّابٍ ولا شَتّامٍ وسَبَّابٍ لمن انحرفوا عن الجادة مُدّعين الإسلام.

والذين يجاهدون في سبيل الله عليهم أن يتأدبوا بأدب الإسلام:

يحافظون على سمو مكارم الأخلاق التي جاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليتممها.

ويترفعون عن المِرَاءِ والجِدَالِ وكثرة القيل والقال، وفرط السؤال، فقد نهانا حبيبنا صلى الله عليه وسلم عن: «**القيل والقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**».

وأن يلتمسوا كُلَّ أمرٍ يُوحّدُ بين المسلمين ويجمعهم، ولا يُفرّقوا أو يُشَتّتوا.

فإنَّ الجهاد تَبعةٌ ثقيلةٌ من تَصدّىٰ لها؛ عليه أن يَتحلّىٰ بأخلاق أصحاب مولانا وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكتاب الشيخ محمد علوي: «**مفاهيم يجب أن تصحح**» من الكتب العاقلة المُهذبةِ التي تَردُّ كيد الذين يحاولون وضع الغَبش في عيون المسلمين باسم الإسلام لِدافعٍ شخصي، وفكرةٍ سياسيةٍ مَريضةٍ عرفها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ورفضوها، وقصمها الله عند من له ذوق إسلامي يُحبّ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وجماعة المسلمين.

والشيخ الجليل الموقر ـ ولا أُزكيهِ على الله، فهو حَسبهُ وَحَسيبه ـ من العلماء القِلّة الذين يجاهدون في سبيل الحق على بصيرة وهُدًى، وهو غَنيٌّ عن التعريف.

وإني لأسأل الله أن يحفظه بأدبه الجَمّ وجهاده المُخلص، وأن يَحرسهُ، وأن يرفع عنه السُّوءَ والبلاء، وأن يَنشُر به كلمة الحقِّ والدِّين القويم.

وصلّىٰ الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

د/ رؤوف شلبي

وكيل الأزهر الشريف سابقًا

تقريظ

العلّامة الداعي إلى الله السيد يوسف هاشم الرفاعي

عضو مجلس الأمة، ووزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء الكويتي سابقًا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا وشفيعنا وَأُسوتنا وإمامنا رسول الله صلَّى الله عليه، وعلى آله وسلم وصَحبه ومُحبيه ومن والاه.

وبعد: في خِضَمِّ الصحوة الإسلامية التي تَعُم العالم الإسلامي اليوم، وفي معمعة المُناقشات والمُجادلات والمُحاورات العَارِمة التي تشهدها المساجد والمعاهد والجامعات والمدارس في بلاد المسلمين اليوم حول حقيقة وجوهر مذهب السواد الأعظم من أهل السُّنة، كانت المكتبة الإسلامية والشباب المُسلم في أمسِّ الحاجة إلى كتاب: «**مفاهيم يجب أن تُصحح**» الذي وفّقَ الله تعالى سَماحة أخينا الكريم السيد الدكتور العلّامة الشريف محمد علوي المالكي الحسني حفظه الله تعالى لتأليفه، فخرج إلى النور مِشكاةً يستضِيءُ بها كُلّ الطلاب.

ولا شكَ أنَّ كُلّ طالب حَقٍّ سوف يُسرّ بهذا السِفْر القيّم، وكل مُعانِدٍ سوف تَنهارُ حُجّته، وتَبطلُ لجَاجتُه بعد أن بَيَّنَ السيد محمد علوي مَا بَيّنَ، وأوضح ما أوضح مُستندًا بذلك كله إلى كتاب الله وسُنّة رسوله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى أقوال وآثار السلف الصالح من هذه الأمة المحمدية الكريمة.

والله تعالى أسأل أن يكون الرُجوع من الجميع بعد مُطالعةِ هذا الكتاب القيم إلى الحق لأنه دَيدَنُ المؤمن، كما ورد في الأثر: «الحكمةُ ضَالةُ المؤمن أنّىٰ وجدها التقطها».

ولا شك أنه في مُواجهة أعداء الإِسلام وأعداء أهل السُّنة اليوم المُتكالبين علينا من كُلِّ مكان؛ يقتضينا الصّدعُ بأوامر الشرع الشريف، والحزمُ والحِكمةُ والعقل أن نَتعاون ونتآلف ونتحابب ونُحسنَ الظنّ ببعضنا بعضًا، ويكون شعارنا أن نتعاون فيما اتفقنا عليه، وأن يَعذُر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه، حتى نسير بسفينة الإِسلام إلى شاطئ العزة والكرامة والسلامة، وبالله التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

السيد يوسف هاشم الرفاعي
عضو مجلس الأمة ووزير الدولة
لشؤون مجلس الوزراء الكويتي سابقًا
ورئيس لجنة الأقليات الإِسلامية
في العالم بالمؤتمر الإِسلامي

تقريظ

فضيلة العلّامة الدكتور عبد الفتاح بركة

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير، والصلاة والسلام على الشاهد البشير النذير، وعلى آله وأصحابه ذوي المقام الخطير، ومن تبعهم ووالاهم إلى يوم الدِّين. وبعد:

فقد اطلعتُ على كتاب «**مفاهيم يجب أن تصحح**» للعالم العلّامة المحقق الجليل السيد محمد علوي المالكي الحسني، وهو ابن أستاذي وشيخي السيد علوي المالكي رحمه الله، وأجزل في العلماء العاملين مثوبته جزاءَ ما قَدّم للعلم وأهله وللدعوة ورجالها.

واعلم أنني لن أزيد في بيان فضائل هذا الكتاب، ولا في بيان فضائل مؤلفه، مما بذله من الجهد في تحليل المشاكل، وتقريب المسائل، والتدقيق في الفروع وربطها بالأصول، أكثر مما أفاضت فيه هذه النخبة الفاضلة من العلماء الأجلاء، وإنما يَحدُوني إلى الكتابة أن أنتسب إلى هذه الزمرة الخيرة، وأضم صوتي إلى ندائهم العلوي بهذا الحق الصراح، فأرفع من صوتهم وأكثر من سوادهم، وأشرف بنصرة الحق والتواصي به معهم.

ومن الحق أن نقول: إنَّ لدىٰ الأمة الإسلامية من هموم العداوات الخارجية ما يكفيها، وأعداؤها يَتربصُون بها ويكيدون لها، ولا يملون ليلًا ولا نهارًا من تدبير المؤامرات، واختلاق الذرائع والمبررات للإيقاع بالأمة الإسلامية، ونبذها في حالك الظلمات.

ولو اقتصر الأمر على ذلك فربما هَانَ الأمر، ووجدنا في أنفسنا من المقومات ما يجعلنا نَتصدَّىٰ لهذه المؤامرات والمخططات، وَنردّ سهامها إلى صدور أصحابها، ولكن الأمر أوسع من ذلك، فقد كان من تدبير هؤلاء الأعداء أن يشغلوا المسلمين بأنفسهم، وأن يشعلوا بينهم نيران العداوة والبغضاء، والتَنابز والتدابر، وقد نجحوا ـ أو كادوا ـ في جميع الميادين، وَدبّ دَبيبُ سمومهم إلى الفكر الذي يقوم عليه كيان الأمة، وكلُّ فُرقةٍ تقع في غير ميدان الفكر الديني فعلاجها قريب، وتجاوزها يسير، أما إذا اعتمدت الفُرقَةُ على قواعد نظرية، وأصول فكرية، فمن الصعب أن تجد لها علاجًا شافيًا، أو دواء ناجعًا، خاصة إذا تسربت الخلافات إلى الأصول وتناولت العقائد، فعندئذ تَحارُ العقول وتَثور الفتن ويَضيعُ الرشاد.

وَكُلّ مُخلصٍ لدينه، غَيُورٍ على أُمتهِ، عليه أن يبتعدَ عن هذه المزالق وينجو بنفسه من نيرانها، ويحمي الأُمةَ مما يَحمله من شررها، أو أن يكون عالمًا ثبتًا، بصيرًا في أمر نفسه، وفي أمر الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فيعمل على إزالة الشبهات، وإبطال أسباب الخلافات، ويَردّ المسائل إلى أصلها النَقي مُبرأةً من عوامل الفُرقَة، وأسباب الشقاق، حتى يمكن أن يُعيدَ للأُمّة صحتها، ويحفظ عليها وِحدَتها، وَيُهيئَ لها أسباب عزتها وكرامتها.

وفي هذا الكتاب النفيس جُهدٌ كَبيرٌ من عَالمٍ مُدققٍ مُحقق، يعمل به على جمع كلمة المسلمين، ومحو آثار العصبية عند الاختلاف في المسائل الفرعية والاجتهادية، خاصة فيما يتعلق بتنابز بعض طوائف المسلمين فيما بينهم بالكفر أو بالشرك، وما يتعلق ببعض الفِرق الإسلامية كالأشاعرة والسلفية الحديثة، وباستعمال المجاز العقلي وضرورة ملاحظته عند تطبيق المقاييس على ما يكون به الكفر والإيمان، وكذلك بالنسبة لمعنىٰ الشفاعة، وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وغير ذلك من الموضوعات الحساسة.

وذلك من خلال محاور ثلاثة:

مَباحثُ حول العقيدة ومقاييسها، ومَباحثُ نبوية، ومَباحثُ تتعلق بالحياة البرزخية، ومشروعية الزيارة، والمناسبات الدينية.

والمسلمون أحوَجُ ما يكونون اليوم إلى رَأبِ الصّدع فيما بينهم، والاجتماع على كلمة سواء يَعذُر فيها المُسلم أخاه فيما يَسعه الدِّين من اختلاف في الرأي والاجتهاد، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر على مواجهة أعدائنا الحقيقيين الذين يكيدون للإسلام ليُطفئوا نور الله بأفواههم، والله مُتِمٌّ نُوره ولو كَره الكافرون.

وعسىٰ أن يكون هذا الكتاب القيم إسهامًا مباركًا في إزالة أسباب الخُلفِ والاختلاف، وتحقيق أسباب الأُلفةِ والائتلاف بين المسلمين.

والله من وراء القصد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الأمين العام
لمجمع البحوث الإسلامية
(أ.د /عبد الفتاح عبد الله بركة)

تقريظ

رئيس قسم الحديث الشريف، وبعض علماء الأزهر الشريف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذا بَيانٌ من علماء مَجلس قسم الحديث النبوي بجامعة الأزهر الشريف بالقاهرة بشأن ما وصل إلى أيدينا وأيدي المسلمين من كتاب: «**حوار مع المالكي**».

لقد عهدنا المملكة العربية السعودية مَهد العلم، ومَهبطِ الوحي، وعهدنا حكومتها الرشيدة وأسرة آل سعود، أهل إيمان وإخلاص، وأصحاب دعوة صادقة للوحدة والتضامن الإسلامي، وما زالوا كذلك والحمد لله، وسيظلون رافعين راية الحق والوحدة والتضامن حَامِينَ البقاع المقدسة، وخادمين للحرمين الشريفين.

كما عهدنا وعهد الكثير منّا ممن عَمل أستاذًا بكليات المملكة، وممن ذهب إلى الحرم المكي، عندما يدخل من باب السلام حيث يُشاهد أكبر حلقة عِلمية كُبرىٰ للحديث النبوي كان يُفيضُ فيها سماحة الشيخ الوقور فضيلة الدكتور السيد محمد علوي المالكي الحسني، وكنا نحن العلماء الذين عَمِلنا بالتدريس هناك، وذهبنا إلى الحرم المكي كُنّا نُشاهد هذا المُحدِّث الكبير الذي قيَّضه

الله تعالى لخدمة الحديث النبوي الشريف، كما قيّض والده من قبله، فكان لهذا البيت فَضلٌ وأَثرٌ، ومجدٌ لا يُنازع، واختص هذا البيت الكريم بالرواية الشَّفاهية للأحاديث النبوية التي يَصلُ فيها السَّند الصحيح المُتّصل من هذا العالم الجليل فضيلة السيد محمد علوي المالكي الحسني عن والده عن شيخه وشيخ شيخه، وهكذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا إلى جانب مؤلفاته المتدفقة وعلمه الغزير، وتلاميذه الكثيرين، ومُحبيه في شتىٰ أنحاء العالم الإسلامي.

وهذا العالم الجليل مِثله يُعتبر ثروةً عِلميةً وروحية، ورائدًا من رواد الثقافة الإسلامية، وإمامًا من أئمة الحديث الذين جمعوا إلى جانب علمهم عملهم وإخلاصهم، نَحسبهُ كذلك ولا نُزكي على الله أحدًا، وما شهدنا إلَّا بما عَلِمنا.

ولكن مما يُؤسَف له؛ أنَّ بعض الذين جَرحُوا هذا العالِم الإمام المُحدِّث الكبير، لم يكونوا على صواب، بل إنهم وقعوا في خطإٍ فاحشٍ حيث وصل بالمعترضين على آرائه أنهم حاولوا أن يُخرِجُوه عن حَظيرة الإسلام، مع أن جميع آرائه والتي قال بها لها سَندٌ من أقوال من سبقه من الأئمة المتقدمين الذين لهم قدرهم، أمثال الإمام السيوطي، وابن حجر، والسبكي وغيرهم.

ولو أنَّ المُعترضين رجعوا إلى المراجع التي استقىٰ منها فضيلته آراءه، لوجدوا أنها صَحِيحةٌ، وأنَّ له سندًا من السُّنة، وقال بها كثيرون من الأئمة والعلماء.

وأمّا بعض الآراء الغريبة التي نَسبُوها إليه وهو منها بَراءٌ، فإنَّ فيها تدليسًا وليست بآرائه، وإنما حاولوا أن يُحرِّفُوا الكَلِمَ عن مواضعه، فكيف يحكُمون عليه بالكفر؟ هلَّا شَقُّوا عن قلبه؟

لقد قرأنا كُتبه ومؤلفاته فما وجدنا فيها شيئًا مما أثاره ذاك الذي أَلّفَ كتاب «**حوار مع المالكي**» إلَّا العلم النافع والهَدي الناجع، وفضيلة الشيخ محمد علوي المالكي الحسني عالمٌ متخَصصٌ في الحديث النبوي، وقد حَصل على أعلىٰ الشهادات العلمية من أقدم وأعرق الجامعات الإسلامية، وهي: جامعة الأزهر، وله مؤلفاته في السُّنة، وفي التشريع، وفي حياة الرسول ﷺ، وله أبناؤه وتلاميذه في كُلّ مكان، وقد قرأنا له كُتبه، واستمعنا إلى أحاديثه وشاهدنا سلوكه

وصلواته، ومجالسه العلمية، فوجدناه رَجُلًا (أُمّةً) يَقُود أبناءه إلى العلم والعمل، وَيُصنِّف كتبه بِتَوثيقٍ علمي وأمانة.

إنه من أعظم العلماء الذين تَفخرُ بهم المملكة العربية السعودية، بل يَفتخر به كُلّ إنسانٍ مُسلمٍ، وكُلّ عَالمٍ مُسلم.

إننا نُناشد صاحب كتاب «**حوار مع المالكي**» وأمثاله أن يَتُوبوا إلى الله تعالى، فقد باءوا بذنب كبير في رَميهم وتجريحهم لهذا الإمام الكبير والمُحدِّث العظيم، واتهامهم وَبُهتانهم، لأنَّ الإسلام نَهىٰ عن تكفير المسلم لأخيه، لأنَّ الإيمان مَحله القلب، والكفر أيضًا كذلك في القلب، ولا يَطّلعُ على ما في القلوب إلَّا عَلّامُ الغيوب، ولقد نَعىٰ الرسول صلى الله عليه وسلم على أسامة بن زيد قَتْلهُ لرجلٍ ألقىٰ إليه السَّلام، وأمر الإسلام بالتبين قال الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [النساء: ٩٤].

ولم يَقبل الرسول عليه الصلاة والسلام اعتذار أسامة، وقال له: «**هَلَّا شَققت عن قلبه**».

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**أيما امرئٍ قال لأخيه: يا كافر! فقد بَاءَ بأحدهما**».

وفي رواية: «**من دَعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدو الله، وليس كذلك إلَّا حَارَ عليه**» أي رجع. رواه مسلم.

ويقول أيضًا: «**ثلاثةٌ من أصل الإيمان، الكَفُ عمن قال: لا إله إلَّا الله، لا نُكفره بذنبٍ، ولا نُخرجه من الإسلام بجهل**» رواه أبو داود، وسعيد بن منصور، وله شواهد.

هذا هو حُكم الإسلام بنص القرآن والسُّنة، فكيف سَاغ لمؤلف كتاب الحوار وأمثاله أن يقعوا في هذا البهتان والعدوان، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

وكيف حَدث منهم هذا التكفير مع عَالم طَبّقت شُهرته الآفاق، وسارت كُتبه الموثقة، وَمُصنفاته المُحققة في العالم الإِسلامي سير الضَّوء في الآفاق؟!.

سبحانك هذا إفكٌ عظيم! إننا نُناشِدُ هؤلاء الذين وقعوا في هذا الخطأ الفاحش والجريمة الكُبرىٰ، أن يَثُوبوا إلى رُشدهم، وأن يتوبوا إلى الله تعالى، وأن يُردِّدوا شهادة التوحيد، والتوبة النَّصوح مما اقترفوه.

فقد اشتمل كتاب ابن مَنيع على اعتداءٍ وَبُهتانٍ علىٰ شَخص فضيلة السيد محمد علوي المالكي الحسني، واعتداءٍ على عِلمه، وعلى نَسبهِ الشريف، ووقع هذا المؤلف في سِبَابِ المُسلم، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «**سِبَابُ المُسلم فُسوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفر**».

«كتاب الحوار عَونٌ للصهيونية وأعداء الإِسلام»

وفي رأينا ـ نحن علماء الأزهر ـ أنَّ كتاب حوار مع المالكي، وأمثاله يَجب أن يُصادر ولا يَقرأه مُسلم، لأنه يُفرِّقُ كَلمة المسلمين، فآراء الشيخ المالكي التي حاول صاحب هذا الكتاب تَسفِيهها؛ آراءٌ علميةٌ ومُحترمةٌ، ولها في القرآن والسُّنة أَصلٌ، وقال بها أئمةٌ، وعلماءُ لهم وزنهم.

ومثل هذا الكتاب، أكبر عاملٍ من عوامل تفريق المسلمين، ومساعدة للصهيونية والشيوعية العالمية وأعداء الإِسلام.

إنَّ كتاب «**حوار مع المالكي**» أكبر مِعْولِ هَدم لضرب وحدة علماء المسلمين، وتمزيق كلمتهم، وفي هذا خَطرٌ على الدعوة الإِسلامية، وعلى التضامن الإِسلامي ووحدة الكلمة، فكم في كُتبِ الفقه والمذاهب، وفي التفسير وشروح السُّنة آراء متعددة، ولكلِّ مذهبٍ منهجه ودليله، ومع هذا فلم يُسفِّه أَحدٌ أحدًا ولم يَحكم أحدٌ على أحدٍ بالكفر، لأنه لا يَطّلع على القلوب إِلّا عَلّام الغُيوب.

إنَّ هذا الكتاب، وإنَّ موقف مُؤلِّفِه ومن لَفَّ لَفَّهُ من العالم الداعية الشيخ محمد علوي المالكي الحسني، إنما هو عَونٌ لتحقيق المخططات الصهيونية

العالمية، والشيوعية والإلحاد، وسائر أعداء الإسلام الذين يَسعون بكلِّ حيلة وبكل وسيلة لتفرقة المسلمين، وتمزيق شملِهم.

وإذا كان التَفرُّقُ من علماء الإسلام أنفسهم، ومن تكفير بعضهم لبعض، فهذا مُنتهىٰ ما يَصبُو إليه أعداء الإسلام، ويسعون إليه بِكُلِّ حيلة.

وإنَّ هدف الاستعمار قديمًا (فَرِّق تَسُد)، وإنَّ هدف الاستعمار الثقافي والغزو الفكري حديثًا، هو ضَربُ الثقافة الإسلامية في شخص العلماء والدعاة، ومثل هذا الكتاب ضَربةٌ في الصميم لطعن وحدة المسلمين وعلمائهم.

كتاب «حوار مع المالكي» وأمثاله طعنة للإسلام في مَقْتل

إنَّ مؤلّف هذا الكتاب ومن يقول بقوله، قام بمهمة تمزيق الكلمة، وعَمَّق الخلاف بين المسلمين.

فإذا كانت الصهيونية العالمية، والشيوعية الملحدة، والاستعمار يبذل هؤلاء جهودًا لتفريق كلمة المسلمين، وبعض المسلمين يجاهدونهم، فماذا يصنع المسلمون حين يَرون بعض العلماء يُجهِّل بعضًا، ويُكفِّر بعضًا؟

إنَّ مخطط العلمانية الحديثة بالتعاون مع الشيوعية، أن يفصلوا الدِّين عن الحياة، بحجة أنَّ الإسلام ما عادَ ينفع المسلمين، وإنَّ الطريق إلى هذا ـ كما يَرىٰ كبار الشيوعيين ـ الطريق إلى فَصل الدِّين عن الدولة؛ هو التشكيك في الإسلام نفسه، ولا يتأتّىٰ التشكيك في الإسلام إلّا عن طريق التشكيك في علماء الإسلام، وكبار دُعاتِه الذين يقتنعُ الناس بهم ويلتفون حولهم، فإذا فَقد الناس الثقة بهؤلاء العلماء؛ فقدوا الثقة بما يقولون، وحينئذ يكونون قد نَجحوا فيما أرادوا.

كتاب الحوار وأمثاله يُمثِّل هذا الدور في زَعزعة الثقة بالعلماء ودعاة الإسلام المجاهدين في سبيل الله.

هل تُساعد يا ابن منيع أعداء الإسلام في طعن علماء الإسلام؟ أَولىٰ بِك وبأمثالك أن يُجاهدوا أعداء الإسلام الذين حاربوا العقيدة،

وأن تُجاهد الملاحدة، والصهيونية، والماسونية، والبهائية، والقاديانية، والشيوعية وغيرها، إنَّ وحدة المسلمين وَاجبٌ مُقدّسٌ، وإن من حَاول ضربها؛ وَجب على المسلمين أن يُوقفُوه، لأنه يريد تفريق الأمة وتمزيق وحدتها.

وقد اشتمل كتاب الحوار، على سَبٍّ وقَذف، لو طُبّق حُكم الشريعة الإسلامية في صاحبه، لوجب أن يُجلد ثمانين جلدة، وألَّا تُقبل له شهادة.

وإننا نُهيبُ بعلماء الإسلام في شتىٰ أنحاء المعمورة وبعلماء المملكة بصفة خاصة، أن يُوقِفُوا مثل هذا التَّفسُّخ والتمزُّق، فقد عهدنا المملكة العربية السعودية بلد التضامن الإسلامي، ومهد العلم ومهبط الوحي، ومُلتقىٰ الفكر الإسلامي الذي يُوحّدُ ولا يُفَرّق.

وكلنا نحن ـ علماء الإسلام ـ نُعلق كبير الآمال على جلالة الملك المُفدىٰ وحكومته الرشيدة، أن يضربوا على أيدي العابثين بوحدة الأمة الإسلامية، والمُفرّقينَ لكلمة العلماء.

ونناشدهم أن يجمعوا بين العالم الكبير المُحدّث الداعية فضيلة السيد محمد علوي المالكي الحسني وبين علماء المسلمين، وطلابه ومحبيه في الحرم المكي، حتى يزيد النفع به وبعلمه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

توقيعات عن علماء مجلس قسم الحديث بجامعة الأزهر بالقاهرة
وبعض كبار علماء الأزهر

د. أحمد عمر هاشم
رئيس مجلس قسم الحديث سابقًا
وعميد كلية أصول الدين بالزقازيق

فضيلة الشيخ محمد السنراوي
المفتش الأول بالأزهر
والمستشار الديني لمحافظة الفيوم

د. عبد الغني الراجحي
أستاذ الدراسات العليا بجامعة الأزهر

تقريظ

مُفتي السودان سماحة الشيخ العلّامة
الشيخ سيد أحمد العوض

رئيس مجلس الإِفتاء الشرعي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين مُولي النعم، وَمنْشئ الخلق من العَدم، والصلاة والسلام على أكرم خلق الله على الله، سيدنا محمد بن عبد الله ـ أرسله ربه رحمة للعالمين ـ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد: فقد هُيِّئت لي الفُرصة ـ والحمدُ لله رب العالمين ـ للاطلاع على الكتاب الذي ألّفه العالم المحقق والشريف السيد محمد بن علوي المالكي المكي الحسني ـ خادم العلم بالحرمين الشريفين ـ والذي سَمّاهُ: «**مفاهيم يجب أن تصحح**»، تَعلقت هذه المفاهيم بأمور ثلاثة ضمنها مؤلفه في أبواب ثلاثة:

اشتمل «الباب الأول» منها على المباحث المتعلقة بالعقيدة، حيث بَيّن بالأدلة والبراهين في هذا الباب فَساد مقاييس التكفير والتضليل اليوم.

وفي «الباب الثاني» بَيَّن كذلك المباحث النبوية المشتملة على خصائص النبي صلى الله عليه وسلم وحقيقة النبوة وحقيقة البشرية، ومفهوم التبرك بالنبي صلى الله عليه وسلم وبآثاره، وجاء فيه بالأدلة والبراهين القاطعة الواردة عن الصحابة ومن بعدهم من علماء الأمة الأجلّاء.

وتعرض في «الباب الثالث» لمباحث تَكلّم فيها على الحياة البرزخية، ومشروعية الزيارة النبوية، وما يتعلق بها من الآثار والمشاهد والمناسبات الدينية، وغير ذلك مما له تَعلّقٌ بهذا المقام، فَحقّق وَدقّق، وأصلحَ الأفهام.

إنَّ الذين يَتعرّضُون اليوم لنصح المسلمين بالأمر والنهي، اختلطت عليهم مقاييس التكفير والتضليل، فسارعوا إلى تكفير المسلمين ووصفهم بالشرك المُبين، اعتمادًا على أنَّ من قَارف أمرًا من هذه الأمور المذكورة في الأبواب الثلاثة على خلاف فَهمهم المبني على مذهبهم: فقد خَرج عن الدِّين، إنَّ الأستاذ الكبير، والعالم النحرير السيد العلوي خادم العلم والدِّين بالحرمين الشريفين، قد صحّح في كتابه: «**مفاهيم يجب أن تصحح**».

قد صحّح هذه المفاهيم، وأجلىٰ عنها الغموض، وفسرها تفسيرًا واضحًا مبنيًا على النصوص الواردة في الكتاب والسُّنة، وشرح علماء المِلّة لها بالتفصيل والتدليل.

فَعلى الذين يتعرضون لنصح المسلمين وتبصيرهم بأمور الدِّين، أن يَطّلِعُوا على هذا الكتاب النفيس، ليكونوا على عِلم تام بهذه الحقائق، ولا يُسارعوا بوصف الكفر والضلال على أهل المِلّة السمحة والمَحجَّةِ البيضاء ـ جزاه الله خير الجزاء ـ فقد أحسن ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

وصَلّىٰ الله وسلم على سيدنا محمد النبي الأعظم، وعلى آله وصحبه ذوي الفضل والكرم

حرره في ١٥ ربيع ثاني سنة ١٤٠٧هـ
الموافق ١٧ ديسمبر سنة ١٩٨٦م

سيد أحمد العوض مدني
قاضي المحكمة العليا
جمهورية السودان
ورئيس مجلس الإفتاء الشرعي

تقريظ
شيخ الحديث ورئيس الجامعة الأشرفية
وأمير جمعية علماء الإسلام في باكستان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وصلّىٰ الله تعالىٰ على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد: فقد اطلعت على الكتاب القيم اللطيف **«مفاهيم يجب أن تصحح»** لفضيلة العلّامة الأستاذ الشيخ السيد محمد علوي المالكي الحسني، وفي الحقيقة إنَّ هذا الكتاب يحتوي على مَواضع مُبتكرة، ومضَامين عالية، يحتاجُ إليها العلماء والطلاب، وفيه من حُسنِ ذَوقِ المؤلف وَعُلوّ فكرته؛ ما تُحلّ به المُغلقات في موضوعات كثيرة في أُصول الدِّين. ولا شك أنَّ هذا الكتاب كشفَ الحِجاب عن نكاتٍ مَستورةٍ وبعيدةٍ عن أنظار العلماء، فجزاه الله أحسن الجزاء، وأسبغ عليه من نِعمه ظاهرةً وباطنة.

ونسأل الله تعالى أن يُمتّع المسلمين، وخاصة أهل العلم به وبعلومه دائمًا في مشارق الأرض ومغاربها، وما ذلك على الله بعزيز آمين، يا رب العالمين.

شيخ الحديث بالجامعة الأشرفية بلاهور
محمد مالك الكاندهلوي غفر الله له

تصديق
رئيس الجامعة
محمد عبيد الله المفتي

تصديق
نائب رئيس الجامعة
عبد الرحمن

تصديق
حامد مياه بن محمد مياه
أمير جمعية علماء إسلام باكستان
وخليفة شيخ الإسلام
حسين أحمد المدني

تقريظ

مدير التعليم بجامعة العلوم الإِسلامية ـ كراتشي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فقد قَرأتُ ما كتبه فضيلة الشيخ الفاضل السيد محمد علوي المالكي الحسني حفظه الله تعالى، وما كتبه العلماء الأفاضل من تقاريظ.

وإنني أُوافق على ما كتبه فضيلة الشيخ العلّامة المفتي الشيخ حسنين محمد مخلوف حفظه الله تعالىٰ، وأرىٰ أنَّ الوقت قد حان لتجتمع كلمة علماء الحق، وأن يكونوا صفًا واحدًا كالبنيان المرصوص إزاء العدو المشترك الذي يَهدف بحوله وقوته القضاء على هذا الدِّين الحنيف وأهله، والإِساءة بالمقدسات الإِسلامية، وليسامح بعضهم بعضًا في الأمور التي فيها مجال لاجتهاد المجتهدين حتى لا تضيع قوتهم فيما بينهم، بل يجب أن تُصرف هذه القوة لنشر الدِّين الحنيف والدفاع عنه.

وقد شاهدت فضيلة الشيخ الفاضل السيد محمد علوي المالكي الحسني أيام دراسته عندما زار كراتشي ومكث فيها شهورًا، شاهدته وهو يحرص على حضور مجالس أهل الحق والتوحيد من العلماء الكبار، أمثال فضيلة الشيخ العلّامة المُحدِّث الجليل الشيخ محمد يوسف البنوري، وفضيلة العلّامة المفتي الجليل الشيخ محمد شفيع رحمهما الله تعالى. وأسأل الله سبحانه له التوفيق والسداد.

الدكتور عبد الرزاق إسكندر
مدير التعليم والأمين العام بجامعة العلوم الإسلامية ـ كراتشي

تصديق
نائب رئيس الجامعة
محمد بن يوسف البنوري

تقريظ رئيس مجلس علماء باكستان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين.

أما بعد: فأقول أنا السيد محمد عبد القادر آزاد رئيس مجلس علماء باكستان: بأنني أصالةً عن نفسي، ونيابةً عن مجلس علماء باكستان وأعضائه المنتشرين بفضل الله في كل مدينة من مدن باكستان وخارجها، والذي يَضُم نحو عشرين ألف عالم: لقد اطّلعنا على كتاب **«مفاهيم يجب أن تصحح»** الذي صَنّفهُ فضيلة الشيخ العلّامة السيد الشريف محمد بن السيد علوي المالكي الحسني المكي، فوجدناه يحتوي على ما عليه أهل السُّنّة والجماعة سلفًا وخَلفًا، وقد أجاد فيه، وأفاد بالأدلة القرآنية والحديثية، ونرجو من الله سبحانه وتعالى أن يَجمع كلمة المسلمين على الحق المبين، ونحن معه في جهاده في الدعوة إلى الله، ونصرة أهل الحق أهل السُّنة والجماعة.

صلّىٰ الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين
وبارك وسلم تسليمًا

سيد محمد عبد القادر آزاد رئيس مجلس علماء باكستان
وخطيب المسجد الملكي بلاهور ١/٥/١٤٠٨هـ

تصاديق:

نفيس الحسيني خليفة الإمام الشيخ عبد القادر رائبوري.
محمد عبد الغني ـ الجامعة المدنية ـ لاهور باكستان.
علي أصغر خطيب منطقة بنجاب لاهور باكستان.
محمد عبد الواحد خطيب الجامع الإسلامي بمنطقة سيالكوت باكستان.

تقريظ

الأستاذ الدكتور حسن الفاتح قريب الله

مدير الجامعة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن اهتدىٰ بهديه، واتبع نهجه، وتأسّىٰ به إلى يوم الدِّين.

أما بعد: فَلِبيتِ السيد محمد علوي المالكي شهرة كبيرة، ومكانة عالية، تَصدّرها أهلُوه بالعلم والخلق والالتزام الجاد بالدعوة إلى الله على منهج القرآن الكريم والسُّنة المطهَّرة، يَزِينهم نسبٌ عالٍ يجمعهم بالمصطفى صلى الله عليه وسلم، ويميزهم حُبٌّ عَميق للبلاد المقدَّسة واحترام وإكبار للمسؤولين عنها، وعلى رأسهم خادم الحرمين الشريفين.

لقد تَسنّم أهل البيت ذُرَى المجد، ووهبوا حياتهم للدِّين يذودون عن حِياضه، وللمملكة يذبون عنها أذىٰ المُعتدين ـ وما أهونهم ـ وجهالة الأصدقاء من مُتَلفّعي ثوب العلم والدِّين، وما أحمقهم، وما هذا البحث الذي أشرف بالكتابة عنه الآن، إلَّا دليلٌ على صِدق ما أقول، فقد انبرىٰ لتأليفه عَلَمٌ بارزٌ من هيئة كبار علماء الإسلام، صَحّح فيه مفاهيم كاد يَطمِسُها الجُهلاء، وأبان فيه حقائق كاد يُضفي عليها الغَير ضبابًا كثيفًا، على أنه بالإضافة إلى هذا وذاك رَبط المملكة علميًا بركب العلماء وأبعدها ـ موفقًا ـ عن العُزلة التي كان يَسعىٰ البعض ـ مدحورًا ـ لفرضها عليها.

لقد أبان الكاتب في مُؤلفه فساد مقاييس التكفير والتضليل التي يَنفثُها

أدعياء العلم ليباهوا بتقليل المسلمين لا بكثرتهم، وليبذروا الفتنة بين صفوفهم متشبثين تارة بمسائل شَكلية، وأُخرىٰ بمواضع اختلف حولها العلماء، مما جعل صوتهم بين الأصوات نشازًا، وفكرهم بين الأفكار غريبًا.

لقد ظُلِم التصوف من بعض أولئك الأدعياء، فألصقوا به وبأهله تُهمًا هم منها بُرَآءُ، وشانئوهم بها أحق وأولىٰ، فكان ولا بُدّ إذن من أن يَدخل حلبة الصراع عالم يَعرف كيف يُجادل، وخَبيرٌ يُدرك كيف يقاتل، إذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكون في المسائل الخلافية، على أنه إن كان للقلة سَببٌ للتعصب؛ فللكثرة الغالبة من المسلمين سَببٌ أقوىٰ لتأصيل المفاهيم الصحيحة القائمة على الفهم الواعي لكتاب الله وسُنّة رسوله عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ التحية.

إننا نَعرفُ التصوف ـ كما يقول المؤلف ـ مَدارس علمية ومعارف فكرية، وهي كلها بمناهجها وبرامجها وَطُرقها، تُمثل الأفق الأعلىٰ للفكرة الإسلامية، والوجه الأكمل لآدابنا وَمثالياتنا، تُمثل الكمال في الإيمان، والكمال في كُلّ شأنٍ من شُؤون الحياة، تُمثِّلُ الخلاصة الزكية لكُلِّ دعوة ربانية، إنه الصّدقُ والأمانة، والوفاء والإيثار، والنجدة والكرم، ونصرة الضعيف وإغاثة الملهوف، والتعاون على البر والتقوىٰ، والتواصي بالحق والصبر، والتسابق إلى فعل الخير، إنه الخُلقُ القويم الصحيح، وهو الشخصية الإسلامية في أبهىٰ حُلّةٍ وأكمل صِفة، وأعلى وأطهر نَموذج.

أما أهل التصوف كما يقول الإمام الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال»: هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وإنَّ سيرتهم أَحسن السِّير، وطريقهم أصوب الطريق، وأخلاقهم أزكىٰ الأخلاق، بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمةُ الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئًا من سيرهم وأخلاقهم بما هو خَيرٌ منه؛ لم يجدوا إليه سبيلًا، فإنَّ جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم؛ مُقتبسةٌ من نور مشكاة النبوة، وليس وراء النبوة على وجه الأرض نورٌ يُستضَاء به.

ذلكُم هو التصوف الذي عَرفه السلف، وتلك هي سيرة الصوفية كما عرفها

الخلف، لقد كانت مظاهر التصوف، وما تزال هي حُبّ الرسول ﷺ والتعظيم له، وزيارته والتبرك بآثاره وآثار من تَأَسّوا به، أما حقيقته فهي: أن يَعبد الفرد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه؛ فليعلم أنَّ الله يراه.

على ضوء ذلك المفهوم القائم على الكتاب والسُّنة؛ صاغ المُؤلف كتابه، فكان للعلماء حُجّةً، وللمتعلمين نورًا وضياء، لقد امتاز الكتاب بالمنهج العلمي السليم والأسلوب السهل الممتنع، والمعلومات الثَّرَّة، والبراهين الساطعة، والحُجَج الدَّامغة، زاد الله كاتبه توفيقًا، وقارئه هدايةً، وشَانئهُ رِجسًا إلى رجسه.

وآخر ما نقول هو: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

الأستاذ الدكتور
حسن الفاتح قريب الله
مدير جامعة أم درمان الإسلامية
جمهورية السودان

تقريظ

العلّامة الأديب الكبير الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار

من كبار أدباء المملكة

والحائز على جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين. **أما بعد:**

فقد أهدىٰ إليَّ صديق عزيز كتاب **«مفاهيم يجب أن تصحح»**، وهو آخر ما صدر لفضيلة العلّامة الجليل السيد محمد بن علوي بن عباس المالكي الحسني، وطلب مني هذا الصديق أن أُبديَ رأيي في الكتاب، وها أنا ذا أُجيبه فأقول:

كان في التقريظات التي كتبها علماء ذوو مناصب دينية رفيعة، وعلم غَزير نَافع وجهاد في سبيل الحق، كالأستاذ عبد الله كَنُّون الحسني رئيس رابطة علماء المغرب، والشيخ محمد الخزرجي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الإمارات العربية، والشيخ محمد الشاذلي النَّيفر عميد كلية الشريعة بتونس، والشيخ محمد سالم عَدُّود رئيس المحكمة العليا بجمهورية موريتانيا الإسلامية، وفي المقدمة التي كتبها الشيخ حسنين محمد مخلوف مُفتي الديار المصرية السابق، وعضو جماعة كبار العلماء بالأزهر الشريف غِنىً أيُّ غِنىً، إلّا أنَّ الصديق رجا أن يسمع رأيي ـ وقد سَمِعهُ بعد قراءتي للكتاب ـ وأن يقرأه مكتوبًا، وأن آذن له في أن يُقدِّمهُ للمؤلف يَتصرّفُ فيه كما يريد، وقد فعلت، وإني لسعيد أن يكون لرأيي هذا القدر من الاهتمام الذي تَعودته كتاباتي من القراء، فأنا لا أكتب إلّا الحق الذي أدينُ به.

قَرأتُ كتاب «**مفاهيم يجب أن تصحح**» فإذا مُؤلّفه العلّامة البحّاثةُ لا يكتب ما كتب ابتغاء الجدل مع من يُخالفونه في بعض آرائه أشدَّ المُخالفة التي تصل إلى حدّ التكفير، وإنما كَتب مؤلفه ابتغاء تقرير الحقّ مُتخذًا أسلوب الحِكمة والعفاف، غير مُتورِطٍ في سِبَابٍ، أو قَذائف يَقذفُها على مُخالفيه، فما بكتابه كَلمةٌ نابيةٌ ولا تَجريح، وإنما به عَرضٌ لما لديه من عِلمٍ، أكثر مما لديه من رأيٍ خاص به.

إنَّ المؤلف الفاضل النزيه لم يقصد أن يفرض رأيه على القارئ، ولهذا ابتعد في بحثه العلمي الإسلامي عن حقل آرائه الخاصة مع سَدادها وبِحَرِيَّةِ الصواب فيها، لأنَّ الرأي قابلٌ لأَنْ يكون خطأً قبولَه لأن يكون صوابًا.

وليضمن المؤلف لكتابه النّزاهة جَنّبهُ الرأي وَبناهُ على الحقّ الذي يَصدُر من الكتاب والسُّنة شريعة وعقيدة، وسلوكًا واجتماعًا وآدابًا وعلومًا.

وهذا الحقُّ في الإسلام ليس مُغلقًا ولا حكرًا ولا حِجْرًا مَحجورًا على أحد، بل من حقِّ أهل العلم بحثه، واستنباط أحكامه منه، وطبيعي أن تختلف وجهات النظر في فهم بعض النصوص، كبعض الآيات وبعض الأحاديث.

ونجد بين الأئمة الأعلام اختلافًا مثل اختلاف فروض الوضوء اختلافًا شديدًا فعند السادة الحنابلة ـ مثلًا ـ من نواقض الوضوء، أكل لحم الجزور، وعند غيرهم ليس بناقض بَتّةً، فالمسلمون ـ إلّا الحنابلة ـ يكونون مُتوضّئين ويأكلون لحم الجزور، ثم يقومون إلى الصلاة يُؤَدُّونها، والصلاة عِمادُ الدِّين، وهي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين.

فوضوء هؤلاء المسلمين مَنقوضٌ، وصلاتهم ليست بصحيحة، إذا أخذنا بمذهب الحنابلة الذي أباهُ الأئمة الثلاثة: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي رحمهم الله، ورحم أحمد بن حنبل.

وهذا الخلاف الشديد لم يَخرج إلى أن يُكَفِّر الأئمة بعضهم بعضًا، وهناك ضُروبٌ كَثيرة من مثل هذا الخلاف الذي يجب ألّا يحملنا على تَبادل القذائف والتهم والتكفير.

ولقد أحسن العلّامة الجليل السيد محمد علوي المالكي الحسني في كتابه القيم النفيس «**مفاهيم يجب أن تصحح**» ومن خير مزايا المؤلف القدير؛ اتخاذه أسلوب الحكمة، فَنزّه كتابه من السِبَاب مُتوخيًا أن يدعو إلى الحق والخير والجمال والفضيلة، بأسلوبه الرائع الجميل الذي يَنمّ عن خُلُق بيت النبوة، وآل البيت الكرام الأبرار.

وموجز رأيي وقولي في الكتاب: أنه تِبيانٌ للحق، يُوضح منهج المؤلف في الفكر الديني، ومعدن فكره الديني نفسه، وإنه لمعدن نفيس، ولقد أحسن فيما صَحّح من مفاهيم استقبله أكابر أهل العلم والفضل بحفاوة ورضًا يتجليان في «التقريظات» التي شهدت للكتاب ومؤلفه، شهادةً نُشاطر أصحابها فيما شهدوا، ونشاركهم في الحفاوة التي يستحقانها.

ونشكر للعلامة الجليل الداعية الإِسلامي الكبير السيد محمد علوي المالكي الحسني جهوده المباركة في خدمة الإِسلام ورسوله سيد الأنام محمد عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام. كما نشكر له جهاده الصادق في الدعوة إلى الله، ذلك الجهاد الذي كان ثمراته تثبيت الإِسلام في شرق آسيا وجنوبها وإعلاء كلمة الله في أقطار كثيرة من أقطار العروبة والإِسلام، فجزاه الله كل خير، ونفع بخلقه العظيم وعلمه الغزير وفضله المدرار.

مكة المكرمة

أحمد عبد الغفور عطار

تقريظ العلّامة الشيخ يوسف بن أحمد الصديقي

القاضي الوكيل لمحكمة الاستئناف العليا الشرعية بدولة البحرين

وعضو الرابطة الإسلامية بمكة المكرمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وقائد الغُرّ المُحجلين سيدنا محمد حبيبنا وشفيعنا وطبيب قلوبنا، صلاةً وسلامًا دائمين ما تعاقب الليل والنهار، وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار.

أما بعد: فقد اطلعْتُ على كتاب عظيم بعنوان: **«مفاهيم يجب أن تصحح»** لمؤلف كريم سليل العترة الطاهرة النبوية، ألَا وهو العلّامة الفاضل السيد محمد علوي المالكي، فوجدته كتابًا حاويًا لمعانٍ جليلة، وأهدافٍ سامية، وأدلةٍ واضحة، لا سيما فيما أشار إليه من جواز التبرك بالآثار الشريفة، والتوسل بالذات المحمدية، وشَدّ الرحل لمسجده العظيم، والمُثول أمام القبر الشريف الكريم، وقد عَضَدهُ بالأدلة من الكتاب والسُّنة، ومن أقوال العلماء البارزين في هذا المضمار سلفًا وخلفًا.

فَجزىٰ الله مؤلفه خير الجزاء، وأجزل له المثوبة دُنيا وأُخرىٰ، ورزقنا الله وإياه محبة نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم والاقتداء على أثره القويم، وأماتنا على سُنّته، وحشرنا تحت لوائه يوم الدِّين.

هذا؛ وصَلّىٰ الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدِّين.

كتبه

يوسف بن أحمد الصديقي في ١٣ شعبان ١٤٠٥هـ
القاضي الوكيل لمحكمة الاستئناف العليا الشرعية
بدولة البحرين
وعضو المجلس التأسيسي للرابطة الإسلامية

مختصر تقاريظ علماء اليمن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فقد اطلع علماء اليمن على كتاب «**مفاهيم يجب أن تصحح**» لمؤلفه العلّامة الحجة فضيلة السيد محمد علوي المالكي، فأقروه وقرروه وقرظوه، ووجدوه أحسن مُؤَلَّفٍ وأجوده في مواضعه، قَرَّبَ مؤلفه فيه عقيدة السلف والخلف، وبيّنَ فيه ما اشتبه على الناس من غوامض، وما شرد عن أذهانهم من شوارد، فهو عِقدٌ فَريدٌ على جِيد كُتب أهل السُنة قديمها وحديثها، نثيرها ونظيمها، فريدًا في بابه وافيًا ببغية طلابه، موافقًا لعقائد أهل السُّنة التي يجب اعتقادها فجزاه الله عن الإِسلام والمسلمين خير الجزاء.

١ ـ مفتي الجمهورية اليمنية السيد أحمد بن محمد زبارة.

٢ ـ مفتي لواء تعز السيد إبراهيم بن عمر بن عقيل.

٣ ـ الشيخ أسد بن حمزة بن عبد القادر صدر علماء زبيد.

٤ ـ الشيخ أحمد داود من علماء اليمن.

٥ ـ السيد عبد الهادي عجيل رئيس الإنقاذ الإِسلامي اليمني.

٦ ـ رئيس المركز الإِسلامي بتعز محمد حزام المقرمي.

٧ ـ الشيخ أحمد على الوصابي عامل وصايا قضاء زبيد.

٨ ـ مفتي زبيد السيد محمد بن سليمان.

٩ ـ الشيخ عبد الكريم بن عبد الله.

١٠ ـ الشيخ حسين بن عبد الله الوصابي.

١١ ـ الشيخ السيد محمد علي البطّاح.

١٢ ـ مفتي لواء الحديدة محمد علي مكرم.

١٣ ـ مدير المعاهد العلمية بصنعاء الشيخ محمد بن علي المنصور.

تقريظ

العلّامة المُحدِّث المحقق الفقيه الشيخ محمد الشاذلي النيفر

عميد كلية الشريعة بتونس سابقًا

وعضو رابطة العالم الإِسلامي بمكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

يَجتازُ العالم الإسلامي في عصرنا الحاضر أزمة الحملات العديدة التي يَقُوم بها المُناوئون للإسلام، وأشدُّها ما يحوكُه الصهاينة من وسائل تَنْخِر في جسم المسلمين كما يَنخِرُ السوس الخشب، فهي غير ظَاهرةٍ للعيان مثله، علاوة على نِكايتهم في فلسطين تلك النّكاية التي تَنخر إلى العظم.

وفي جانب آخر الصليبية وحملاتها القاسية في محاربة الإِسلام في بقاعِ الأرض، عاملةً ليلًا ونهارًا لحسرة الإِسلام في أضيق مكان أو القضاء عليه، ويُعاون كُلًّا من الصهاينة والصليبيين حركاتٌ أُخرىٰ، فالحملات العديدة عَنِيفةٌ يُقاسي منها المسلمون ما يقاسون حتى أنها لبَّست على البعض أفكارهم فجاروهم في أفكارهم، كمن يتناول السمّ ويظنه الدواء الشافي، فهؤلاء الذين يَنْعِقُون باسم الإصلاح والتَّقدُّمية، لم يكفهم أنهم مَسمُومون حتى أرغموا المسلمين على تلك السموم، إذ ساعدتهم الظروف المُعْوجة على الحُكم، ورفعوا عَقِيرتهم بالدعوة لما يُسمُّونه بالإصلاح والتَّقدُّمية، كي يغروا العالم الإِسلامي، إنها حَربٌ شَعواء تقُضُّ المضاجع وتدر المدامع، ونحن في أكثريتنا سَاهُون مشتغلون ببعضنا بعضًا، كما هو الواقع في الحروب الساخنة بين المسلمين، أو الحروب الباردة العامة المنتشرة بين الدول والنابعة من بعض

المغرورين المسمومين من تلك الحملات، يدعونا الواقع المؤلم أن نلتفت إلى مقاومة تلك الحملات الشعواء حتى نَدرأ عن أنفسنا خطرها المحدق عِوضَ أن نُحارب أنفسنا مثل هذه الحملة على الأشعرية التي لا مُبرر لها، لأننا إذا نظرنا إلى الأشاعرة؛ صحَّ عندنا أنهم على السُّنة التي تركنا عليها النبي صلى الله عليه وسلم، التي ليلها كنهارها، ورحم الله تعالى الإمام ابن عساكر حين تَصدَّىٰ لإيضاح الأشعرية في وجهها الحقيقي في كتابه الشهير «تَبيين كَذب المُفتري فيما نُسب للإمام أبي الحسن الأشعري» فإنه وَضّح أنها الوسط وخير الأمور الوسط بين التعطيل والتشبيه، وقد أَلهم الله الأشعري إلى نُصرة السُّنة بحجج العقول، فانتظم شمل أهلها، فأثبت لله سبحانه وتعالى ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات، ونَفىٰ عنه ما لا يليق بجلاله، فالأشعرية كما قيل:

الأشــعــريــة قــوم قــد وفــقــوا لــلــصــواب

لــم يــخــرجــوا في اعــتــقــادهــم عــن سُــنّــةٍ وكــتــاب

ويكفي مذهبه صِحّةً؛ أنَّ النُبغاء من العلماء يكادون كلهم أن يكونوا أشعرية حتى قبل ظهوره، لأنهم على طريقة السُّنة، ثم بعد ظهوره تقلدوا مذهبه، وإن لم يكونوا كلهم فأكثريتهم.

وهذا ما أبداهُ ابن عساكر في «تبيين كذب المُفتري» في (باب ذكر جماعة من أعيان مشاهير أصحابه) إذ كان فضل المُقتدي يدل على فضل المُقتدىٰ به، ويكفيه أن من مُقلّديه القاضي أبا بكر بن الطيب بن الباقلاني البصري صاحب التصانيف المشتهرة في الرد على المخالفين، حتى إنَّ أبا الحسن التميمي الحنبلي كان يقول لأصحابه: تمسكوا بهذا الرجل، فليس للسُّنة عنه غنًى أبدًا.

وكذلك من رجاله الفُحول الحاكم النيسابوري صاحب «المستدرك على الصحيحين»، وابن فُورك، وأبو إسحاق الاسفراييني، والحافظ الأصفهاني، وأبو محمد القاضي عبد الوهاب البغدادي الفقيه المالكي، وكُتبه أشهر من نَارٍ على عَلم، وقد اعتنىٰ بأحدها الإمام المازري وهو كتاب «التلقين»، والمُحدِّث الشهير الحافظ أبو ذر الهروي المالكي، والحافظ أبو بكر البيهقي، والحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي، والإمام

أبو المعالي الجويني، وأبو الحسن الطبري، والكِيّا الهراسي، والإمام الشهير حُجّة الإسلام أبو حامد الغزالي.

ومنهم من أهل المغرب الإمامان الشهيران أبو الحسن القابسي، والإمام المازري.

وَتَتبعُ هؤلاء إنما هو استيعاب علماء المسلمين، فإذا كان هؤلاء على ضلال؛ فقد اجتمعت الأمة على ضلال، وفي ذلك تكذيب لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه سيدنا أنس رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إنَّ أمتي لن تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم اختلافًا، فعليكم بالسواد الأعظم**» رواه ابن ماجه أحد أصحاب الكتب الستة.

وَمثلهُ الحملة على المولد النبوي الشريف، مع أننا إذا حَقّقنا النظر نَراهُ ليس من البدع، بل هو أمرٌ مقصودٌ منه تعظيم يوم مولد النبي صلى الله عليه وسلم، اقتداءً به في تعظيم نجاة موسى عليه السلام في يوم عاشوراء.

ولتحاشي زيادة عيدٍ في أعياد المسلمين؛ لم يُسَمّ المسلمون ميلاده ﷺ بِعيد الميلاد، بل سَمَّوه يوم المولد، ولله درهم في ذلك.

وقد أزال الشبه الإمام الجليل السيوطي في كتابه: «**حُسن المَقصِد في عمل المولد**».

فهذه مفاهيم يجب تصحيحها، وكذلك غيرها وهو ما اعتنىٰ به فضيلة العلّامة الدكتور محمد علوي المالكي الحسني في كتابه الحافل «**مفاهيم يجب أن تصحح**».

وقد حَقّق الكثير من هذه المفاهيم التي أثيرت حولها حملات، وأبان فيها الوجه الصحيح، فهو حَرِيٌّ أن تتوقف عنده الأنظار لتحرير المواقف كالقضيتين المشار إليهما.

ونأمل أنَّ هذه الحملات تنتهي بعد اتضاح ما يجب أن يُصحّح، وأن تتجه الأقلام للطعنات الموجهة إلى الإسلام حتى نُنقِذَ الكثير من الذين أضلتهم تلك

الأقوال المُزخرفة، وبذلك نكون من الذين دافعوا بأقلامهم وأفكارهم عن حَوزة الدِّين.

نسأله سبحانه وتعالى أن يجعلنا جميعًا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

محمد الشاذلي النيفر
عميد كلية الشريعة بتونس سابقًا
وعضو مجلس الأمة التونسي
وعضو رابطة العالم الإِسلامي بمكة المكرمة

تقريظ

العلّامة الفقيه الشيخ محمد فال البناني

الأمين العام للرابطة الإسلامية الموريتانية

وعضو رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين القائل في كتابه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ الآية.

والقائل: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ الآية.

والقائل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ الآية.

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين قائد الغر المحجلين من روي عنه: **«المؤمن أخو المؤمن لا يَظْلِمهُ، ولا يُسلِمهُ لمن يظلمه»**. **«مثل المؤمنين في تَوادّهم وتراحمهم، كمثل الجسد إذا اشتكىٰ منه عُضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحُمىٰ»**. **«المؤمنون كالبنيان المرصوص يَشدّ بعضه بعضًا»**. **«لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا»**، إلى غير ذلك مما يدعو إلى التآلُف والتّحابب والتآخي، وحسن الظن بالله وبعباد الله.

أما بعد: فقد طَالعتُ باهتمام بالغ كتاب **«مفاهيم يجب أن تصحح»** للعلّامة الأديب الحديثي واللغوي الأريب أبي الأعلام النجباء والسادة النقباء الشريف ابن الشرفاء السيد محمد علوي المالكي الحسني نسبًا المكيّ مولدًا ووطنًا، فوجدته حَزّ في المفصّل في كُلّ المسائل التي حرر، حيث إنه جَلب عليها من النصوص والأدلة، ما لم تبق معه شبهة في قلب من له مُسكةٌ من العلم والإنصاف،

ولا غَرابة إذ هو عَذِيقها المُرجّب، وجَذِيلها المحكّك، وابن عَذِيقها وجَذِيلها.

فعندئذٍ حَدا بي أسلوبه الشيّق، وترتيبه وبحثه للمواضع، وتحقيقه مَناطها إلى أن أدليت بدلوي في تقريظه مُساهمة في رَدِّ المناوئين له إلى صوابهم حيث إنني أرأب بهم عن تكفير مسلم بمسائل غير مجمعٍ عليها، وأجمعوا على أنَّ المُسلم إذا صدر منه قولٌ أو فِعلٌ يحتمل الرّدة مع تسعٍ وتسعين وجهًا وغيرها من وجه واحد، يرجع إلى ذلك القول مخافة إخراج مُسلمٍ من الإيمان.

وعندي والله أعلم؛ أنه لم يَبق للمُعاندين في هذه المسائل بعد النظر في كتاب «**مفاهيم يجب أن تصحح**» إلّا التسليم لكُلّ ما جاء فيه، إذ إنَّ ما جاء فيه كاد أن يكون مُجمعًا عليه قديمًا، وحديثًا، كما بَيّنه الأئمة الأعلام والحفاظ الموثوق بهم في الملة الإسلامية.

فجزاهم الله عن الإسلام خير جزاء، وجزىٰ المؤلف هو الآخر خيرًا وأبقاه ذُخرًا للمسلمين الذين لا يريدون إلّا ظهور الحق. وبارك فيه ورحم أسلافه الصالحين العالمين العاملين بعلمهم بما بثّوا في قلوب أبناء المسلمين من قُرآن وسُنّة وعلوم آلة لهما، تلك العلوم التي بثّوها في أهل داني الأرض وقاصيها، سارت بها الركبان لتبليغها بدورهم في جميع أنحاء المعمورة.

وإنني لأشهد أن من أدركته من عائلة المؤلّف وهو والده الشيخ السيد علوي عباس المالكي قد قام بدوره في ميدان الدعوة والإرشاد، وتبليغ العلوم الدينية، وكثيرًا ما حضرت وفي أعوام مُتتالية دروسه في المسجد الحرام كالقرآن وتفسيره، والحديث وفقهه، والتوحيد وعقائده، إلى غير ذلك مما أدّىٰ إلى تَكاثُر التلامذة والمستمعين في حلقاته رحمه الله رحمة واسعة. وأطال بقاء وَارثه في العلم وخليفته في التدريس الشاب الصالح المُوحد التّقي السيد محمد علوي المالكي الحسني، ابنه البار المنقذ من الضلالة والمحبّ لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

حرر بنواكشوط | **المتبرئ من الحول والقوة محمد فال البناني**
بتاريخ ٢٠ رجب ١٤٠٥هـ | **عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي**
الموافق ١١ أبريل ١٩٨٥م | **والأمين العام للرابطة الموريتانية للدفاع عن الإسلام**

تقريظ

العلّامة الفقيه الأصولي الشيخ محمد سالم عَدُّود

رئيس المحكمة العليا بموريتانيا سابقًا

وعضو المجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي

بمكة المكرمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صَحتْ مَفاهيمُ كانَ الناسُ قد هَامُوا ... فيها وَزَايَلها لَبْسٌ وإبْهامُ
بحثٌ دَقيقٌ عَميقٌ لا يَقُوم له ... خَبطٌ وخَلْطٌ وتَدليسٌ وإيهامُ
أبدىٰ به العَلويُّ المالكيُّ لنا ... ما لم تَنلهُ من الحُذَّاقِ أفهامُ
فَكانَ مِنه وإن ماروْا وإن جَحدوا ... حَشرٌ وشَرحٌ وتَوضيحٌ وَإفهامُ
وسَاعدتْه على المطلوب أربعةٌ ... نَصٌّ وقَيسٌ وتَفويضٌ وإلهامُ
فردَ سَبَّابَةً كانت تُشيرُ له ... شَتْمًا وليسَ لها في الكَفِّ إبهامُ
فبَان أنَّ الذي كَانت تُروِّجه ... وَتدَّعيه خُرافاتٌ وأوهامُ
لوِ استحقَّ سُجودًا غير بَارِئنا ... خرَّت لوجهِ ابن عباس بِنَا الهَامُ
بِذاك قَرَّظْتُ ذاكَ البَحثَ آمُل أن ... يكونَ منِّي لنصرِ الحَقِّ إسهامُ

محمد سالم بن محمد علي بن عبد الودود (عدود)
رئيس المحكمة العليا لجمهورية موريتانيا الإسلامية سابقًا
ووزير الثقافة والشؤون الإسلامية
وعضو المجلس الفقهي برابطة العالم الإسلامي
بمكة المكرمة

تقريظ الداعية الكبير

العلّامة الشيخ محمد عزيز الرحمن الحقاني الهزاروي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نَبي بعده، وعلى آله وأصحابه، ومن اتبع هَديه.

أما بعد: فقد طالعنا كتاب **«مفاهيم يجب أن تصحح»** لفضيلة العلّامة الجليل السيد محمد علوي المالكي الحسني المكي، فوجدناه ـ ما شاء الله ولا قوّة إلّا بالله ـ كتابًا قَيمًا جَمع فيه فوائد متنوعة بأسلوب نَفيس، مُلتزمًا بوقار العلماء ونهج الحكماء، فجزاه الله خيرًا كثيرًا.

ووجدنا أنَّ كُلَّ ما فيه هو في الجُملة ما عليه جمهور علماء أهل السُّنة والجماعة سلفًا وخلفًا، وهو الذي وَجدنا عليه مشايخنا من المُحدثين، والمفسرين، والفقهاء المحققين كمسند الهند الإمام الشاه ولي الله الدهلوي الفاروقي، وأنجاله الغُر الميامين، وتلامذتهم، ثم الأمير المجاهد الإمام العارف بالله الشيخ إمداد الله الفاروقي المهاجر المكي ورفقائه، والشمسين النيِّرين حُجة الإسلام الإمام محمد قاسم النانتوي، وقطب الإرشاد الإمام رشيد أحمد الكنكوهي، وحكيم الأمة الإمام الشاه أشرف علي التهانوي الفاروقي، وشيخ الإسلام الإمام السيد حسين أحمد المدني الحسيني؛ وقطب الأقطاب بركة العصر، شيخ الحديث الإمام محمد زكريا الكاندهلوي، ثم المهاجر المدني قدّس الله سِرّهم، وغيرهم من أعيان علماء أهل السُّنة والجماعة، بشبه القارة الهندية.

وجُلّ كتبهم ورسائلهم طَافحةٌ ببيان هذه المسائل، ولا سيما الرسالة القيمة «**المُهَنَّد على المُفَنَّد**» للإمام المحقق الجليل العلّامة الشيخ خليل أحمد المحدث السهارنفوري الأنصاري، وقد قَرّظها عامة العلماء الكبار في ذلك العصر، وغالبها في بيان هذه المسائل المذكورة في كتاب المفاهيم، وإن اختلفت العبارات وتنوعت أساليب الكتابات إلّا أن المقصود واحد، والمعنىٰ هو هو بعينه، وكما يقول الشاعر:

عباراتنا شَتىٰ وَحُسنكَ وَاحدٌ وَكلٌّ إلى ذاكَ الجَمال يُشِيرُ

نرجو من الباري الكريم أن يجمع المسلمين على هذا الحق المبين، وَيُوحد صفوفهم حيث إنهم ما احتاجوا إلى توحيد الكلمة مثل احتياجهم إليه اليوم، فقد تَكالب حولهم الأعداء من اليهود، والهندوك، والنصارى، والشيوعيين، والملحدين الشرقيين والغربيين، كما نشطت الطوائف الزائغة كالقاديانية، والبهائية والإسماعيلية الباطنية، والروافض، وأهل السنّة نائمون، والمستيقظون منهم جهودهم مُشتَّتة وقواهم مُنتشرة، وقلوبهم مُختلفة، أشغلتهم أمورٌ تَافِهَةٌ اختلفت فيها آراء العلماء منذ القِدَم عن أمورٍ جِسَامٍ وأخطار عظيمة، وَمُنكراتٍ ظاهرة فظيعة، تُحدِق بالأُمّةِ من كلّ جانب، فليتَ أولئك العلماء المُنتسبين إلى الطائفة الناجية «أهل السُّنة والجماعة» الذين يضللون المسلمين ويكفرونهم لأمور خِلافية؛ تنبهوا لذلك وعادوا إلى رشدهم، وبذلوا جهودهم لتوحيد شَمل المسلمين والعَودِ بهم إلى دينهم، وطاعة ربهم واتباع نبيهم صلى الله عليه وسلم.

وأنّىٰ يكون ذلك إلّا بالمحبة والحكمة، وَسعة الصدر والموعظة الحسنة، وغضّ النظر عن الأمور الخِلافية، وترك الفَظَاظةِ والغلو، فقد قال العزيز الحكيم الخبير لأفضل رسلهِ وخاتم أنبيائه وحبيبه وصفيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

وشكر الله سعي العلّامة السيد محمد علوي المالكي الحسني، وزاده توفيقًا وقبولًا، فقد التزم في كتابه هذا بالأدب الرفيع مع خصومه الذين طعنوا فيه

ظلمًا وزورًا بالكفر والضلال، ولم يذكر أحدًا منهم بسوء، بل إنه لم يذكر حتىٰ أسماءهم، وإنما أتىٰ بالحُجّة الشرعية الناصعة، والدليل الواضح من كتاب الله وَسُنّة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأقوال أئمة العلم والدِّين، وهذا هو الأصل، والذي يَنبغي بلا جِدَال، وكان هذا هو المأمول منه حفظه الله ووفّقه لكُل خير.

فقد رأينا دائمًا شيخنا الإمام القطب محمد زكريا الكاندهلوي المدني قدّس الله سره؛ يحبُّه حبًا شديدًا ويعتبره كأحد أبنائه، وهو أيضًا من أعظم المُحبين لشيخنا في حياته وبعد وفاته، كما أنه عَظيم المحبّة والتقدير لمشايخه ومشايخنا الذين استفاد من علومهم، وفاضت عليه بركاتهم، كإمام العصر المُحدِّث الجليل السيد محمد يوسف البنوري الحسيني، والإمام المُحدِّث الكبير السيد فخر الدين المراد أبادي شيخ الحديث بدار العلوم ديوبند، والإمام المُفتي محمد شفيع الدِّيوبندي المفتي الأعظم لباكستان، والإمام الدّاعية المُحدِّث الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي وأمثالهم قدّس سرهم.

«والأرواح جُنودٌ مُجنّدة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

نرجوه سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا الكتاب، وينفع به عباده، ويجعله ذريعة وسببًا للرشد والهداية.

وصلّىٰ الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين

محمد عزيز الرحمن الحقاني الهزاروي
خطيب وإمام مسجد الصديق الأكبر براولبندي ـ باكستان
خليفة الإمام المحدث العلاّمة محمد زكريا الكاندهلوي ثم المدني

تقريظ

فضيلة الشيخ أبي زيد إبراهيم سيد

مُوجّه اللغة العربية بجمهورية مصر العربية

كِتَابُك شَمس

كتابُكَ شَمسٌ أشرقتْ بالحقيقةِ ... وَنورٌ سَناهُ من ضِياء النُّبوَّةِ

طَلعتَ به صُبحًا تفجَّر في الوَرىٰ ... يَشِعُّ بأنوار الهُدىٰ والعَقيدةِ

وَضوّأت أفكارًا ونارتْ بهذْيه ... عُقولٌ تمادَتْ في عَميقِ الدُّجُنَّةِ

فكان مَنارًا للمفاهيم مُرشدًا ... يُصحِّحُ منها مَن نأىٰ عن شَريعةِ

به «السّيدُ» المعروفُ بالعلَم والنُّهىٰ ... تجلَّىٰ بعلمٍ من كِتابٍ وسُنةِ

وما رام إلّا الله جَلَّ جَلالُهُ ... وَجمْعَ صُفوفِ المسلمين بِوَحدةِ

وقال: تعالوا للإلٰه وشِرعةٍ ... وقال: كَفانا من عِداءٍ وَفُرقةِ

فَإنّا بَني الإسلام جِسمٌ إذا اشتكىٰ ... من الجسم عُضوٌ فالجميعُ بِحُمةِ

أجَل بارك الرحمن شيخًا مبجَّلا ... تَسامىٰ بفرعِ الدَّوحةِ العَلويَّةِ

ويارَبِّ للإسلام فانصر حُماتَهُ ... وأيِّد حُماةَ الحقِّ في كلِّ بُقعةِ

تقريظ

فضيلة الشيخ محمد عبد الواحد أحمد

وكيل وزارة الأوقاف بجمهورية مصر العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بصّرنا بالحق وهدانا إليه، وأرشدنا إلى الصَّواب وأعاننا عليه، ألَا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلقه، وأجل رسله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد: فقد وفّق الله تبارك وتعالى طائفة من علماء الأُمّة المُخلصين والهُداة الراشدين، فحافظوا على تراثهم الأصيل، ووَقَفوا أنفسهم على دَحضِ الشُّبهاتِ ورد المُتشابهات، وإحقاقِ القواعد التي قامت عليها جماعات أهل السُّنة، ذوو الهِمم العالية والأفهام الزاكية، بِرًّا بنبيهم، ووفاءً بحقه عليهم، واسترضاءً لربهم، فكانوا خير خَلفٍ للسادة الأماجد من حملة الأمانة التي حَمَّلهم إياها ربهم، وشرَّفهم بالانتساب إليها والدفاع عنها، فنهضوا بأشرف المهام بعزيمة واقتدار.

ومن هؤلاء الهُداةِ الراشدين والعلماء المجتهدين، العارف بالله الذَّائِدُ عن دين الله، والحِبُّ المُحِبُّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، الأمين على كلمة الله، فضيلة السيد الشيخ الشريف محمد علوي المالكي الحسني أحسن الله إليه، ومكَّنَ له في دينه، وقوَّىٰ على الحق يقينه وأعزه بالإسلام، وأعزّ به الإِسلام، وبمن معه من أهل الرشد والإخلاص، ممن وَكلَ الله إليهم شرف الدفاع عن دينه، وإبراز المكانة السَّنية التي أقام الله عليها رسوله الخاتم عليه أفضل

الصلوات وأزكىٰ التسليم.

لقد صَدع بالحق ونادىٰ بالصدق، وذكرنا بالخصائص التي امتنَّ الله بها على رسوله المعظم صلى الله عليه وسلم، وبالمنح التي تَفضّل بها عليه، وامتزج حُبُّ المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام بروحه، وحنايا قلبه، فأحيا سُنّةَ نبينا صلى الله عليه وسلم، وأقام مجالس الصلوات والسلام عليه في مجالسه، وعَطّر المحافل والمجامع بالثناء على أشرف مخلوق وأفضل رسول، وأحبِّ الخلق إلى الله سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه يوم مولده، ويوم مبعثه، ويوم يُؤذَن له بالشفاعة في ساحة القضاء أمام ربّ العالمين، أحكم الحاكمين عَز وجَل.

وصلّىٰ الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتبه

محمد عبد الواحد أحمد

من علماء الأزهر

ووكيل وزارة الأوقاف

تقريظ

فضيلة الشيخ إبراهيم الدسوقي مرعي

وزير الأوقاف السابق بمصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدِّين.

وبعد: فقد حَظِيتُ بهذا الكتاب النفيس «**مفاهيم يجب أن تصحح**» لمؤلفه السيد الفاضل الدكتور السيد محمد علوي بن عباس المالكي الحسني، ومن عنوان هذا الكتاب أدركتُ مَدىٰ ما يُكِنُّ مؤلفه من حُبٍّ وتقدير لنبي الإِنسانية والرحمة للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن غَيرةٍ على دينه وشفقة بإخوانه المسلمين، ولا عَجب؛ فهذا خُلُق المُسلم الصادق، فضلًا عن أنَّ مُؤَلِّفَهُ من آل بيت النبوة الذين طهَّرهم ربهم، وقال فيهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. لقد أرادهم الله ليكونوا الأُسوةَ والقُدوةَ والهُداةَ إلى الحق والشَجا في حَلقِ أعدائه، والقُوة المُخلصة لحماية هذا الدّين.

وإذا كُنت حياتي أعمل جنديًا في ميدان الدعوة الإِسلامية، فقد لَمستُ عن كَثبٍ حاجة المجتمع المسلم إلى هذا الكتاب وأمثاله، حِمايةً لهذه الأُمّة من حملات التشكيك التي مُنينا بها اليوم، وإيذانًا بأنّ لهذا الدِّين جُنودًا مُخلصينَ، يَذُودونَ عنه إلى قيام الساعة، ولا يضرُّهُم من خَالفهم حتى يُظهِر الله الحق، أو يأتي أمرُ الله.

والحمد لله فقد أوفىٰ هذا الكتاب على الغاية، وأدّىٰ كل ما نرجو،

فقد قَدّم الرأي الصائب الذي ارتضاه مُؤلِّفُهُ مؤيّدًا بالدليل، وآراء الأئمة في العصور المتعاقبة في أهم القضايا التي عصفت، أو كادت تَعصف بوحدة هذه الأمة وتمزق شَملها، وفي مُقَدِّمتها قضية العقيدة! فقد عَرض الكتاب لما أُثير حولها من شبهات، وقدّم من الأدلة ما يَدحضُها وَيُبطل آراء الغالين بما حاكوا من أباطيل حولها، أولئك الذين أقاموا من أنفسهم قُضاةً يحكمون على من يشاؤون بالكفر وعلى آخرين بالإيمان، متجاهلين قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**سِبَابُ المُسلم فُسوق، وَقِتَالُه كُفر**». وإنَّ شِيمةَ الإسلام التسامح والتيسير، وما أجملَ ما أجاب به عَليٌّ كرم الله وجهه حين سُئل عن المُخالفين له: أكفارٌ هم؟ قال: لا، إنهم من الكفر فرُّوا، فقيل: أمنافقون هم؟ قال: لا، إنَّ المنافقين لا يذكرون الله إلَّا قليلا، فقيل: أي شيء هم؟ فقال: هم قَومٌ أصابتهم الفتنة، فَعموا وصَموا.

وفي الحديث الصحيح قال صلى الله عليه وسلم: «**إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر! فقد بَاءَ بها أحدهما**». كما أنَّ القرآن يُعَلِّمنا أن نُطهر أنفسنا من مقالة السوء حتى مع المشركين، فيقول سبحانه: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية، ويقول لموسى وهارون حين بعثهما لفرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ الآية.

وفي «الباب الثاني» من الكتاب فَنَّد مزاعم أولئك الذين يَرمُون بالكفر زُورًا من يَعرفُون لرسول الله صلى الله عليه وسلم قدره، ويملأُ قلوبهم حُبّه فيعظمونه ويوقرونه، غير ذاكرين أنَّ الله عظمه ورفع ذِكرهُ وألزم أُمته الأدب معه بآياتٍ من القرآن الكريم تُتلىٰ ونَتعبّدُ بتلاوتها، فَفَضْله ومقامه وجَاههُ عند ربه باقٍ لا شكَّ فيه عند أهل الإيمان حيًا أو بعد أن لحق بربه، ثمّ يَتَحدّثُ عن التصوف وأنه الأُفق الأعلى للفكرة الإسلامية، والوجه المشرق لآداب ديننا وكمالياته، وأنه بَرئٌ من الخرافات والأباطيل والدّجل، وأنَّ أقطاب التصوف قد تَحدَّثوا عن الشريعة الإسلامية بما يُؤكد التزامهم الكامل بكل ما جاءت به في عبادتهم ومعاملتهم، وفي كلّ أمرهم.

وعن التوسل وأنه أحدُ طُرق الدعاء، وبابٌ من أبواب الرجاء إلى

الله عَز وجَل وأنه لا يُوجد مَانعٌ شرعيٌّ أو عقليٌّ يَمنعُ التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم في حياته، أو بعد مماته، فضلًا عن الأدلة التي سَاقها في هذا المقام، وإذا كان المُتفق عليه هو التوسل بالأعمال الصالحة، فإنه لا مَانع إذًا من التوسل بالصالحين من هذه الأمة، ومثل التوسل الاستعانة والاستغاثة وما شابه ذلك، فالمؤمن في كل ذلك لا يَرىٰ غير ربه.

وفي حديثه عن الشفاعة والاحتفال بالمولد النبوي والتبرك بآثاره صلى الله عليه وسلم وآثار الصالحين، فقد سَاق من الأدلة ما به يَثبتُ أنَّ ذلك سُنَّةٌ مَرفُوعة، وطريقة مشروعة، أَقرَّها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفعلها صَحابته من بعده.

وفي «الباب الثالث» من الكتاب يَتحدّث عن زيارة النبي صلى الله عليه وسلم وآراء العلماء فيها وزيارة القبر النبوي، ومشروعيتها، وزيارة الآثار والمشاهد، وأقوال الأئمة فيها.

هذا: وقد جاء هذا الكتاب ليروي ظمأ الذين يعشقون الحقيقة، ويبحثون عنها في وقت قد تَكالبت فيه قُوىٰ الشر لتنال من الإسلام وتعاليمه، وتوقد نار العداوة والبغضاء بين أبنائه، فكان بفضل الله صَيحةَ الحق تَدفعُ الباطل، فإذا هو زَاهِقٌ ونور الإيمان يُبدِّدُ ظلام الشّكِ، ويهدي إلى الصراط المستقيم.

جزىٰ الله مُؤَلِّفهُ عن الإسلام والمسلمين خيرًا، ونفعنا بما قَدّم ورزقنا الإخلاص في عقيدتنا، والتوفيق للتأسي بنبينا وحُبّه وحُبِّ الصالحين ومن اهتدىٰ بهديه، واتبع ما جاء به صلى الله عليه وسلم.

كما نسأله أن يُبارك جهود المخلصين من العلماء العاملين، وَيُمدّهم بمدده، وَيُؤيّدهم بروحٍ منه، لتبقىٰ كلمة الله هي العُليا، وحتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدِّين لله.

والله الموفق

٢١ ربيع الأول سنة ١٤٠٦هـ
الموافق ٤ من ديسمبر سنة ١٩٨٥م
إبراهيم الدسوقي مرعي
وزير الأوقاف السابق بمصر

تقريظ

فضيلة العلّامة الشيخ حسين محمود مُعوّض

من كبار علماء الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّىٰ الله الرحمن الرحيم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله ربّ العالمين، نَحمدُك ربنا بجميع محامدك ما عَلِمنا منها وما لم نعلم، وَنشكُرك شُكر من غَمرته بفضلك وحَبوتَهُ بعطفك، لا يُحصىٰ الثناء عليك ربنا أنت كما أثنيت على نفسك، عزّ جَارك وجلّ ثناؤك، وَنُصلي وَنُسلم على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، صلاةً تَنحلُّ بها العُقَد، وَتنفرجُ بها الكُرب، ويستسقىٰ الغمام بوجهه الكريم.

وبعد: فقد تَصفَّحتُ كتاب العالم الجليل الحَسيب النَّسيب محمد علوي المالكي الحسني الذي سَمّاهُ: «**مفاهيم يجب أن تصحح**» فَوجدته حافلًا بالعلم الغزير والفهم السليم، وجزاك الله عن الإسلام والمسلمين خيرًا بما قَدّمت لنا في هذا الكتاب المليئ بالأنوار تنبعثُ من بين سطوره، وزادك الله علمًا وفهمًا، وليس بعالم من لم يُضِف إلى العلم جديدًا يُبصّرُ به الناس فيما غَاب عن وعيهم ولم تدركه عُقولهم.

والذي ينظر إلى هذا الكتاب وما تناوله؛ فإنما يَجد الحديث الطَّريف بالأدلة الناصعة التي لا تدع مجالًا للشك في كُلِّ ما تَضمّنه الكتاب، مُبرزةً حقائق واضحة لا يَشكّ فيها إلَّا ضَالٌ، ولا يتنكب عن طريقها إلَّا زائغ عن الصراط المستقيم، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنَّ هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولن يُشادّ الدّين أحدٌ إلَّا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا**

واستعينوا بالغُدوة والرَّوحة، وشيءٍ من الدُّلجة». وهذا يُعطي أنَّ التَّنطع في الدِّين مَهلكةٌ لكلِّ متنطع.

وسبحان الله، فإنَّ الطبائع تختلف والفِطَر تتباين، ولكن إذا وَضح الأمر واستبان فلا مَفرّ للعاقل إلَّا أن يَرجع إلى الصواب، ويُلزم نفسه به.

وقد ضُرب المثل بمن برَّز بالعلم في العصر الذهبي للإسلام والمسلمين، فقيل في شأنِ عليٍّ رضي الله عنه وكرّم وجهه: قضية ولا أبا حسن لها، كما نال أيضًا شهادة أهل عصره بقولهم فيه: «العلم مدينة وعليٌّ بابها» ولم يقتصر الأمر على عصر النبوة، بل إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم زكّىٰ من جاء بعد عصره، فورد في شأن الشافعي رضي الله عنه: **«عالم قريش يملأ طِباقَ الأرض علمًا»**.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتىٰ المقبرة فقال: **«السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنَّا إن شَاءَ الله بكم عن قريب لاحقون، وددت لو أنَّا قد رأينا إخواننا، قالوا: أوَلسنا إخوانك يا رسول الله!؟ قال: أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد، قالوا: كيف تعرف من لم يأت بعدُ من أمتك يا رسول الله؟ قال: أرأيت لو أن رجلًا له خيل غُرٌّ مُحجّلةٌ بين ظَهرَي خيل دُهم بُهم، ألا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: فإنهم يأتون غُرًّا مُحجّلينَ من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض، ألا ليذادَنَّ رجال عن حوضي كما يُذاد البعير الضَّالُّ، أناديهم: ألَا هَلُمَّ، فيقال: إنهم بَدَّلُوا بعدك، فأقول: سُحقًا سُحقًا»** رواه مسلم.

وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم تفاوت الناس في حديثه الصحيح: **«الناس مَعادنُ كمعادن الذَّهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإِسلام إذا فَقُهُوا، والأرواح جنودٌ مُجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»**.

وإذا كان كتابك أخي العزيز قد تناولت فيه ما يأتي:

(١) الحُكمَ على بعض المسلمين بالكفر لأنه حَلف مثلًا بالنبي صلى الله عليه وسلم مع العِلم بأنَّ الفقهاء أباحوا الحلف بالكعبة والقرآن والنبي ﷺ،

لأنّ الله عَظّم هذه الأشياء، ولا مانع أن نُعظّم بالحَلفِ ما عَظّم الله سبحانه، ولا يتعارض هذا مع الحديث: «**من كان حالفًا؛ فليحلف بالله أو ليذر**» إذ أنت تُعظّم ما عَظّم الله.

(٢) المجاز العقلي في القرآن. (٣) الواسطة بين الخالق والمخلوقين.

(٤) الشفاعة. (٥) مفهوم الاستعانة.

(٦) حديث المؤلف المُستفيض عن التبرك بآثار الصالحين، إلى غير ذلك من مباحث الكتاب.

وحتى لا أُطيل؛ فإني أعرضُ للبحث الأول وأعجب لمن له صِلةٌ بالعلم أن يُكفر مسلمًا والقرآن والسُّنة يتلاقيان، فالله عَز وجَل يقول: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

ويعني ذلك: أنَّ كل ما دون الكفر يغفره الله، ولا يكفر مسلم إذا ارتكب كبيرة أبدًا كيف والله عَز وجَل يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الآية.

تقريظ المجلس العلمي بمدينة مراكش

الحمد لله الذي زيّن العلماء وخصّهم بالخشية، وتفضّل عليهم بالمعية، وصلاةً وسلامًا على خير البرية، وعلى آله وأصحابه والذُّرية.

وبعد: فإن العلم بحرٌ زاخرٌ لا ساحل له، ومُنتهاهُ إلى الله سبحانه، وإنّ العلم النافع هو ما يَصحَبهُ عمل، ولا يكون معه التَّباهي، ولا قَصدُ التطاول على الغير، ولا صَرفُ وُجُوهِ الناس إلى صاحبه.

وإنَّ الاشتغال بالعلم تدريسًا وتأليفًا؛ عبادةٌ وكفى به شرفًا؛ لأنه حِرفةُ الأنبياء، فالعلماء وَرثةُ الأنبياء كما جاء، فمرحىً بمن لقَّنه ودرَّسه، أو ألَّف فيه، أو شرح للناس ما هم مُحتاجون له. وإنَّ من الهُداة الأعلام الذين دَرّسوا وألَّفوا واجتهدوا في إيصال هذا الخير للأمة: الشريف السيد محمد علوي المالكي الحسني الذي ألَّف كتاب «**مفاهيم يجب أن تصحح**»، فقد جاء هذا الكتاب خدمةً للإسلام، ومشحذةً للأفهام، وإزالةً للإبهام، فهو من خير ما كُتب في هذا العصر في هذا الموضوع.

ولما عُرض هذا الكتاب على أنظار العلماء العارفين، تَلقَّوهُ بالقبول والثناء على مُؤلّفه الذي أدّى عنهم واجبًا في عُنقهم تُجاه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والأمة، بل ربما عَقَمت أقلام كثيرين على ميلاد هذا الكتاب، ولهذا فإنَّ أعضاء المجلس العلمي بمراكش، وبإشراف الرئيس، وبعد الاطلاع على هذا المُؤَلّفِ وقراءةِ بعض فصوله والتأمل فيها؛ يُوافِقُ مؤلفه الموافقة التامة عليه، شاكرين له مجهوده الكبير، ومباركين صنيعه الجميل.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عبد السلام جبران
رئيس المجلس العلمي الإقليمي بمراكش
وأعضاء المجلس

تقاريظ نعتذر عن نشرها

هذا؛ وقد تفضّل جُملة من كبار علماء المسلمين بالكتابة عن هذه المفاهيم وتأييدها، وتقريظ كتابنا والثناء عليه، فجزاهم الله خير الجزاء، ولكن لِطولها نَعتذر عن نشرها بنصها، ونكتفي بذكر بعض أصحابها وخُلاصة رأيهم الكريم، ألا وهي الموافقة التامة والتأييد الكامل وهم:

(١) سماحة الإمام العلّامة الأصولي اللغوي الشيخ سيدي الفاروقي الرَّحَّالي، شيخ العلماء، ورئيس مجلس العلماء بالمغرب ـ مراكش.

(٢) سماحة العلّامة المحقق الأصولي سيدي محمد العربي بن البهلول الرَّحَّالي

(٣) فضيلة الشيخ العلّامة الفقيه مُحدِّث المغرب، بل مُحدِّث الدنيا الشيخ السيد عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري.

(٤) فضيلة العلّامة المُحدّث الأصولي السيد عبد العزيز بن محمد بن الصديق الغماري.

(٥) فضيلة الأستاذ الدّاعي إلى الله، السيد محمد بن علي الحبشي رئيس المركز الإسلامي بأندونيسيا.

(٦) سماحة الإمام العلّامة العارف بالله والدّاعي إليه، الحبيب عبد القادر السقاف، إمام حضرموت، وشيخ العلماء بها.

مَنهج الكتاب

هذا، وقد جعلنا هذا الكتاب على ثلاثة أبواب كالآتي:

الباب الأول:

مباحث في العقيدة، وفيها بيان فساد مقاييس التكفير والتضليل اليوم.

الباب الثاني:

مباحث نبوية، وفيها خصائص النبي ﷺ وحقيقة النبوة، وحقيقة البشرية، ومفهوم التبرك بالنبي ﷺ وآثاره.

الباب الثالث:

مباحث مختلفة، وفيها بيان الحياة البرزخية، ومشروعية الزيارة النبوية، وما يتعلق بها من الآثار والمشاهد والمناسبات الدينية.

الباب الأول

مباحث
في العقيدة

وفيها: بيان فساد
مقاييس التكفير
والتضليل اليوم

التحذير من المجازفة بالتكفير

يُخطِئُ كثير من الناس ـ أصلحهم الله ـ في فهم حقيقة الأسباب التي تخرج صاحبها عن دائرة الإسلام وتوجب عليه الحكم بالكفر، فتراهم يسارعون إلى الحُكم على المسلم بالكفر لمجرد المخالفة، حتى لم يبق من المسلمين على وجه الأرض إلَّا القليل، ونحن نتلمس لهؤلاء العذر تحسينًا للظن، **ونقول**: لعلَّ نيتهم حسنة، من دافع واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنْ فاتهم أنَّ واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا بد في أدائه من الحكمة والموعظة الحسنة، وإذا اقتضى الأمر المجادلة؛ يجب أن تكون بالتي هي أحسن؛ كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وذلك أدعىٰ إلى القبول وأقرب للحصول على المأمول، ومخالفته خَطأٌ وحَماقة.

فإذا دعوت مسلمًا يصلِّي، ويؤدِّي فرائض الله، ويجتنب محارمه وينشر دعوته، ويشيد مساجده، ويقيم معاهده، إلى أمرٍ تراه حقًّا ويراه هو على خلافك، والرأي فيه بين العلماء مختلف قديمًا إقرارًا وإنكارًا فلم يطاوعك في رأيك فرميته بالكفر لمجرد مخالفته لرأيك؛ فقد قارفت عظيمة نكراء، وأتيت أمرًا إدًّا نهاك عنه الله، ودعاك إلى الأخذ فيه بالحكمة والحُسنى.

قال العلامة الإمام السيِّد أحمد مشهور الحداد: وقد انعقد الإجماع على منع تكفير أحد من أهل القِبلة؛ إلَّا بما فيه نفي الصانع القادر جَلّ وعَلا، أو شِركٌ جَليٌّ لا يحتمل التأويل، أو إنكار النبوة، أو إنكار ما عُلِمَ من الدِّين بالضرورة، أو إنكار مُتواترٍ أو مُجمَعٍ عليه ضرورةً من الدِّين.

والمعلوم من الدين ضرورةً؛ كالتوحيد، والنبوات، وختم الرسالة بمحمد ﷺ، والبعث في اليوم الآخر، والحساب والجزاء، والجنة والنار يَكْفُر جَاحِده، ولا يُعْذَرُ أحد من المسلمين بالجهل به؛ إلَّا من كان حديث عهد بالإسلام، فإنه يُعذَرُ إلى أن يتعلَّمه، ثم لا يُعذر بعده.

والمتواتر: الخبر الذي يرويه جَمعٌ يُؤمَن تَوَاطُؤهم على الكذب عن جَمعٍ مثلهم، إمّا من الإسناد؛ كحديث: **«من كذب عليَّ متعمدًا، فليتبوأ مقعدَه من النار»**، وإما من حيث الطبقة؛ كتواتر القرآن، فإنه تواتَرَ على البسيطة شرقًا وغربًا، درسًا وتلاوة وحفظًا، وتلقاه الكافة عن الكافة، طبقةً عن طبقة؛ فلا يحتاج إلى إسناد.

وقد يكون تَوَاتُرَ عَمَلٍ وتَوَارُثٍ؛ كتواتر العمل على شيء من عصر النبوة إلى الآن، أو تواتر علم؛ كتواتر المعجزات، فإنَّ مفرداتها وإن كان بعضها آحادًا، لكن القدر المشترك منها متواتر قطعًا في علم كل إنسان مسلم.

وإنَّ الحُكمَ على المسلم بالكفر في غير هذه المواطن التي بَيَّنَّاها، أمرٌ خطير، وفي الحديث: **«إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما»**[١].

ولا يصح صدوره إلَّا ممن عَرف بنور الشريعة مَداخل الكفر ومخارجه، والحدود الفاصلة بين الكفر والإيمان في حكم الشريعة الغراء.

فلا يجوز لأي إنسان الركض في هذا الميدان، والتكفير بالأوهام والمظانّ، دون تثبت ويقين وعلم راسخٍ متين، وإلَّا اختلط سيلها بالأبطح، ولم يبق مسلم على وجه الأرض إلَّا القليل.

كما لا يجوز التكفير بارتكاب المعاصي مع الإيمان والإقرار بالشهادتين، وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قال ﷺ:

«ثلاث من أصل الإيمان: الكَفُّ عمن قال: لا إله إلَّا الله؛ لا نُكفِّره بذنب ولا نُخرِجُه عن الإسلام بالعمل، والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يُقَاتل آخر أمتي الدجال، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل، والإيمان بالأقدار»[٢].

وكان إمام الحرمين يقول: «لو قيل لنا: فصِّلوا ما يقتضي التكفير من

(١) رواه «البخاري» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه «أبو داود».

العبارات مما لا يقتضي، لقلنا: هذا طمع في غير مطمع؛ فإنَّ هذا بعيد المدرك، وَعْرُ المسلك، يُسْتَمَدُّ من أصول التوحيد، ومن لم يُحِط علمًا بنهايات الحقائق؛ لم يتحصل من دلائل التكفير على وثائق».

لذلك نُحذِّر كل التحذير من المجازفة بالتكفير في غير المواطن السابق بيانها لأنه جِدُّ خطير، والله الهادي إلى سواء السبيل وإليه المصير.

موقف الشيخ محمد بن عبد الوهاب

وقد وقف الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ في هذا الميدان موقفًا عظيمًا، قد يستنكره كثير ممن يَدّعي أنه مَنسوبٌ إليه ومَحسوبٌ عليه، ثم يكيل الحكم بالتكفير جزافًا لكل من خالف طريقته ونبذ فكرته، وها هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب ينكر كُلّ ما ينسب إليه من هذه التفاهات والسفاهات والافتراءات، فيقول ضمن عقيدته في رسالته[1] الموجَّهة لأهل القصيم:

«ثم لا يخفى عليكم، أنه بلغني أنَّ رسالة سليمان بن سحيم قد وصلت إليكم، وأنه قَبِلها وصَدّقها بعض المنتمين للعلم في جهتكم، والله يعلم أن الرجل افترى عليَّ أمورًا لم أقلها، ولم يأت أكثرها على بالي.

فمنها: قوله: إني مُبطِلٌ كتب المذاهب الأربعة، وإني أقول: إنَّ الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء، وإني أدعي الاجتهاد، وإني خارج عن التقليد، وإني أقول: إنَّ اختلاف العلماء نقمة، وإني أكفر من توسل بالصالحين، وإني أكفر البوصيري لقوله: يا أكرم الخلق، وإني أقول: لو أقدر على هدم قبة رسول الله ﷺ لهدمتها، ولو أقدر على الكعبة لأخذت ميزابها وجعلت لها ميزابًا من خشب، وإني أُحَرّم زيارة قبر النبي ﷺ، وإني أنكر زيارة قبر الوالدين وغيرهما، وإني أُكفّر من حلف بغير الله، وإني أُكفّر ابن الفارض وابن عربي، وإني أحرق «دلائل الخيرات» و«روض الرياحين»،

---

(1) انظر «الرسالة الأولى» من الرسائل الشخصية ضمن مجموعة مؤلّفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب المنشورة باهتمام جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (القسم الخامس).

وأسميه روض الشياطين.

جوابي عن هذه المسائل: أن أقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ وقبله مَنْ بَهَتَ محمدًا ﷺ أنه يَسُبّ عيسى ابن مريم، ويسب الصالحين؛ فتشابهت قلوبهم بافتراء الكذب، وقول الزور، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٥]، بهتوه ﷺ بأنه يقول: إنَّ الملائكة وعيسى وعُزَيْرًا في النار، فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١]».

رسالة مُهِمّةٌ أخرى للشيخ في الموضوع

هذه الرسالة أرسلها الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى السويدي، عالم من أهل العراق، وكان قد أرسل له كتابًا وسأله عما يقول الناس فيه، فأجابه بهذه الرسالة[١]؛ قال فيها:

«إنَّ إشاعة البهتان مما يستحي العاقل أن يحكيه فضلًا عن أن يفتريه. مما قلتم: أنني أكفر جميع الناس إلَّا من اتَّبعني، ويا عجبًا! كيف يدخل هذا في عقل عاقل، وهل يقول هذا مسلم؟

وما قلتم: لو أنني أقدر على هدم قبة النبي ﷺ لهدمتها، وفي «دلائل الخيرات» لحرَّمْته، وأنهىٰ عن الصلاة على النبي ﷺ بأي نظم كان، فهذا من البهتان، والمسلم لا يظنّ في قلبه أجلّ من كتاب الله.

وفي صحيفة ٦٤ من نفس الكتاب قال رحمه الله: «وما قلتم: إنني أُكفِّر من توسَّل بالصالحين، وأُكفِّر البوصيري لقوله: يا أكرم الخلق، وأنكر زيارة قبر النبي ﷺ، وأنكر زيارة قبور الوالدين وغيرهم، وأُكفِّر من حلف بغير الله.

جوابي على ذلك: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾».

سِبَابُ المُسلم فُسوق، وَقِتالهُ كُفر

اعلم: أنَّ كراهة المسلمين ومقاطعتهم ومدابرتهم محرّمة، وكان سِبَابُ

---

(١) انظر «القسم الخامس»، الرسائل الشخصية ص٣٧ من مجموعة مؤلفات الشيخ.

المسلم فسوقًا، وقتاله كفرًا إذا اسْتحلَّ.

وكفىٰ رَادِعًا في هذا الباب حديث خالد بن الوليد رضي الله عنه في سَرِيَّتِه إلى بني جذيمة يدعوهم إلى الإِسلام، فلما انتهى إليهم تلقوه، فقال لهم: أسلموا، فقالوا: نحن قوم مسلمون، قال: فألقوا سلاحكم وانزلوا، قالوا: لا والله ما بعد وضع السلاح إلَّا القتل، ما نحن بآمنين لك ولا لمن معك، قال خالد: فلا أمان لكم إلَّا أن تنزلوا، فنزلت فرقة منهم وتفرقت بقية القوم.

وفي رواية: انتهى خالد إلى القوم فتلقَّوْه، فقال لهم: ما أنتم؟ ـ أي أمسلمون أم كفار؟ ـ قالوا: مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمَّدٍ ﷺ، وبنينا المساجد في ساحاتنا وأَذَّنا فيها، وفي لفظٍ: لم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فقالوا: صبأنا صبأنا، قال: فما بال السلاح عليكم؟ قالوا: إنَّ بيننا وبين قوم من العرب عداوة، فخفنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح، قال: فضعوا السلاح، فوضعوا، فقال: استأسروا، فأمر بعضهم فكتف بعضًا وفرقهم في أصحابه، فلما كان السَّحَر، نادىٰ منادي خالد: من كان معه أسير فليقتله، فقتل بنو سُلَيم من كان معهم، وامتنع المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم، وأرسلوا أسراهم، فلما بلغ النبي ﷺ ما فعل خالد، قال: «**اللهم إني أبرأُ إليك مما صنع خالد**» ـ قال ذلك مرتين ـ.

وقد يقال: إنَّ خالدًا فهم أنهم قالوا ذلك على سبيل الأنفة وعدم الانقياد إلى الإسلام، وإنما أنكر عليه ﷺ العجلة وعدم التَّثبُّت في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم: صبأنا، فخالدٌ معذور، كيف وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**نعم عبد الله وَأخو العشيرة خالد بن الوليد وَسيف من سيوف الله سَلَّه الله على الكفار والمنافقين**».

وكذلك قصة أسامة بن زيد ـ حِبِّ رسول الله ﷺ وابن حِبِّهِ ـ فيما رواه عنه «البخاري» عن أبي ظبيان قال: سمعت أسامة بن زيد يقول: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرَقَة، فصبحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلًا منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلَّا الله، فَكفَّ الأنصاري عنه، فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ، فقال: «**يا أسامة! أقتلته بعد ما قال: لا إله**

إلَّا الله؟»، قلت: كان مُتَعوِّذًا، فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمتُ قبل ذلك اليوم.

وفي رواية أخرى: أنَّ رسول الله ﷺ قال له: «**ألا شققت عن قلبه، فتعلم أصادق أم كاذب؟**»، قال أسامة: لا أقاتل أحدًا يشهد أن لا إله إلَّا الله.

وقد سئل عليٌّ رضي الله عنه عن المخالفين له من الفِرَق: أكفارٌ هم؟ قال: لا، إنهم من الكفر فروا، فقيل: أمنافقون هم؟ فقال: لا، إنَّ المنافقين لا يذكرون الله إلَّا قليلًا، وهؤلاء يذكرون الله كثيرًا، فقيل: أي شيء هم؟ قال: قوم أصابتهم الفتنة، فعَمُوا وصمُّوا.

مَقامُ الخَالق ومَقامُ المَخلُوق

إنَّ الفرق بين مقام الخالق والمخلوق، هو الحَدُّ الفاصل بين الكفر والإيمان، ونعتقد أنَّ من خلط بين المقامين؛ فقد كفر والعياذ بالله.

ولكل مَقامٍ حقوقه الخاصة، ولكن هناك أمورًا تَرِد في هذا الباب؛ وخصوصًا فيما يتعلق بالنبي ﷺ وخصائصه التي تميزه عن غيره من البشر وترفعه عليهم، هذه الأمور قد تشتبه على بعض الناس لقصر عقولهم وضعف تفكيرهم، وضيق نظرهم وسوء فهمهم، فيبادرون إلى الحكم بالكفر على أصحابها وإخراجهم عن دائرة الإسلام، ظنًّا منهم أنَّ في ذلك تخليطًا بين مقام الخالق والمخلوق، ورفعًا لمقام النبي ﷺ إلى مقام الألوهية، وإننا نَبرأُ إلى الله سبحانه وتعالى من ذلك.

وإننا ـ بفضل الله تعالى ـ نعرف ما يجب لله تعالى، وما يجب لرسوله ﷺ، ونعرف ما هو مَحضُ حَقٍّ لله تعالى، وما هو مَحضُ حَقٍّ لرسوله ﷺ، من غير غُلُوٍّ ولا إطراء يصل إلى حد وصفه بخصائص الربوبية والألوهية، من المنع والعطاء والنفع والضر الاستقلالي ـ دون الله تعالى ـ والسلطة الكاملة والهيمنة الشاملة والخلق والملك والتدبير والتفرد بالكمال والجلال والتقديس والتفرد بالعبادة بمختلف أنواعها وأحوالها ومراتبها.

أما الغلو الذي يعني التغالي في محبته وطاعته والتعلق به، فهذا محبوب

ومطلوب كما جاء في الحديث: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم**».

والمعنى: أنَّ إطراءه والتغالي فيه والثناء عليه بما سوى ذلك؛ هو محمود، ولو كان معناه غير ذلك، لكان المراد هو النهي عن إطرائه ومدحه أصلًا، **ومعلوم**: أنَّ هذا لا يقوله أجهل جاهل في المسلمين، فإنَّ الله تعالى عظّم النبي ﷺ في القرآن بأعلى أنواع التعظيم، فيجب علينا أن نُعظِّمَ من عظمه الله تعالى وأمر بتعظيمه... **نعم**؛ يجب علينا أن لا نصفه بشيء من صفات الربوبية، ورحم الله القائل حيث قال:

دَعْ مَا ٱدَّعَتْهُ ٱلنَّصَارَى فِي نَبِيِّهِم وَٱحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ وَٱحْتَكِمِ

فليس في تعظيمه ﷺ بغير صفات الربوبية شيء من الكفر والإشراك، بل ذلك من أعظم الطاعات والقربات، وهكذا كل من عَظّمهُم الله تعالى كالأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وكالملائكة والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠].

ومن ذلك: الكعبة المعظمة، والحجر الأسود، ومقام إبراهيم عليه السلام، فإنها أحجار وأمرنا الله تعالى بتعظيمها بالطواف بالبيت، ومَسّ الركن اليماني، وتقبيل الحجر الأسود، وبالصلاة خلف المقام، وبالوقوف للدعاء عند المُستَجار، وباب الكعبة، والمُلْتَزَم، ونحن في ذلك كله لم نعبد إلّا الله تعالى، ولم نعتقد تأثيرًا لغيره ولا نفعًا ولا ضرًّا، فلا يثبت شيء من ذلك لأحد سوى الله تعالى.

مَقامُ المَخلُوق

أما هو ﷺ فإننا نعتقد أنه ﷺ بشر يجوز عليه ما يجوز على غيره من البشر من حصول الأعراض والأمراض التي لا توجب النقص والتنفير كما قال صاحب العقيدة:

وَجَائِزٌ فِي حَقِّهِمْ مِنْ عَرَضِ بِغَيْرِ نَقْصٍ كَخَفِيفِ الْمَرَضِ

وأنه ﷺ عَبْدٌ لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؛ إلَّا ما شاء الله، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وأنه ﷺ قد أدَّىٰ الرسالة، وبلّغَ الأمانة، ونصح الأُمّة وكشف الغمة، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، فانتقل إلى جوار ربه راضيًا مرضيًّا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠].

وقـــال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤].

والعبودية هي أشرف صفاته ﷺ؛ ولذلك فإنه يفتخر بها ويقول: «**إنما أنا عبد**»، ووصفه الله بها في أعلى مقام حيث قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩].

والبشريّة هي عين إعجازه؛ فهو بَشرٌ من جنس البشر، لكنه مُتَميزٌ عنهم بما لا يلحقه به أحد منهم أو يساويه، كما قال ﷺ عن نفسه في الحديث الصحيح: «**إني لست كهيئتكم، إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني**».

وبهذا ظهر أنَّ وصفه ﷺ بالبشرية؛ يجب أن يقترن بما يميزه عن عامة البشر، من ذكر خصائصه الفريدة ومناقبه الحميدة، وهذا ليس خاصًا به ﷺ، بل هو عام في حق جميع رُسُلِ الله سبحانه وتعالى، لتكون نظرتنا إليهم لائقة بمقامهم؛ وذلك لأنَّ ملاحظة البشرية العادية المجردة فيهم دون غيرها؛ هي نظرة جاهلية شركية، وفي القرآن شواهد كثيرة على ذلك، **فمن ذلك**: قول قوم نوح في حقه فيما حكاه الله عنهم إذ قال: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧].

ومن ذلك: قول قوم موسى وهارون في حقهما فيما حكاه الله عنهم إذ قال: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون: ٤٧].

ومن ذلك: قول ثمود لنبيهم صالح فيما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء: ١٥٤].

ومن ذلك: قول أصحاب الأيكة لنبيهم شعيب فيما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الشعراء: ١٨٥- ١٨٦].

ومن ذلك: قول المشركين في حق سيدنا محمد ﷺ وقد رأوه بعين البشرية المجردة فيما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، ولقد تَحدّث رسول الله ﷺ عن نفسه حديث الصدق بما أكرمه الله تعالى به من عظيم الصفات، وخوارق العادات التي تميز بها عن سائر أنواع البشر(١).

فمن ذلك: ما جاء في الحديث الصحيح أنه قال: «**تنام عيناي ولا ينام قلبي**».

وجاء في الصحيح أنه قال: «**إني أراكم من وراء ظهري كما أراكم من أمامي**».

وجاء في الصحيح أنه قال: «**أوتيت مفاتيح خزائن الأرض**».

وهو ﷺ وإن كان قد مات؛ إلَّا أنه حَيٌّ حَياةً برزخية كاملة يسمع الكلام ويرد السلام، وتبلغه صلاة من يصلي عليه، وَتُعرضُ عليه أعمال الأمة، فيفرح بعمل المحسنين ويستغفر للمسيئين. وإنَّ الله حَرّم على الأرض أن تأكل جسده، فهو محفوظ من الآفات والعوارض الأرضية.

وعن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ من أفضل أيامكم يوم الجمعة؛ فيه خُلِقَ آدم، وفيه قُبِضَ، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عَليَّ من الصلاة فيه، فإنَّ صلاتكم معروضة عَليَّ**»، قالوا: يا رسول الله! وكيف تُعرَضُ صلاتنا عليك وقد أَرِمْتَ؟ - يعني بَلِيتَ - فقال: «**إنَّ الله عز وجل حَرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»(٢).

وفي ذلك رسالة خاصة للحافظ جلال الدين السيوطي أسماها «إنباء

---

(١) سيأتي بحث خاص في هذا الموضوع بعنوان: «الأنبياء بشر ولكن!».

(٢) رواه: أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم وصححه.

الأذكياء بحياة الأنبياء» عليهم الصلاة والسلام.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**حياتي خير لكم تُحْدِثُونَ وَيُحدَثُ لكم، ووفاتي خير لكم تُعرَضُ عليَّ أعمالكم فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شرٍّ استغفرت الله لكم**»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**ما من أحد يُسلِّمُ عليَّ إلَّا رَدَّ الله عليَّ روحي حتى أَرُدَّ عليه السلام**»[2].

قال بعض العلماء: رد عليَّ روحي: أي نطقي.

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله وَكَّلَ بقبري مَلَكًا أعطاه الله أسماء الخلائق، فلا يصلي عليَّ أحد إلى يوم القيامة إلَّا أبلغني باسمه واسم أبيه، هذا فلان بن فلان قد صَلَّىٰ عليك**». رواه البزار، وأبو الشيخ ابن حبان ولفظه: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لله تبارك وتعالى مَلَكًا أعطاه الله أسماع الخلائق، فهو قائم على قبري إذا مت، فليس أحد يصلي عليَّ إلَّا قال: يا محمد! صَلَّىٰ عليك فلان بن فلان، قال: فيصلي الرب تبارك وتعالى على ذلك الرجل بكل واحدة عشرًا**». رواه الطبراني في «الكبير» بنحوه[3].

وهو ﷺ وإن كان قد مات؛ إلَّا أنَّ فضله ومقامه وجاهه عند ربه باقٍ لا شك في ذلك ولا ريب عند أهل الإيمان، ولذلك فإنَّ التوسل به إلى الله سبحانه وتعالى إنما يرجع في الحقيقة إلى اعتقاد وجود تلك المعاني، واعتقاد محبته وكرامته عند ربه، وإلى الإيمان به وبرسالته ﷺ، وليس هو عبادة له، بل إنه مهما عَظُمت درجته وعلت رتبته؛ فهو مخلوق لا يضر ولا ينفع من دون الله؛ إلَّا بإذنه.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١٠٩].

---

(١) قال الهيثمي: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه: أحمد، وأبو داود.

(٣) كثير من هذه الأحاديث سيأتي مفصلًا في مباحث أخرى من هذه الرسالة لمناسبة أخرى، والحديث الواحد يستدل به العلماء على أكثر من مسألة، في أكثر من موضع.

أُمورٌ مُشتَرَكة بين المقامين لا تُنافي التَّنزيه

وقد أخطأ كثير من الناس في فهم بعض الأمور المشتركة بين المقامين؛ مقام الخالق ومقام المخلوق، فظنَّ أنَّ نسبتها إلى مقام المخلوق؛ شِركٌ بالله تعالى.

ومن ذلك بعض الخصائص النبوية[1] ـ مثلًا ـ التي يُخطِئُ بعضهم في فهمها، فيقيسونها بمقياس البشرية، ولذلك يستكثرونها ويستعظمونها على رسول الله ﷺ، ويرون أنَّ وصفه بها معناه وصفه ببعض صفات الألوهية، وهذا جهل محض. لأنه سبحانه وتعالى يعطي من يشاء وكما يشاء بلا مُوجبٍ مُلزِمٍ، وإنما هو تَفضُّلٌ على من أراد إكرامه ورفع مقامه وإظهار فضله على غيره من البشر، وليس في ذلك انتزاع لحقوق الربوبية وصفات الألوهية، فهي محفوظة بما يناسب مقام الحق سبحانه وتعالى. وإذا اتصف المخلوق بشيء منها؛ فيكون بما يناسب البشرية من كونها محدودة مكتسبة بإذن الله وفضله وإرادته، لا بقوة المخلوق ولا تدبيره ولا أمره؛ إذ هو عاجز ضعيف لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وكم من أمور جاء ما يدل على أنها حَقٌّ لله سبحانه وتعالى، ولكنه سبحانه وتعالى منَّ بها على نبيه ﷺ وغيره، وحينئذ فلا يرفعه وصفه بها إلى مقام الألوهية، أو يجعله شريكًا لله سبحانه وتعالى.

فمنها: الشفاعة، فهي لله، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ [الزمر: ٤٤]، وهي ثابتة للرسول ﷺ، ولغيره من الشفعاء بإذن الله؛ كما جاء في الحديث: «**أوتيت الشفاعة**»، وحديث: «**أنا أول شافع ومشفع**».

ومنها: علم الغيب، فهو لله سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥]، وقد ثبت أنَّ الله تعالى علّم نبيه من الغيب ما علّمه، وأعطاه ما أعطاه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

---

(١) سيأتي في هذه الرسالة بحث خاص عن الخصائص المحمدية، وموقف العلماء منها، وما نذكره هنا هو من باب التنظير.

ومنها: الهداية، فهي خاصة بالله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، وقد جاء أنه ﷺ له شيء من ذلك فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، والهداية الأولى غير الهداية الثانية، وهذا إنما يفهمه العقلاء من المؤمنين الذين يعرفون الفرق بين الخالق والمخلوق، ولولا ذلك لاحتاج أن يقول: وإنك لتهدي هداية إرشاد، أو أن يقول: إنك لتهدي هداية غير هدايتنا، ولكن كل ذلك لم يحصل، بل أثبت له هداية مطلقة بلا قيد ولا شرط، لأنَّ الموحِّد مِنّا معشرَ المخاطَبين من أهل الإسلام يفهم معاني الألفاظ ويدرك اختلاف مدلولاتها بالنسبة لما أضيف إلى الله، وبالنسبة لما أضيف إلى رسول الله ﷺ.

ونظير هذا: ما جاء في القرآن من وصف رسول الله ﷺ بالرأفة والرحمة إذ يقول تعالىٰ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ووصف الله سبحانه وتعالى نفسه بذلك أيضًا في أكثر من موضع، فهو سبحانه وتعالى ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ومعلوم أنَّ الرأفة والرحمة الثانية غير الأولى، ولمّا وصف نبيه ﷺ بذلك الوصف وصفه به بالإطلاق بلا قيد ولا شرط؛ لأنَّ المُخاطَب ـ وهو مُوَحِّد مؤمن بالله ـ يعلم الفرق بين الخالق والمخلوق، ولولا ذلك لاحتاج أن يقول في وصفه ﷺ: رؤوف برأفة غير رأفتنا، ورحيم برحمة غير رحمتنا، أو أن يقول: رؤوف برأفة خاصة، أو رحيم برحمة خاصة، أو أن يقول: رؤوف برأفة بشرية ورحيم برحمة بشرية، ولكن كل ذلك لم يحصل، بل أثبت له رأفة مطلقة ورحمة مطلقة بلا قيد ولا شرط، فقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

المَجازُ العقلي واستعماله

ولا شك أنَّ المجاز العقلي مستعمل في الكتاب والسُّنة، **فمن ذلك**: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، فإسناد الزيادة إلى الآيات مجاز عقلي؛ لأنها سبب في الزيادة، والذي يزيد حقيقة هو الله تعالى وحده.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]، فإسناد الجعل إلى اليوم مجاز عقلي؛ لأنَّ اليوم محل جعلهم شيبًا. فالجعل المذكور واقع في اليوم، والجاعل حقيقة هو الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤]، فإنَّ إسناد الإِضلال إلى الأصنام مجاز عقلي؛ لأنها سبب في حصول الإِضلال، والهادي والمُضِلُّ هو الله تعالى وحده.

وقوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ [غافر: ٣٦]، فإسناد البناء إلى هامان مجاز عقلي؛ لأنه سبب، فهو آمر يأمر ولا يبني بنفسه، والباني إنما هم الفعلة من العمال.

وأما الأحاديث ففيها شيء كثير يعرفه من وقف عليها، وكان ممن يعرف الفرق بين الإِسناد الحقيقي والمجازي، فلا حاجة إلى الإِطالة بنقلها، وقال العلماء: إنَّ صدور ذلك الإِسناد من مُوحِّدٍ كاف في جعله إسنادًا مجازيًا؛ لأن الاعتقاد الصحيح هو اعتقاد أنَّ الخالق للعباد وأفعالهم هو الله وحده، فهو الخالق للعباد وأفعالهم، لا تأثير لأحد سواه لا لحَيٍّ ولا لميت، فهذا الاعتقاد هو التوحيد المحض، بخلاف ما لو اعتقد غير هذا، فإنه يقع في الإِشراك.

ضَرُورةُ مُلاحظةِ النِّسبةِ في مِقياس الكُفر والإيمان

وقد تمسك طوائف من أهل الضلالات بذيل شبهة ظواهر الألفاظ؛ بدون نظر إلى القرائن والمقاصد، وبدون نظر إلى الجمع بما لا يؤدي إلى التعارض بين الواردين **كالقائلين بخلق القرآن** تمسكوا بنحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، **والقائلين بالقدر** تمسكوا بنحو قوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] و﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥] إلى غير ذلك، **والقائلين بالجبر** تمسكوا بنحو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦]، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

وكشف الغطاء عن ذلك: أنَّ جميع الأمة ـ غير القدرية ـ على أنَّ أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦]،

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧٠]، وإن كان يجوز أن يوصف بها العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنه بالاكتساب؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] إلى غير ذلك من الآيات المصرِّحة بإضافة الكسب إلى العبد، وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون بالاختراع فقط؛ لأنَّ قدرة الله تعالى في الأزل كانت متعلقة بالعالم قبل اختراعه لوجوده، وهي عند اختراعه متعلقة به بنوع آخر من التعلُّق.

حَقِيقةُ نِسبَةِ الأفعال للعباد:

ومن هذا يظهر: أنَّ تعلق القدرة ليس مخصوصًا بحصول المقدور بها، وأفعال العباد نسبتها إليهم عن طريق الكسب لا الاختراع؛ لأنَّ الله تعالى هو المخترع لها، والمُقَدِّرُ لها، والمُرِيدُ لها، ولا يَرِد أنه كيف يريد ما نهىٰ عنه؛ لأنَّ الأمر يُغَاير الإرادة، بدليل أمره جميع الناس بالإيمان، ولم يُرده من أكثرهم لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، فنسبة الأفعال إلى العباد من نسبة المُسَبَّب إلى السبب أو الواسطة، وهذا لا منافاة فيه؛ لأنَّ مُسَبِّبَ الأسباب هو الذي خلق الواسطة وخلق فيها معنى الوساطة، ولولا ذلك الذي أودع الله تعالى فيها؛ لم تصلح أن تكون واسطة، سواء كانت مما لم يودَع العقل كالجماد والأفلاك والمطر والنار، أو كانت عاقلة من مَلَك، أو إنسي، أو جني.

اختلافُ المَعنىٰ باختلافِ النِّسبةِ اللَّفظية:

ولعلك تقول: لا تُعقَلُ نسبة الفعل الواحد إلى فَاعِلَيْن، لاستحالة اجتماع مُؤَثِّرَيْنِ على أثر واحد، **فنقول**: نعم، هو كما قلتم، لكن محله إذا لم يكن للفعل إلَّا معنى واحد في الاستعمال.

أما إذا كان له معنيان، فيكون مُجمَلًا مُتَرَدِّدًا بينهما في الاستعمال، وحينئذٍ لا يمتنع إطلاقه على كل منهما كما هو المعلوم من الاستعمال في الأسماء المشتركة، أو في الحقيقة والمجاز؛ كما يقال: قتل الأمير فلانًا،

ويقال: قتله السيَّاف، فإطلاق القتل على الأمير بمعنًى غير المعنى الذي أُطلِقَ به على السياف، فقولنا: إنَّ الله تعالى فاعل بمعنى: أنه المُخترع المُوجد، وقولنا: إنَّ المخلوق فاعل بمعنى: أنه المحل الذي خلق الله فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة، وبعد أن خلق فيه العلم، فارتباط القدرة بالإرادة، والحركة بالقدرة ارتباط المعلول بالعلة، وارتباط المختَرَع بالمخترِع، هذا إذا كان المحل عاقلًا وإلَّا فهو من ترتيب المسبَّبات على أسبابها، فصح أن يُسمّىٰ كل ما له ارتباط بقدرة: فاعلًا، كيفما كان الارتباط، كما يُسمّىٰ السَّياف: قاتلًا، باعتبار، والأمير قاتلًا باعتبار؛ لأنَّ القتل ارتبط بكليهما، وإن كان ارتباطه على وجهين مختلفين، فمثل ذلك اعتبار المقدورات بالقدرتين.

والدليل على جواز هذه النسبة وتطابقها: نسبةُ الله تعالى الأفعال إلى الملائكة تارة، وتارة إلى غيرهم من العباد، ومرة أخرى نسبها بعينها إلى نفسه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الواقعة: ٦٣] الآية، بالإضافة إليهم، ثم قال: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾ [عبس: ٢٥ ـ ٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، ثم قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، فأسند النفخ إليه مع أنَّ النافخ هو جبريل عليه السلام، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٨]، والقارئ الذي يسمع النبي قراءته جبريل، وقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧]، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، فنفىٰ عنهم القتل وأثبته لنفسه، ونفىٰ عنه الرمي وأثبته لنفسه، **وليس المراد**: نفي الحس من قتلهم الكفار ورميه لهم عليه الصلاة والسلام بالحصباء، **ولكن المعنى**: أنهم ما قتلوهم ولا رموهم بالمعنى الذي يكون الرب به قتلهم ورماهم، وهو الاختراع والتقدير، إذ هما معنيان مختلفان، وتارة ينسب الفعل إليهما معًا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: ٥٩].

وروت السيدة عائشة رضي الله عنها أنَّ الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يخلق الجنين، يبعث مَلَكًا فيدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده، ثم يصورها جسدًا، فيقول: يا رب! أذكر أم أنثى؟ أسَويٌّ أم معوجّ؟ فيقول تعالى ما شاء، ويخلق المَلَكُ.

وفي لفظ آخر: فيصور الملك، ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة.

فإذا فهمت هذا: اتضح لك أنَّ الفعل يستعمل على وُجُوهٍ مختلفة ولا تناقض بينها، وذلك الفعلُ ينسب تارة للجماد كما في قوله تعالى: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥]، فالشجرة لا يتأتّىٰ منها الإتيان بثمرها، وكما في قوله ﷺ للذي ناوله تمرة: «**خذها، لو لم تأتها لأتتك...**» الحديث كما في الطبراني، وابن حبان، فإضافة الإتيان تختلف إلى الرجل وإلى التمرة؛ فمعنى إتيان التمرة غير معنى إتيان الرجل، فالإتيان منهما مجازان مختلفان في الاعتبار، فمجاز إطلاق الإتيان على الرجل بمعنى أنَّ الله خلق فيه القدرة والإرادة للإتيان بها، وإتيان التمرة بمعنى أنَّ الله يُسَبِّبُ من يأتي بها، والحقيقة إنما هي إضافة الإتيان إلى الله تعالى في كل منهما، ولأجل اختلاف الاعتبار في الوسائط تارةً تكون ملاحظة الوسائط في الأفعال كفرًا؛ كما في جواب قارون لموسى عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وكما في حديث: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطِرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطِرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»، وهذا الكفر باعتبار أنَّ الواسطة مؤثِّرة ومخترِعة.

قال النووي: «اختلف العلماء في كفر من قال: مطرنا بنوء كذا، على قولين:

أحدهما: هو كفر بالله تعالى سَالبٌ لأصل الإيمان، مُخرِجٌ من مِلّةِ الإسلام؛ قالوا: وهذا فيمن قال ذلك معتقدًا أنَّ الكوكب فاعل مدبر منشئ للمطر، كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم، ومن اعتقد هذا فلا شك في كفره. وهذا القول هو الذي ذهب إليه جماهير العلماء، والشافعي منهم، وهو ظاهر

الحديث، قالوا: وعلى هذا لو قال: مطرنا بنوء كذا، معتقدًا أنه من الله تعالى وبرحمته وأنَّ النوء ميقات له وعلامة اعتبارًا بالعادة، فكأنه قال: مطرنا في وقت كذا، فهذا لا يُكَفَّر.

واختلفوا في كراهته، والأظهر كراهته لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها؛ وسبب الكراهة: أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره، فَيُسَاء الظن بصاحبها، ولأنها شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم.

والقول الثاني: في أصل تأويل الحديث: أنَّ المراد كفر نعمة الله تعالى لاقتصاره على إضافة الغيث إلى الكوكب، وهذا فيمن لا يعتقد تدبير الكوكب، **ويؤيد هذا التأويلَ**: الروايةُ الأخيرة في الباب: «**أصبح من الناس شاكر وكافر**»، وفي الرواية الأخرىٰ: «**ما أنعمتُ على عبادي من نعمةٍ، إلَّا أصبح فريقٌ منهم بها كافرين**»، وفي الرواية الأخرى: «**ما أنزل الله تعالى من السماء من بركة، إلَّا أصبح فريق من الناس بها كافرين**». فقوله: «**بها**» يدل على أنه كفر بالنعمة، والله أعلم» اهـ.

فأنت تراه قال باتفاق العلماء على أنَّ من نسب الفعل إلى الواسطة لا يكفر إلَّا إذا اعتقد أنها هي الفاعلة المدبِّرة المخترِعة، وإذا لم تكن ملاحظة الواسطة بهذا الاعتبار بحيث إنَّ الواسطة علامة أو ظَرْف الخَلْق المقدور فيها فلا كفر، بل تارة يندب الشرع إلى ملاحظتها كقول النبي ﷺ: «**من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تستطيعوا، فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه**»، وقوله ﷺ: «**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**».

وذلك لأنَّ ملاحظة الواسطة بهذا الاعتبار لا تنافي رؤية المنة لله سبحانه وتعالى، وقد أثنى الله عزّ وجَل على عباده في مواضع على أعمالهم، بل وأثابهم عليها وهو الباعث لإرادتهم لها، والخالق لقدرتهم عليها؛ كقوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩].

وإذا ظهر لك أنَّ الفعل يستعمل على وُجُوهٍ مختلفة، فلا تتناقض هذه المعاني إذا فهمت الفهم الصحيح السليم.

فالمعاني أوسع من العبارات، والصدور أوسع من الكتب المؤلفات، ولو وقفنا مع حقيقة اللفظ دون المجاز، لم نجد إلى الجمع بين النصوص أو التفرقة من جواز، ألا ترى إلى ما أخبر الله تعالى به عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام من قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، أترى إبراهيم يشرك مع الله تعالى الجماد وهو القائل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦]، والأمر الجامع في ذلك: أنَّ من أشرك مع الله جل جلاله غيره في الاختراع والتأثير؛ فهو مشرك، سواء كان الملحوظ معه جمادًا أو آدميًّا، نبيًّا أو غيره، ومن اعتقد السببية في شيء من ذلك اطَّردت أو لم تطَّرد، فجعل الله تعالى له سببًا لحصول مسبباته، وأنَّ الفاعل هو الله وحده لا شريك له، فهو مؤمن ولو أخطأ في ظنه ما ليس بسبب سببًا؛ لأنَّ خطأه في السبب لا في المُسَبِّب الخالق المدبر جلّ جلاله وعظُم شأنه.

التعظيم بين العبادة والأدب

يخطئ كثير من الناس في فهم حقيقة التعظيم وحقيقة العبادة، فيخلطون بينهما خلطًا بيِّنًا، ويعتبرون أنَّ أي نوع من أنواع التعظيم هو عبادة للمعظَّم، فالقيام، وتقبيل اليد، وتعظيم النبي ﷺ بسيدنا ومولانا، والوقوف أمامه في الزيارة بأدب ووقار وخضوع، كل ذلك غُلُوّ عندهم يؤدِّي إلى العبادة لغير الله تعالى، وهذا في الحقيقة جهل وتَعَنُّت لا يرضاه الله ولا رسوله ﷺ، وتَكَلُّف تأباه روح الشريعة الإسلامية.

فهذا آدم أول الجنس الإنساني، وأول عباد الله الصالحين من هذا الجنس، أمر الله تعالى الملائكة بالسجود له إكرامًا وتعظيمًا لما آتاه من علمه وإعلامًا لهم باصطفائه من بين سائر مخلوقاته؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ٦١، ٦٢]. وفي آية أخرى قال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: ٧٦]، وفي آية أخرى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١]. فالملائكة

عليهم السلام عَظّمُوا من عظمه الله، وإبليس تَكَبّر أن يسجد لمن خلق من طين، فهو أول من قاس الدين برأيه وقال: أنا خير منه، وعلل ذلك بعلة خلقه من نار وخلق آدم من طين، وَأَنِفَ من تكرمته عليه، واستنكف من السجود له، فهو أول المتكبرين ولم يعظم من عظّمه الله، فطرد من رحمة الله لتكبره على هذا العبد الصالح، وهو عين التكبر على الله؛ لأنَّ السجود إنما هو لله إذ هو بأمره، وإنما جعل السجود له تشريفًا وتكريمًا له عليهم، وكان من الموحدين؛ فلم ينفعه توحيده.

ومما جاء في تعظيم الصالحين: قول الله تعالى في حق يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، تحية وتكريمًا وتشريفًا وتعظيمًا له عليهم، والسجود من إخوته له إلى الأرض يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا۟﴾، ولعله كان جائزًا في شرعهم، أو كسجود الملائكة لآدم عليه السلام تشريفًا وتعظيمًا وامتثالًا لأمر الله؛ تأويلًا لرؤيا يوسف؛ إذ رؤيا الأنبياء وَحيٌ.

أما نبينا محمد ﷺ، فقد قال الله تعالى في حقه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٨، ٩]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات: ٢]، الآيات الثلاث. وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، ونهى عن التَّقدُّم بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبقه بالكلام. قال سهل بن عبد الله: لا تقولوا قبل أن يقول، أي لا تتكلموا قبله، وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا، وقال: نُهُوا عن التقدُّم والتعجل بقضاء أمر قبل قضائه فيه، وأن يفتوا بشيء في ذلك من قتال أو غيره من أمر دينهم إلَّا بأمره، ولا يسبقوه به، ثم وعظهم وحذرهم من مخالفة ذلك فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]. قال السُّلَمي: اتقوا الله في إهمال حقه وتضييع حرمته، إنه سميع لقولكم، عليم بفعلكم، ثم نهاهم عن رفع الصوت فوق صوته، والجهر له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض، ويرفع صوته، وقيل: كما ينادي بعضهم بعضًا باسمه. قال أبو محمد مكي: أي لا تسابقوه بالكلام وتغلظوا له بالخطاب، ولا تنادوه باسمه

نداء بعضكم لبعض ولكن عَظِّمُوه وَوقِّروهُ، ونادوه بأشرف ما يحب أن يُنادىٰ به؛ يا رسول الله، يا نبي الله، وهذا كقوله في الآية الأخرى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، وقال غيره: لا تخاطبوه إلَّا مستفهمين، ثم خوّفهم الله تعالى بحبوط أعمالهم إن هم فعلوا ذلك وحذرهم منه.. والآية نزلت في جماعة أتوا النبي ﷺ فنادَوه: يا محمد اخرج إلينا، فذمهم الله تعالى بالجهل ووصفهم بأن أكثرهم لا يعقلون.

يقول عمرو بن العاص رضي الله عنه: «وما كان أحد أحب إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالًا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه»(١).

وَروىٰ الترمذي عن أنس رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس، فيهم أبو بكر وعمر، فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلَّا أبو بكر وعمر، فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما، ويتبسمان إليه ويتبسم لهما.

وَروىٰ أسامة بن شريك قال: «أتيت النبي ﷺ وأصحابه حوله كأنما على رؤوسهم الطير»، وفي صفته ﷺ أنه إذا تَكلَّم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير. وقال عروة بن مسعود حين وجهته قريش عام القضية إلى رسول الله ﷺ ورأى من تعظيم أصحابه له ما رأى، وأنه لا يتوضأ إلَّا ابتدروا وَضوءه وكانوا يقتتلون عليه، ولا يبصق بصاقًا ولا يتنخم نخامة إلَّا تلقوها بأكفهم فدلكوا بها وجوههم وأجسادهم، ولا تسقط منه شعرة إلَّا ابتدروها، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له، فلما رجع إلى قريش قال: يا معشر قريش! إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت مَلِكًا في قوم قط مثل محمد في أصحابه.

وفي رواية: إنْ رأيت مَلِكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم محمدًا أصحابه،

(١) رواه مسلم في «الصحيح»، (كتاب الإيمان)، «باب كون الإسلام يهدم ما قبله».

وقد رأيت قومًا لا يُسْلِمُونَهُ أبدًا.

وأخرج الطبراني، وابن حبان في «صحيحه» عن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ كأنما على رؤوسنا الطير، ما يَتكلّمُ منا مُتكلّمٌ، إذ جاءه أناس فقالوا: من أحبُّ عباد الله إلى الله تعالى؟ قال: «**أحسنهم خُلُقًا**»[1].

وأخرج أبو يعلى وصححه، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «لقد كنت أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الأمر، فأؤخره سنتين من هيبته».

وأخرج البيهقي عن الزهري قال: حَدّثني من لا أتهم من الأنصار أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا توضأ أو تنخم، ابتدروا نخامته فمسحوا بها وجوههم وجلودهم، فقال رسول الله ﷺ: «**لم تفعلون هذا؟**» قالوا: نلتمس به البركة، فقال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن يحبه الله ورسوله؛ فَلْيَصْدُقِ الحديث، وَلْيُؤَدِّ الأمانة، ولا يُؤْذِ جاره**»[2].

والحاصل: أنَّ هنا أمرين عظيمين لا بد من ملاحظتهما، **أحدهما**: وجوب تعظيم النبي ﷺ ورفع رتبته عن سائر الخلق، **والثاني**: إفراد الربوبية، واعتقاد أنَّ الله تبارك وتعالى منفرد بذاته وصفاته وأفعاله عن جميع خلقه، فمن اعتقد في مخلوق مشاركة الباري سبحانه وتعالى في شيء من ذاك فقد أشرك ـ كالمشركين الذين كانوا يعتقدون الألوهية للأصنام واستحقاقها العبادة ـ، ومن قصر بالرسول ﷺ عن شيء من مرتبته، فقد عصىٰ أو كفر.

وأما من بالغ في تعظيمه ﷺ بأنواع التعظيم، ولم يصفه بشيء من صفات الباري عز وجل، فقد أصاب الحق وحافظ على جانب الربوبية والرسالة جميعًا، وذلك هو القول الذي لا إفراط فيه ولا تفريط.

وإذا وجد في كلام المؤمنين إسنادُ شيء لغير الله تعالى؛ يجب حمله على المجاز العقلي ولا سبيل إلى تكفيرهم، إذ المجاز العقلي مستعمل في الكتاب والسُّنة.

---

(١) كذا في «الترغيب» ٤: ١٨٧. وقال: ورواة الطبراني محتج بهم في الصحيح.

(٢) كذا في «الكنز» ٨: ٢٢٨.

الوَاسِطةُ الشِركية

يُخْطِئُ كثير من الناس في فهم حقيقة الواسطة، فيطلقون الحكم هكذا جزافًا بأنَّ الواسطة شرك، وأنَّ من اتخذ واسطة بأي كيفية كانت فقد أشرك بالله، وأن شأنه في هذا شأن المشركين القائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وهذا كلام مردود، والاستدلال بالآية في غير محله، وذلك لأنَّ هذه الآية الكريمة صريحة في الإنكار على المشركين عبادتهم للأصنام واتخاذها آلهة من دونه تعالى، وإشراكهم إياها في الربوبية وأنَّ عبادتهم لها تُقَربهم إلى الله زُلفىٰ، فكفرهم وإشراكهم من حيث عبادتهم لها ومن حيث اعتقادهم أنها أرباب من دون الله.

وهنا مهمة لا بد من بيانها؛ وهي أنَّ هذه الآية تشهد بأنَّ أولئك المشركين ما كانوا جادِّين فيما يحكي ربنا عنهم من قولهم مُسوِّغين عبادة الأصنام: ما نعبدهم إلَّا ليقربونا إلى الله زلفى، فإنهم لو كانوا صادقين في ذلك، لكان الله أجلّ عندهم من تلك الأصنام فلم يعبدوا غيره، وقد نهى الله المسلمين عن سب أصنامهم بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام: ١٠٨].

رَوىٰ عبد الرزاق، وعَبدُ بن حُميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه أنه قال: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فيسب الكفار الله عز وجل، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وهذا سبب نزول هذه الآية، فهي إذن تَنهىٰ المؤمنين نَهْي تحريم شديد أن يقولوا كلمة نقص في الحجارة التي كان يعبدها الوثنيون بمكة المشرفة؛ لأنَّ قول تلك الكلمة يتسبب عنه غضب أولئك الوثنيين غيرة على تلك الأحجار التي كانوا يعتقدون من صميم قلوبهم أنها آلهة تنفع وتضر، وإذا غضبوا قابلوا المسلمين بالمثل فيسبون ربهم الذي يعبدونه، وهو رب العالمين، ويرمونه بالنقائص وهو المُنزّه عن كل نقص، ولو كانوا صادقين بأنَّ عبادتهم لأصنامهم تقربهم إلى الله زلفى ما اجترؤوا أن يسبوه

انتقامًا ممن يسبون آلهتهم، فإنَّ ذلك واضح جدًّا في أنَّ الله تعالى في نفوسهم أقل من تلك الحجارة.

وقُلْ ذلك أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]؛ فإنهم لو كانوا يعتقدون حقًّا أنَّ الله تعالى الخالق وحده وأنَّ أصنامهم لا تخلق؛ لكانت عبادتهم لله وحده دونها، أو لكان على الأقل احترامهم له تعالى فوق احترامهم لتلك الحجارة، وهل هذا يتفق مع شتمهم له عزّ وجَل غَيرةً على حجارتهم وانتقامًا لها منه سبحانه وتعالى؟ إنَّ البداهة تحكم أنه لا يتفق أبدًا، وليست الآية التي معنا وحدها تدل على أنَّ الله تعالى أقل عند أولئك المشركين من حجارتهم، بل لها أمثال؛ منها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦]، فلولا أنَّ الله تعالى أقل في نفوسهم من تلك الحجارة؛ ما رجحوها عليه هذا الترجيح الذي تحكيه هذه الآية، واستحقوا عليه حكم الله عليهم بقوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

ومن هذا القبيل قول أبي سفيان رضي الله عنه قبل إسلامه: «اعلُ هُبل»[1] ينادي صنمهم المُسمّىٰ بـ«هُبل» أن يعلُوَ في تلك الشدة ربَّ السموات والأرض ويقهره، ليغلب هو وجيشُه جيشَ المؤمنين الذي يريد أن يغلب آلهتهم، هذا مقدار ما كان عليه أولئك المشركون مع تلك الأوثان، ومع الله رب العالمين.

فَلْيُعْرَفْ هذا حَقَّ المعرفة؛ فإنَّ كثيرًا من الناس لا يفهمونه ويبنون عليه ما يبنون.

ألا ترى أنَّ الله لما أمر المسلمين باستقبال الكعبة في صلاتهم، توجهوا بعبادتهم إليها واتخذوها قِبلةً؟ وليست العبادة لها، وتقبيل الحجر الأسود إنما هو عُبُوديةٌ لله تعالى، واقتداء بالنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم،

---

(١) رواه البخاري.

ولو أنَّ أحدًا من المسلمين نَوىٰ العبادة لهما؛ لكان مشركًا كعبدة الأوثان.

فالواسطة لا بُدَّ منها، وهي ليست شركًا، وليس كل من اتخذ بينه وبين الله واسطة يعتبر مشركًا، وإلَّا لكان البشر كلهم مشركين بالله لأنَّ أمورهم جميعًا تنبني على الواسطة، فالنبي ﷺ تلقى القرآن بواسطة جبريل، فجبريل واسطة للنبي ﷺ، وهو ﷺ الواسطة العظمى للصحابة رضي الله تعالى عنهم، فقد كانوا يفزعون إليه في الشدائد فيشكون إليه حالهم، ويتوسلون به إلى الله، ويطلبون منه الدعاء؛ فما كان يقول لهم: أشركتم وكفرتم؛ فإنه لا يجوز الشكوى إليَّ ولا الطلب مني، بل عليكم أن تذهبوا وتدعوا وتسألوا بأنفسكم، فإنَّ الله أقرب إليكم مني، لا، بل يقف ويسأل مع أنهم يعلمون كل العلم أنَّ المُعطِيَ حقيقة هو الله، وأنَّ المانع والباسط والرازق هو الله، وأنه ﷺ يُعطِي بإذن الله وفضله، وهو الذي يقول: **«إنما أنا قاسم والله يُعْطي»**، وبذلك يظهر أنه يجوز وصف أيِّ بشر عادي بأنه فرّج الكربة وقضى الحاجة؛ أي كان واسطة فيهما، فكيف بالسيد الكريم والنبي العظيم، أشرفِ الكونين وسيدِ الثقلين، وأفضلِ خلق الله على الإطلاق؟ ألم يقل النبي ﷺ كما جاء في الصحيح: **«من فَرّج عن مؤمن كُربةً من كُربِ الدنيا»** إلخ؟ فالمؤمن مُفرِّجُ الكربات.

ألم يقل ﷺ: **«من قضى لأخيه حاجة؛ كنتُ واقفًا عند ميزانه، فإن رجح وإلَّا شفعت له»**؟ فالمؤمن قاض للحاجات.

ألم يقل في الصحيح: **«من ستر مسلمًا...»** الحديث؟

ألم يقل النبي ﷺ: **«إنَّ لله عزّ وجَل خلقًا يُفزَع إليهم في الحوائج»**؟.

ألم يقل في الصحيح: **«والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»**؟

ألم يقل في الحديث: **«من أغاث ملهوفًا، كتب الله له ثلاثًا وتسعين حسنة»**؟[1].

فالمؤمن هنا فَرّج وأعانَ وأغَاثَ وقَضَىٰ وسَتر وفُزع إليه، مع أنَّ

---

(١) رواه: أبو يعلى، والبزار، والبيهقي.

المفرج والقاضي والستار والمعين حقيقة هو الله عز وجل، ولكنه لما كان وَاسِطةً في ذلك؛ صح نسبة الفعل إليه.

وقد جاء في الأحاديث النبوية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحاديث كثيرة تفيد أنَّ الله سبحانه وتعالى يدفع العذاب عن أهل الأرض بالمستغفرين وعُمّار المساجد، وأنَّ الله سبحانه وتعالى يرزق بهم أهل الأرض وينصرهم، ويصرف عنهم البلاء والغرق.

رَوىٰ الطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «السنن» عن مانع الديلمي رضي الله تعالى عنه أنه قال: قال النبي ﷺ: **«لولا عباد لله رُكَّع، وصبية رُضَّع، وبهائم رُتَّع؛ لصبَّ عليكم العذاب صبًا، ثم رضَّ رضًا»**.

وَروىٰ البخاري عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: **«هل تُنصَرون وتُرزَقون إلَّا بضعفائكم»**.

وَروىٰ الترمذي، والحاكم وصححاه عن أنس رضي الله تعالى عنه أنَّ النبي ﷺ قال: **«العلك تُرزَق به»**.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ لله عز وجل خلقًا خلقهم لحوائج الناس يَفزَعُ إليهم الناسُ في حوائجهم، أولئك الآمنون من عذاب الله تعالى»**[(١)].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله لَيصلح بصلاح الرجل المسلم ولدَه وولدَ ولدِه، وأهلَ دويرته ودويرات حوله، ولا يزالون في حفظ الله عز وجل ما دام فيهم»**[(٢)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مئة أهل بيت من جيرانه البلاء»**، ثم قرأ ابن عمر: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١][(٣)].

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير»، وأبو نعيم، والقضاعي، وهو حسن.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٢: ٣٤١، وأخرجه النسائي في المواعظ من السنن الكبرى، كما في التحفة ١٣: ٣٨٥؛ ورجال إسناده رجال الصحيحين غير شيخ النسائي وهو ثقة وفيه كلام.

(٣) رواه الطبراني.

وعن ثوبان ـ رفع الحديث ـ قال: «**لا يزال فيكم سبعة بهم تُنصرون، وبهم تُمطَرون، وبهم تُرزقون حتى يأتيَ أمر الله**».

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**الأَبدالُ في أمتي ثلاثون، بهم ترزقون وبهم تمطرون وبهم تنصرون**»، قال قتادة: «**إني لأرجو أن يكون الحسن منهم**»(١).

ذكر هذه الأحاديث الأربعة الحافظ ابن كثير في «التفسير» عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وهي صالحة للاحتجاج، ومن مجموعها يصير الخبر صحيحًا.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لن تخلوَ الأرض من أربعين رجلًا مثل خليل الرحمٰن، فبهم تُسقَون وبهم تنصرون، ما مات منهم أحد إلَّا أبدل الله مكانه آخر**»(٢).

الوَاسِطةُ العُظمىٰ:

في يوم المحشر الأعظم الذي هو يوم التوحيد، ويوم الإيمان، يوم يبرز العرش، يظهر فضل الواسطة العظمى، صاحب اللواء المعقود والمقام المحمود، والحوض المورود، الشافع المشفَّع الذي لا تُرَدُّ شفاعته ولا تضيع ضمانته عند من وعده بأن لا يُخَيِّبَ ظنه، ولا يخزيه أبدًا، ولا يحزنه ولا يسوؤه في أمته، حيث يتوجه الخلق إليه ويستشفعون به، فيقوم فلا يرجع إلَّا بخلعة الإحسان وتاج الكرامة، المتمثل في قول الله له: «**يا محمد، ارفع رأسك واشفع تُشَفَّعْ وَسَلْ تُعْطَ**».

ثَوب الزُّور

الأدعياء والمتطفلون على بساط الحقيقة كثيرون، والحقيقة بريئة منهم ولا تعترف لهم بصحة نسبتهم إليها.

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن، كذا في (مجمع الزوائد) ١٠: ٦٣.

وَكُــلٌّ يَــدَّعِــي وَصْــلًا بِــلَــيْــلَــىٰ   وَلَــيْــلَــىٰ لَا تُــقِــرُّ لَــهُــمْ بِــذَاكَــا

هذا، بالإضافة إلى أنهم يشوِّهون الصورة ويسيئون السمعة، وهؤلاء الأدعياء يصدق عليهم الوصف النبوي الدقيق الذي يقول: **«المتشبِّع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبَيْ زورٍ»**.

ولقد بُلِينَا ـ معشر المسلمين ـ بكثير من هؤلاء، يعكرون صفو الأمة ويفرقون بين الجماعات، ويورثون العداوة بين الأخ وأخيه والولد وأبيه، ويدخلون إلى تصحيح مفاهيم الإسلام من باب العقوق، ويسلكون في التمسك بآثار السلف سبيل الجحود، ويستبدلون الحكمة والموعظة الحسنة والرأفة والرحمة؛ بالغلظة والجفوة وسوء الأدب وقلة الذوق. إنَّ من الأدعياء أولئك الذين ينسبون أنفسهم إلى التصوف وهم أبعد الناس عن حقيقته وجوهره، فشوّهوا صورته ودنّسوا كرامته، وأفسدوا سيرته وجرّوا إليه وإلى أئمته من السادة العارفين والأساتذة المربين الانتقاد اللاذع.

إننا لا نعرف التصوف خرافات وأباطيل ودجلًا وشعوذة.

إننا لا نعرف التصوف نظريات فلسفية، أو أفكارًا أجنبية، أو عقائد شركية حلولية أو اتّحادية.

إننا نَبرأُ إلى الله من هذا كله، ونعتبر أنَّ كل ما يُخَالف الكتاب والسُّنة ولا يقبل التأويل؛ هو مكذوب دخيل، وملصق بأيدٍ آثمة ونفوس ضعيفة.

إننا نعرف التصوف مدارس علمية ومعارف فكرية، وهي كلها بمناهجها وبرامجها وطرقها تمثل الأفق الأعلى للفكرة الإسلامية، والوجه الأكمل لآدابنا ومثالياتنا، تمثل الكمال في الإيمان والكمال في كُلِّ شَأنٍ من شؤون الحياة، تمثل الخلاصة الزكية لكل دعوة ربانية، إنه الصدق والأمانة، والوفاء والإيثار، والنجدة والكرم، ونصرة الضعيف وإغاثة الملهوف، والتعاون على البر والتقوى، والتواصي بالحق والصبر، والتسابق إلى فعل الخير التي تمثل الخلق القويم الصحيح.

وبهذه السيرة العاطرة والخلق الزكي، ظهرت بطولات الصدر الأول

ورجاله وأئمته وأبطاله؛ فبرزت لنا الشخصية الإسلامية في أبهى حُلّةٍ وأكمل صفة، وأعلى وأظهر نموذج، وَروىٰ لنا عنها التاريخ حديث المجد والفخر والسيادة، والعزة والجهاد والنضال، ودروس الحضارة الإسلامية.

ومن هنا ندرك بيقين أنَّ النهضات الكبرى لا تنبني إلَّا على رسالات الروح وإلهامات الإيمان، ولا تقوم إلَّا على الأخلاق الصاعدة القوية التي تستمد مُثُلَها من العقائد المقدسة.

إنَّ الصفات الخُلُقية والنفسية والروحية هي رأس مال الشعوب، وهي المُدَّخرات العظمى التي تصنع الأمم وتدفع بالركب البشري إلى غاياته العليا، والناظر في سِيَرِ السلف الصالحين والسادات العارفين من القوم، يرى كيف أنَّ هذه المُثُل والمبادئ كانت سببًا مباشرًا لانتفاضات صريحة مشهودة مشهورة في التاريخ الإسلامي، إنه إيمان هو أعلى صور الإيمان، إيمانٌ حارٌّ مُتَقِدٌ حَيٌّ يرتكز على الشوق والمحبة، إنه إيمانٌ يطلق في قلوب أصحابه الشعلة المتوهجة المتطلعة دائمًا إلى الله، وَيَرىٰ كيف أنَّ الرجل منهم يعيش دائمًا في مقام الإحسان، يَرىٰ الله في كل شيء، ويراقبه في كل حركة من حركاته، بل يراقبه مع كل نَفَس من أنفاسه من غير حلول ولا اتحاد ولا إلحاد، إنه إيمان يبعث اليقظة الشاملة في الحياة، ويضفي عليها الإحساس العميق بالربانية السارية في الكون، والتي تعيش في أعماقها وتعلم خواطر القلب وهمسات النجوى وخائنة العين وما تخفي الصدور.

بَين نِعْمَتِ البِدعة، وَبِئْستِ البِدعة

وإنَّ من الأدعياء أولئك الذين ينسبون أنفسهم إلى السلف الصالح، فقاموا يدْعون إلى السلفية في همجية جهلاء، وعصبية عمياء، وبعقول عقيمة، وأفهام سقيمة، وصدور ضيقة تحارب كل جديد، وتنكر كل مخترَع مفيد، بدعوى أنه بدعة، وأنَّ كل بدعة ضلالة دون التفريق بين أنواع البدعة؛ مع أنَّ روح الشريعة الإسلامية توجب علينا أن نُميزَ بين أنواع البدعة وأن نقول: إنَّ منها البدعة الحسنة، ومنها البدعة السيئة، وهذا ما يقتضيه العقل النيِّر والنظر الثاقب.

وهذا ما حَقّقهُ علماء الأصول من سلف هذه الأمة رضي الله عنهم؛

كالإمام العز ابن عبد السلام، والنووي، والسيوطي، والمَحَلِّي، وابن حجر.

والأحاديث النبوية يفسر بعضها بعضًا، ويكمل بعضها بعضًا، ولا بد من النظر إليها نظرة واحدة متكاملة، ولا بد من تفسيرها بروح الشريعة ومفهومها المتفق عليه بين أهل النظر.

ولذا نجد كثيرًا من الأحاديث الشريفة تحتاج في تفسيرها إلى عقلٍ عاقل وفكر ثاقب، وفهم لائق وقلب ذائق، يستمد من بحر الشريعة الغراء، ويراعي أحوال الأمة وحاجتها، ويسايرها في حدود القواعد الشرعية والنصوص القرآنية والنبوية التي لا يجوز الخروج عنها.

ومن أمثلة ذلك هذا الحديث: «**كُلّ بِدعةٍ ضلالة**»، فلا بد من القول: إن المراد بذلك البدعة السيئة التي لا تدخل تحت أصل شرعي.

وهذا التقييد وَارِدٌ في غير هذا الحديث، كحديث: «**لا صلاة لجار المسجد إلَّا في المسجد**».

فهذا الحديث مع أنه يفيد الحصر في نفي صلاة جار المسجد، إلَّا أنَّ عمومات الأحاديث تفيد تقييده: بأن لا صلاة كاملة، مع ورود الخلاف في المسألة بين العلماء.

وكحديث: «**لا صلاة بحضرة الطعام**»، قالوا: أي صلاة كاملة.

وكحديث: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه**». قالوا: أي إيمانًا كاملًا.

وكحديث: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**». قيل: من يا رسول الله؟ قال: «**من لم يأمن جارُه بوائِقَه**».

وكحديث: «**لا يدخل الجنة قَتّات**» وحديث: «**ولا يدخل الجنة قاطع رحم وعاق لوالديه**».

فالعلماء قالوا: إنه لا يدخل دخولًا أوّليًا، أو لا يدخل إذا كان مُستَحِلًا لذلك الفعل.

الحاصل: أنهم لم يُجْرُوه على ظاهره وإنما أَوّلُوهُ بأنواع التأويل.

وحديث البدعة هذا من هذا الباب، فعمومات الأحاديث وأحوال

الصحابة؛ تُفيد أنَّ المقصود به البدعة السيئة التي لا تندرج تحت أصل كُلّي.

وفي الحديث «**من سنَّ سنة حسنة، كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة**».

وفي الحديث: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين**».

ويقول عمر رضي الله عنه في صلاة التراويح: نِعْمَتِ البِدْعةُ هَذه.

تَفريقٌ ضَرُوري بين البِدعَةِ الشَّرعيةِ واللُّغَويةِ

ينتقد بعضهم تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة، وينكر على من يقول ذلك أشد الإنكار، بل ومنهم من يرميه بالفسق والضلال، وذلك لمخالفة صريح قول الرسول ﷺ: «**كُلُّ بدعة ضلالة**». وهذا اللفظ صريح في العموم وصريح في وصف البدعة بالضلالة؛ ومن هنا تراه يقول: فهل يصح بعد قول المشرّع صاحب الرسالة: «**إنَّ كل بدعة ضلالة**»، أن يأتي مجتهد أو فقيه مهما كانت رتبته فيقول: لا، لا، ليست كل بدعة ضلالة. بل بعضها ضلالة، وبعضها حسنة، وبعضها سيئة. وبهذا المدخل يغتر كثير من الناس فيصيح مع الصَّائحين وينكر مع المنكرين، ويكثّر سواد هؤلاء الذين لم يفهموا مقاصد الشريعة، ولم يذوقوا روح الدين الإسلامي.

ثم لا يلبث إلَّا يسيرًا حتى يضطر إلى إيجاد مخرجٍ يحل له المشاكل التي تصادمه، ويفسّر له الواقع الذي يعيشه، إنه يضطر إلى اللُّجوء إلى اختراع وسيلة أخرى، لولاها لما يستطيع أن يأكل ولا يشرب ولا يسكن، بل ولا يلبس ولا يتنفس ولا يتزوج، ولا يتعامل مع نفسه ولا أهله ولا إخوانه ولا مجتمعه، وهذه الوسيلة هي أن يقول باللفظ الصريح: إنَّ البدعة تنقسم إلى بدعة دينية ودنيوية. يا سبحان الله!، لقد أجاز هذا المتلاعب لنفسه أن يخترع هذا التقسيم، أو على الأقل أن يخترع هذه التسمية، ولو سلَّمنا أنَّ هذا المعنى كان موجودًا منذ عهد النبوة؛ لكن هذه التسمية «دينية ودنيوية» لم تكن موجودة قطعًا في عهد التشريع النبوي. فمن أين جاء هذا التقسيم؟ ومن أين جاءت هذه التسمية المبتدعة؟

فمن قال: إنَّ تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة لم يأت من الشارع، نقول

له: وكذا تقسيم البدعة إلى دينية غير مقبولة، ودنيوية مقبولة هو عين الابتداع والاختراع.

فالشارع ﷺ يقول: «**كلُّ بدعة ضلالة**» هكذا بالإطلاق، وهذا يقول: لا، لا، ليست كل بدعة ضلالة بالإطلاق، بل إنَّ البدعة تنقسم إلى قسمين: دينية وهي الضلالة، ودنيوية وهي التي لا شيء فيها.

ولذا لا بد أن نوضح هنا مسألة مهمة، وبها ينجلي كثير من الإشكال، ويزول اللبس إن شاء الله.

وهي: أنَّ المتكلم هنا هو الشارع الحكيم، فلسانه هو لسان الشرع، فلا بد من فهم كلامه على الميزان الشرعي الذي جاء به. وإذا علمت أنَّ البدعة في الأصل هي: كل ما أُحدِثَ وَاختُرِعَ على غير مثال، فلا يغبْ عن ذهنك أنَّ الزيادة أو الاختراع المذموم هنا هو: الزيادة في أمر الدِّين، لتصير في أمر الدين، والزيادة في الشريعة لتأخذ صبغة الشريعة، فتصير شريعة مُتبعةً مَنْسُوبةً لصاحب الشريعة، وهذا هو الذي حذّر منه رسول الله ﷺ بقوله: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رد**»، فالحَدُّ الفاصل في الموضوع هو قوله: «**في أمرنا هذا**».

ولذلك؛ فإنَّ تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة في مفهومنا، ليس إلَّا للبدعة اللغوية التي هي مجرد الاختراع والإحداث، ولا نشك جميعًا في أنَّ البدعة بالمعنى الشرعي ليست إلَّا ضلالة وفتنة مذمومة مردودة مبغوضة، ولو فهم أولئك المنكرون هذا المعنى؛ لظهر لهم أنَّ محل الاجتماع قريب، وموطن النزاع بعيد.

وزيادة في التقريب بين الأفهام: أرى أنَّ مُنكِري التقسيم إنما ينكرون تقسيم البدعة الشرعية؛ بدليل تقسيمهم البدعة إلى دينية ودنيوية، واعتبارهم ذلك ضرورة، وأنَّ القائلين بالتقسيم إلى حسنة وسيئة، يرون أنَّ هذا إنما هو بالنسبة للبدعة اللغوية؛ لأنهم يقولون: إنَّ الزيادة في الدين والشريعة ضلالة وسيئة كبيرة، ولا شك في ذلك عندهم، فالخلاف شكلي، غير أنِّي أرى أنَّ إخواننا المنكرين لتقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة، والقائلين بتقسيمها إلى دينية ودنيوية،

لم يحالفهم الحظ في دقة التعبير، وذلك لأنهم لما حكموا بأنَّ البدعة الدينية ضلالة ـ وهذا حق ـ وحكموا بأنَّ البدعة الدنيوية لا شيء فيها، قد أساؤوا الحكم، لأنهم بهذا قد حكموا على كل بدعة دنيوية بالإباحة، وفي هذا خطر عظيم، وتقع به فتنة ومصيبة، ولا بد حينئذ من تفصيل واجب وضروري للقضية، وهو أن يقولوا: إنَّ هذه البدعة الدنيوية منها ما هو خير ومنها ما هو شر، كما هو الواقع المشاهَد الذي لا ينكره إلَّا أعمى جاهل، وهذه الزيادة لا بُدَّ منها، ويكفي في تحقيق هذا المعنى بدقة قول من قال بأنَّ البدعة تنقسم إلى حسنة وسيئة، ومعلوم أنَّ المراد بها اللغوية كما تَقدَّم، وهي التي عبر عنها المنكرون بالدنيوية. وهذا القول في غاية الدقة والاحتياط، وهو ينادي على كل جديد بالانضباط والانصياع لحكم الشرع وقواعد الدين، ويُلزم المسلمين أن يعرضوا كل ما جدَّ لهم وَأُحدِثَ من أمورهم الدنيوية العامة والخاصة على الشريعة الإسلامية؛ ليرى حكم الإسلام فيها، مهما كانت تلك البدعة، وهذا لا يتحقق إلَّا بالتقسيم الرائع المعتبر عند أئمة الأصول، فَرَضِيَ الله عن أئمة الأصول، وعن تحريرهم للألفاظ الصحيحة المجزئة المؤدية إلى المعاني السليمة دون نقص أو تحريف أو تأويل.

دَعوةُ أئمّةِ التَّصوف إلى العَملِ بالشَّريعة

التصوف ـ ذلك المظلوم المُتهَم ـ قليل من ينصفه، بل بلغت الجراءة والوقاحة ببعضهم أنه جعله من صفات الذم والقدح التي تسقط بها الشهادة وتزول بها العدالة فيقول: فلان ليس بثقة ولا يقبل خبره. لماذا؟ لأنه صوفي.

والعجيب الغريب أننا نرى بعض هؤلاء الذين يَذُمُّونَ التصوف ويحاربون أهله ويناصبونهم العداء، نرى بعض هؤلاء المنكرين يفعل ما يفعل، ويقول ما يقول عن التصوف، ثم لا يستحي على وجهه حينما ينقل كلام هؤلاء الأئمة من الصوفية في خُطَبِهِ وكلامه على منابر الجمعة وكراسي الدروس، فيقول بكل بجاحة ووقاحة: قال الفضيل بن عياض، وقال الجنيد، وقال الحسن البصري، وقال سهل التستري، وقال المحاسبي، وقال بشر الحافي.

وهؤلاء هم أئمة التصوف وأقطابه وأركانه وقواعده وبنيانه، وكتب التصوف مشحونة بأقوالهم وأخبارهم ومناقبهم وشمائلهم، فلا أدري أهو جهل أو تجاهل؟ وعمًى أو تعامٍ؟

وقد أحببت أن أنقل كلام أئمة الدين الذين هم أركان التصوف ورجاله، أردت أن أنقل كلامهم عن الشريعة الإسلامية لنعرف موقفهم الحقيقي، لأنَّ الواجب أن نعرف الشخص عن الشخص نفسه، فالإنسان هو خير من يتَحدَّثُ عن رأيه، وأوثق من يُظهر ما يُضمر.

قال الإمام الجنيد رضي الله عنه: الطُرُقُ كلها مسدودة عن الخلق إلّا من اقتفى أثر رسول الله ﷺ، واتبع سنته ولزم طريقته؛ لأنَّ طُرُقَ الخيرات كلها مفتوحة عليه، وعلى المقتفين أثره والمتابعين.

وجاء أنَّ أبا يزيد البسطامي ـ قُدِّس سِرُّه ـ قال ذات يوم لأصحابه: قوموا بنا حتى ننظر إلى ذلك الذي قد شَهَر نفسه بالولاية، قال: فمضينا فإذا بالرجل قد قصد المسجد، فَرمىٰ بُزاقَه نحو القِبلةَ، فانصرف أبو يزيد ولم يُسلِّم عليه، وقال: هذا ليس بمأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ، فكيف يكون مأمونًا على ما يدَّعيه من مقامات الأولياء والصدِّيقين.

قال ذو النون المصري: مدار الكلام أربع: حُبُّ الجليل، وَبُغضُ القليل، واتباع التنزيل، وخوف التحويل. من علامات المحب لله عز وجل: متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله، وأوامره وسنته.

قال السَّرِيُّ السَّقَطي: التصوف اسم لثلاثة معانٍ: وهو الذي لا يطفئ نورُ معرفته نورَ ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسُّنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله.

قال أبو نصر بشر بن الحارث الحافي: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقال لي: «يا بِشر! أتدري لِمَ رفعك الله من بين أقرانك؟» قلت: لا يا رسول الله! قال: «باتباعك لسنتي وخدمتك للصالحين، ونصيحتك لإخوانك ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي، هذا هو الذي بلغك منازل الأبرار».

قال أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي: لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفِيَنِي مؤنة الأكل، ومؤنة النساء، ثم قلت: كيف يجوز لي أن أسأل الله هذا، ولم يسأله رسول الله ﷺ إياه؟، فلم أسأله.

ثم إنَّ الله سبحانه وتعالى كفاني مؤنة النساء حتى لا أبالي استقبلتني امرأة أو حائط.

وقال أيضًا: لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة.

قال أبو سليمان عبد الرحمٰن بن عطية الداراني: ربما وقع في قلبي النكتة من نكت القوم أيامًا، فلا أقبل منه إلَّا بشاهدين عادلين: الكتاب والسُّنة، وقوله: «منه» أي من قلبي.

قال أبو الحسن أحمد بن أبي الحواري: من عمل عملًا بلا اتباع سُنَةِ رسول الله ﷺ، فهو باطل.

قال أبو حفص عمر بن مسلمة الحداد: من لم يزن أفعاله وأقواله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسُّنة، ولم يَتَّهِم خواطره، فلا تَعُدّهُ في ديوان الرجال.

قال أبو القاسم الجنيد بن محمد: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث، لا يُقْتَدَى به في هذا الأمر؛ لأنَّ عِلْمنا مُقيدٌ بالكتاب والسُّنة.

وقال أيضًا: مذهبنا هذا مُقيدٌ بأصول الكتاب والسُّنة، وَعِلْمُنا هذا مُشيّدٌ بحديث رسول الله ﷺ.

ولما تغيّر على أبي عثمان سعيد بن إسماعيل الحِيري الحال، مزّق ابنه أبو بكر قميصًا له على نفسه، ففتح أبو عثمان عينيه حين إفاقته من الغشية، فرأىٰ ثوبه مقطعًا فقال له: خلاف السُّنة - يا بني! - في الظاهر؛ علامة رياءٍ في الباطن.

وقال أيضًا: الصُّحبة مع الله بحسن الأدب، ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع الرسول ﷺ باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم، والصُّحبة مع

أولياء الله تعالى بالاحترام والخدمة، والصُّحبة مع الأهل بحسن الخلق، والصُّحبة مع الإخوان بدوام البِشْرِ ما لم يكن إثمًا، والصُّحبة مع الجهال بالدعاء والرحمة.

وقال أيضًا: من أمَّر السُّنة على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالبدعة، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤].

قال أبو الحسن أحمد بن محمد النُّوري: من رأيته يدّعي مع الله حالة تخرجه عن حدِّ العلم الشرعي، فلا تقربن منه فإنه مبتدع.

قال أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني: من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وَعَمر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السُّنة، وَعوّدَ نفسه أكل الحلال؛ لم تخطئ له فراسة.

قال أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي: من ألزم نفسه آداب الشريعة؛ نوَّر الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ في أوامره، وأفعاله، وأخلاقه.

وقال أيضًا: كل ما سُئِلْتَ عنه فاطلبه في مفازة العلم، فإن لم تجده، ففي ميدان الحكمة، فإن لم تجده فَزِنهُ بالتوحيد، فإن لم تجده في هذه المواضع الثلاثة، فاضرب به وجه الشيطان.

قال أبو حمزة البغدادي البزار: من عَلِمَ طريق الحق تعالى؛ سَهُلَ عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى؛ إلَّا متابعة الرسول ﷺ في أحواله، وأفعاله، وأقواله.

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن داود الرقّي: علامة محبة الله: إيثار طاعته، ومتابعة نبيه ﷺ.

قال ممشاد الدينوري: أدبُ المريد في التزام حرمات المشايخ، وخدمة الإخوان، والخروج عن الأسباب، وحفظ آداب الشرع على نفسه.

قال أبو محمد عبد الله بن منازل: لم يُضَيِّع أَحدٌ فريضة من الفرائض إلَّا

ابتلاه الله تعالى بتضييع السنن، ولم يُبْتَلَ أحد بتضييع السنن إلَّا أوشك أن يُبتلىٰ بالبدع[١].

حَقِيقةُ الأشَاعِرة

يجهل كثير من أبناء المسلمين مذهب الأشاعرة، ولا يعرفون من هم الأشاعرة، ولا طريقتهم في أمر العقيدة، ولا يتورع البعض أن ينسبهم إلى الضلال، أو يرميهم بالمروق من الدين والإلحاد في صفات الله.

وهذا الجهل بمذهب الأشاعرة سبب تمزق وحدة (أهل السُّنة) وتشتيت شملهم، حتى غدا بعض الجهلة يجعل الأشاعرة ضمن طوائف أهل الضلال، ولست أدري كيف يقرن بين أهل الإيمان وأهل الضلال؟ وكيف يساوي بين أهل السُّنة وبين غلاة المعتزلة أو الجهمية؟.

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

الأشاعرة: هم أئمة أعلام الهدى من علماء المسلمين، الذين ملأ علمهم مشارق الأرض ومغاربها، وأطبق الناس على فضلهم وعلمهم ودينهم. هم جهابذة علماء أهل السُّنة، وأعلام علمائها الأفاضل الذين وقفوا في وجه طغيان المعتزلة.

هم الذين قال عنهم الشيخ أبو محمد كما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى»: «والعلماء أنصار علوم الدين، والأشاعرة أنصار أصول الدين»[٢].

إنهم طوائف المُحدِّثين والفقهاء والمفسرين من الأئمة الأعلام؛ كشيخ الإسلام أحمد ابن حجر العسقلاني شيخ المحدثين بلا مِرَاء، صاحب كتاب «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، أشعري المذهب، وكتابه لا يستغني عنه أحد من العلماء.

---

(١) هذا، وقد ألّف العلّامة الفاضل الشيخ عبد الحفيظ المكّي رسالة قيّمة، وهي: «موقف أئمة الحركة السلفية من التصوّف والصوفية»، جمع فيها أقوال وآراء: الإمام أحمد بن حنبل، والشيخ ابن تيمية، وابن القيّم، والذهبي، وابن كثير، وابن رجب، ومحمد بن عبد الوهاب، وموقفهم المؤيّد للتصوّف، ومدحهم وثناءهم على مشايخ السادة الصوفية.

(٢) «الفتاوى»، ٤: ١٦.

وشيخ علماء أهل السُّنة الإمام النووي ـ صاحب «شرح صحيح مسلم»، وصاحب المصنفات الشهيرة، أشعري المذهب.

وشيخ المفسرين الإمام القرطبي صاحب تفسير «الجامع لأحكام القرآن»، أشعري المذهب.

وشيخ الإسلام ابن حجر الهيتمي صاحب كتاب «الزواجر عن اقتراف الكبائر»، أشعري المذهب.

وشيخ الفقه والحديث الإمام الحُجّة الثَّبت زكريا الأنصاري، أشعري المذهب.

والإمام أبو بكر الباقلاني، والإمام القسطلاني، والإمام النسفي، والإمام الشربيني، وأبو حيان النحوي صاحب تفسير «البحر المحيط»، والإمام ابن جُزَي صاحب «التسهيل في علوم التنزيل» إلخ... كل هؤلاء من أئمة الأشاعرة.

ولو أردنا أن نُعَدّد هؤلاء الأعلام من المحدثين والمفسرين والفقهاء، من أئمة الأشاعرة، لضاق بنا الحال واحتجنا إلى مجلدات في سرد أولئك العلماء الأفاضل الذين ملأ علمهم مشارق الأرض ومغاربها. إنَّ من الواجب أن نردّ الجميل لأصحابه، وأن نعرف الفضل لأهل العلم والفضل، الذين خدموا شريعة سيد المرسلين ﷺ من العلماء الأعلام.

وأي خير يرجى فينا إن رمينا علماءنا الأعلام وأسلافنا الصالحين بالزيغ والضلال؟

وكيف يفتح الله علينا لنستفيد من علومهم، إذا كنا نعتقد فيهم الانحراف والزيغ عن طريق الإسلام؟

إنني أقول: هل يوجد بين علماء العصر من (الدكاترة) والعباقرة من يقوم بما قام به شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني، والإمام النووي من خدمة السنة النبوية المطهرة، ويفعل كما فعل هذان الإمامان الجليلان تغمدهما الله بالرحمة والرضوان؟

فكيف نرميهما وسائر الأشاعرة بالضلالة؛ ونحن بحاجة إلى علوم هؤلاء؟!

وكيف نأخذ العلوم عنهم إذا كانوا على ضلال، وقد قال الإمام ابن سيرين رحمه الله: إنَّ هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم؟

أفما كان يكفي أن يقول المعارض: إنهم ـ رحمهم الله ـ اجتهدوا فأخطأوا في تأويل الصفات، وكان الأولى أن لا يسلكوا هذا المسلك، بدل أن يرميهم بالزيغ والضلال، ويغضب على من عَدّهُم من أهل السُّنة والجماعة؟

وإذا لم يكن: الإمام النووي والعسقلاني والقرطبي والباقلاني والفخر الرازي والهيتمي وزكريا الأنصاري، وغيرهم من جهابذة العلماء، وفطاحل النبغاء، إذا لم يكونوا من أهل السُّنة والجماعة، فمن هم أهل السنة إذن؟!

إنني أدعو مخلصًا كل الدعاة، وكل العاملين في حقل الدعوة الإسلامية أن يتقوا الله في أمة محمد ﷺ، وبخاصة في أَجِلَّة علمائها وأخيار فقهائها، فأمة محمد ﷺ بخير إلى قيام الساعة، ولا خير فينا إذا لم نعرف لعلمائنا قدرهم وفضلهم[١].

حَقَائِقُ تَمُوتُ بالبَحث

يجري البحث بين العلماء في حقائق كثيرة من مسائل العقيدة مما لم يُكَلِّفْنا به الله تعالى، وأنا أرىٰ أنَّ ذلك البحث يُذهب بَهاء تلك الحقائق وجلالها، ومن ذلك مثلًا اختلاف العلماء في رؤية النبي ﷺ لله سبحانه وتعالى، وكيف كانت، والخلاف الطويل العريض الدائر بينهم في ذلك الباب؛ **فمن قائل**: رآه بقلبه، **ومن قائل**: رآه بعينه، وكلٌّ يورد دليله ويستنصر له بما لا طائل تحته. **والذي أراه**: أنَّ كل ذلك عبث لا فائدة فيه، بل ضرره أكبر من نفعه؛ خصوصًا إذا سمع العوام هذا فإنه يُدخل التشكيك في قلوبهم لا محالة، ولو أننا ألغينا البحث عن هذا واكتفينا بإيراد هذه الحقيقة كما جاءت، لبقيت مكرمة معظمة في النفوس **بأن نقول**: إنه ﷺ رأى ربه، ونقتصر على هذه الحقيقة، ونترك الباقي له هو.

وَكلّمَ الله موسى تَكْلِيمًا:

ومن ذلك أيضًا: ما يجري بين العلماء من البحث في حقيقة كلام الله

---

(١) انظر ما كتبه شيخنا العلامة الشيخ محمد علي الصابوني في مسألة الأشاعرة من بحوث طويلة ومهمة.

تعالى والخلاف الكبير الدائر في هذا الباب؛ **فمن قائل**: إن كلامه سبحانه وتعالى كلام نفسي، **ومن قائل**: إن كلامه سبحانه وتعالى بحرف وصوت. **وأنا أعتقد** أنَّ كِلَا الطرفين يطلب حقيقة التنزيه لله سبحانه وتعالى، ويبعد عن الشرك بكل أنواعه.

ومسألة الكلام حقيقة ثابتة لا مجال لإنكارها؛ إذ هو لا ينافي الكمال الإلهي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنَّ صفاتِهِ سبحانه وتعالى الواردة في القرآن يجب الإيمان بها وإثباتها؛ لأنه لا يَعرفُ اللَّهَ إلَّا اللَّهُ.

والذي أراه وأدعو إليه: هو إثبات هذه الحقيقة دون الغوص في كيفيتها وشكلها، فنثبت لله سبحانه وتعالى الكلام ونقول: هذا كلام الله، ونقول: إنه سبحانه وتعالى متكلم، ونصرف النظر عما بعد ذلك من كونه كلامًا نفسيًّا أو غير نفسي، بحرف وصوت، أو بلا حرف ولا صوت، وكل هذا تَنَطُّع لم يتكلَّم فيه الذي جاء بالتوحيد؛ وهو المصطفى ﷺ، فَلِمَ الزيادة على ما جاء به؟ أليست هذه من البدع؟ سبحانك هذا بهتان عظيم!.

هو ﷺ يُحَدِّثنا عنه يوم نجتمع به عند الله سبحانه وتعالى، نحن ندعو إلى أن يكون حديثنا دائمًا عن هذه الحقيقة وأمثالها مجردًا عن الغوص في كيفياتها وصورها وأشكالها.

إنِّي أَراكُم من خَلْفي:

ومن ذلك أيضًا: ما يجري بين العلماء من البحث في حقيقة قوله ﷺ: «**إني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي**»، **فمن قائل**: إنَّ الله تعالى يجعل لنبيه ﷺ عينين من الخلف، **ومن قائل**: إنَّ الله سبحانه وتعالى يجعل لِعَيْنَيْهِ الأمامِيَّتَيْن قوة نفاذة تريان بها ما خلفهما، **ومن قائل**: إنَّ الله سبحانه وتعالى يعكس له صلى الله عليه وآله وسلم ما خلفه حتى تكون صورته أمامه بين عينيه. **وكل هذا** تَنَطُّع يُخرج هذه الحقيقة عن جمالها ورونقها، ويضعف هيبتها وجلالها في القلوب.

أما كونه ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه؛ فهي حقيقة ثابتة أخبر بها

بنفسه فيما صح عنه فلا مجال لإنكارها، ولكن الذي ندعو إليه ونراه هو: أن نُثبتَ هذه الحقيقة هكذا مجردة كما وردت، دون الدخول في كيفيتها وشكلها، ويجب علينا أن نعتقد إمكان ذلك. وثمرته أن نشهد بخارق من الخوارق التي تضمحل عندها الأسباب وتتلاشى، لتظهر قدرة الواحد القهار، ومنقبة النبي المختار ﷺ.

جِبريلُ يَتمثَّلُ رَجُلاً:

ومن ذلك أيضًا: اختلاف العلماء في كيفية تَشَكُّل جبريل عليه السلام إذا جاء بالوحي على صورة رجل مع هَولِ خلقه، **فمن قائل**: إنَّ الله يفني الزائد من خلقه، **ومن قائل**: إنه ينضم بعضه إلى بعض حتى يصير صغيرًا.

والذي أراه: أنَّ كلَّ ذلك عبث، وأنَّ البحث فيه تَعبٌ لا فائدة منه، **فنحن نعتقد**: أنَّ الله سبحانه وتعالى قادر على ذلك، وأنَّ هذا واقع ومشاهد، فقد رآه كثير من الصحابة على تلك الصورة، ونحن لا يهمنا معرفة الطريقة التي يتم بها تَمثُّلُ المَلَكِ بصورة رجل، وندعو إخواننا من طلاب العلم إلى إيراد هذه الحقيقة دون التعرض لما وراءها من خلافات، لتبقى جليلة عظيمة في النفوس.

مَفهُومُ التَّوسُل

يخطئ كثير من الناس في فهم حقيقة التوسل، ولذا فإننا سنبين مفهوم التوسل الصحيح في نظرنا، وقبل ذلك لا بُدَّ أن نُبينَ هذه الحقائق:

أولًا: أنَّ التَّوسُّلَ هو أحد طُرُقِ الدعاء؛ وبَابٌ من أبواب التوجه إلى الله سبحانه وتعالى، فالمقصود الأصلي الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى، والمتوسَّل به إنما هو واسطة ووسيلة للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، ومن اعتقد غير ذلك فقد أشرك.

ثانيًا: أنَّ المُتوسِّل ما توسَّل بهذه الواسطة إلَّا لمحبته لها واعتقاده أنَّ الله سبحانه وتعالى يحبها، ولو ظهر خلاف ذلك؛ لكان أبعد الناس عنها وأشد الناس كراهة لها.

ثالثًا: أنَّ المتوسِّل لو اعتقد أنَّ من تَوسّلَ به إلى الله ينفع ويضر بنفسه مثل الله أو دونه، فقد أشرك.

رابعًا: أنَّ التَّوسُّلَ ليس أمرًا لازمًا أو ضروريًا، وليست الإجابة متوقفة عليه، بل الأصل دعاء الله تعالى مطلقًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وكما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

المُتَّفقُ عليه مِن التَّوسُّل

لم يختلف أحدٌ من المسلمين في مشروعية التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بالأعمال الصالحة، فمن صام أو صلى أو قرأ القرآن أو تصدق؛ فإنه يتوسّل بصيامه وصلاته وقراءته وصدقته، بل هو أرجى في القبول وأعظم في نيل المطلوب، لا يختلف في ذلك اثنان، **والدليل على هذا**: حديث الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار، فتوسل أحدهم إلى الله ببِرِّه لوالدَيْه، وتوسل الثاني بابتعاده عن الفاحشة بعد تمكنه من أسبابها، وتوسل الثالث بأمانته وحفظه لمال غيره وأدائه له كاملًا، وفَرَّجَ الله عنهم ما هم فيه، وهذا النوع من التوسل قد فَصَّله وبَيَّن أدلته وحقق مسائله الشيخ ابن تيمية رحمه الله في كتبه وخصوصًا في رسالته: «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة».

مَحَلُّ الخِلاَف:

ومخل الخلاف في مسألة التَّوسُّل: هو التَّوسُّل بغير عمل المُتَوسِّل؛ كالتوسل بالذوات والأشخاص، بأن يقول: اللهم إني أتوسل إليك بنبيك محمد ﷺ، أو أتوسل إليك بأبي بكر الصديق، أو بعمر بن الخطاب أو بعثمان، أو بعلي رضي الله عنهم، فهذا هو الممنوع عند بعضهم.

ونحن نرى: أن الخلاف شكلي وليس بجوهري؛ لأنَّ التوسل بالذات يرجع في الحقيقة إلى توسل الإنسان بعمله؛ وهو المتفق على جوازه، ولو نظر المانع المُتَعنِّتُ في المسألة بعين البصيرة، لانجلى له الأمر وانحل الإشكال وزالت الفتنة التي وقع بسببها مَنْ وقع، فحكم على المسلمين بالشرك والضلال.

وَسأُبيّن كيف أنَّ المتوسل بغيره؛ هو في الحقيقة مُتَوسِّلٌ بعمله المنسوب إليه، والذي هو من كسبه. **فأقول**: اعلم أنَّ من توسل بشخص ما، فهو لأنه يحبه إذ يعتقد صلاحه وولايته وفضله تحسينًا للظن به، أو لأنه يعتقد أنَّ هذا الشخص مُحِبّ لله سبحانه وتعالى يجاهد في سبيله، أو لأنه يعتقد أنَّ الله تعالى يحبه كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، أو لاعتقاد هذه الأمور كلها في الشخص المُتوسَّلِ به.

وإذا تدبرت الأمر وجدت أنَّ هذه المحبة وذلك الاعتقاد من عمل المتوسل؛ لأنه اعتقاده الذي انعقد عليه قلبه، فهو منسوب إليه ومسؤول عنه ومثاب عليه، وكأنه يقول: يا رب، إني أحب فلانًا وأعتقد أنه يُحِبُّكَ، وهو مخلص لك ويجاهد في سبيلك، وأعتقد أنك تحبه وأنت راضٍ عنه، فأتوسل إليك بمحبتي له وباعتقادي فيه أن تفعل كذا وكذا. ولكن أكثر المتوسلين يتسامحون في التصريح بهذا الأمر، مكتفين بعلم من لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

فمن قال: اللهم إني أَتوسَّلُ إليك بنبيك، هو ومن قال: اللهم إني أتوسل إليك بمحبتي لنبيك، سواء؛ لأنَّ الأول ما أقدم على هذا إلَّا لمحبته وإيمانه بنبيه، ولولا المحبة له والإيمان به ما توسل به، وهكذا يقال في حق غيره من أولياء الأمة.

وبهذا ظهر أنَّ الخلاف في الحقيقة شكلي ولا يقتضي هذا التفرق والعداء بالحكم بالكفر على المتوسلين وإخراجهم عن دائرة الإسلام، ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

أَدِلّةُ ما عَليهِ المُسلِمُونَ من التَّوسُّل

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]. **والوسيلة**: كل ما جعله الله سببًا في الزلفى عنده، وَوُصْلَةً إلى قضاء الحوائج منه. والمدار فيها على أن يكون للوسيلة قَدْرٌ وحُرْمَةٌ عند المتوسَّل إليه.

ولفظ الوسيلة عَامٌّ في الآية كما ترى؛ فهو شامل للتوسل بالذوات الفاضلة من الأنبياء والصالحين في الحياة وبعد الممات، وبالإتيان بالأعمال الصالحة على الوجه المأمور به، وللتوسل بها بعد وقوعها.

وفيما ستسمع من الأحاديث والآثار، ما يجلي لك هذا العموم واضحًا، فألقِ السمع وأنت شهيد؛ لترى أنه قد ثبت التوسل به ﷺ قبل وجوده وبعده في الدنيا، وبعد موته في مدة البرزخ، وبعد البعث في عرصات القيامة.

التَّوسّلُ بالنبي ﷺ قَبلَ وُجُودِهِ

تَوسّلُ آدم به ﷺ:

وقد جاء في الحديث: أنَّ آدم توسل بالنبي ﷺ؛ قال الحاكم في «المستدرك»: حدثنا أبو سعيد عمرو بن محمد بن منصور العدل، حدثنا أبو الحسن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، حدثنا أبو الحارث عبد الله بن مسلم الفهري، حدثنا إسماعيل بن مسلمة، أنبأنا عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جده، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب! أسألك بحق محمد لما غفرت لي. فقال الله: يا آدم! وكيف عرفت محمدًا ولم أخلقه؟ قال: يا رب! لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فِيَّ من روحك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبًا: لا إله إلَّا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلَّا أحبَّ الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إليَّ، ادعني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك»**.

أخرجه الحاكم في «المستدرك» وصححه (٢: ٦١٥)[١]، ورواه الحافظ

(١) أخرجه الحاكم وصححه؛ إذ قال: هذا حديث صحيح الإسناد، وقوله صحيح الإسناد يفيد تصحيحه له، وذلك من وجوه:

الأول: أنه ذكره في كتابه المستدرك الذي شرط فيه أن يخرج الصحيح، فكل ما فيه صحيح على شرطه، وحينئذ يجوز للناقل أن يقول عنه: (صححه الحاكم).

الثاني: أن المقرر في علم أصول الحديث هو أن الحافظ المعتمد إذا حكم على السند=

السيوطي في «الخصائص النبوية» وصححه[١]، ورواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥: ٤٨٩) وهو لا يروي الموضوعات كما صرح بذلك في مقدمة كتابه[٢]، وصححه أيضًا: القسطلاني، والزرقاني في «شرح المواهب اللدنية»[٣]،

= بالصحة فإنه يجوز إطلاق ذلك على المتن، وإن كان لا تلازم بين الأمرين.
قال العراقي في «الألفية»:

والحكم للإسناد بالصحة أو بالحسن دون الحكم للمتن رأوا
واقبله إن أطلقه من يعتمد ولم يعقبه بضعفٍ ينتقد

وقال الحافظ السيوطي في «ألفيته»:

والحكم بالصحة للإسناد والحسن دون المتن للنقاد
لعلة أو لشذوذ واحكمِ للمتن إن أطلق ذو حفظ نمي

وقال في «طلعة الأنوار»:

واقبل لإطلاق لصحة السند أو حسنه إن كان ممن يعتمد

الثالث: أن العلماء الذين نقلوا الحديث عن الحاكم قالوا: صححه الحاكم، كالقسطلاني والزرقاني والسبكي، فهي طريقة مستعملة في منهج كثير من المحدثين.

(١) ذكر السيوطي الحديث في تفسيره «الدر المنثور» وفي «الخصائص»، وفي كتابه «الرياض الأنيقة في شرح أسماء خير الخليقة صلى الله عليه وسلم» ص: ٤٩، وقال: أخرجه الحاكم في «المستدرك» وصححه، والبيهقي في «دلائل النبوة»، وقال: تفرد به عبد الرحمٰن وهو ضعيف، ونقل شاهدًا له في الخصائص عن ابن عباس، وقال: أخرجه الحاكم وصححه.
أما قوله في «مناهل الصفا»: ضعيف، أي من طريق ابن عمر، كما صرَّح بذلك بقوله: «رواه عن ابن عمر بسند ضعيف». والحاصل: أنَّ الحديث صحيح عنده بشواهده وطرقه.

(٢) وقال بعد روايته له: «تفرد به عبد الرحمن بن زيد، وهو ضعيف».
لم ينقل صاحب «المفاهيم» نص كلامه هذا في الأصل من قبل اكتفاء بالخلاصة التي ذكرها فيما بعد، وذكر فيها اختلاف الأقوال في درجة الحديث، فأغنت عن كل قول، ودفعت ما قد يقع من سوء الظن في النقل.

(٣) صححه القسطلاني في عدة مواطن من كتابه «المواهب»،آخرها ٢: ٣٩٢ طبعة دار الكتب العلمية، وبهذا ظهر خطأ من زعم أن القسطلاني لم يصححه.
أما الزرقاني فقد صححه في كتابه «شرح المواهب» من عدة وجوه منها:
عند قول مالك لأبي جعفر لما سأله عن استقبال القبر حال الدعاء: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم؟ قال الزرقاني: رواه القاضي عياض في «الشفا» بإسناد لا بأس به، بل قيل: إنه صحيح ج٨ ص٣١٤، ومقصوده بهذا حديث =

والسبكي في «شفاء السقام»، قال الحافظ الهيثمي: رواه الطبراني في «الأوسط» و«الصغير»، وفيه من لم أعرفهم[١].

وجاء من طريق آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: **«فلولا محمد ما خلقت آدم، ولولا محمد ما خلقت الجنة ولا النار»**[٢].

وقد خالف في ذلك بعض العلماء، فتكلّم في درجة الحديث وَردّهُ وحكم بوضعه كالذهبي وغيره، وبعضهم حكم بضعفه، وبعضهم حكم بنكارته، وبهذا يظهر أنه لم تتفق كلمتهم على حُكْمٍ واحد، وعليه فالمسألة يدور البحث فيها بين الإثبات والنفي، والرد والقبول والتوقف؛ بِناءً على اختلافهم في درجة الحديث[٣].

وهذا من ناحية السند وثبوت الحديث، أما من ناحية المعنى؛ فلنترك المجال لشيخ الإسلام ابن تيمية لِيُحدِّثنا عنه.

= توسل آدم المذكور هنا.

وانظر قول الزرقاني أيضًا معلقًا على حديث ابن عباس، ـ وهو شاهد قوي ـ: صححه الحاكم وأقره السبكي في «شفاء السقام»، والبلقيني في «فتاويه»، ومثله لا يقال رأيًا، فحكمه الرفع ١: ٤٤.

وهناك مواطن أخرى شاهدة على ذلك، وهو رأي الزرقاني أولًا وأخيرًا الذي أيده في كتبه ودعا إليه.

(١) الهيثمي؛ «مجمع الزوائد»، ٨: ٢٥٣.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك»، ٢: ٦١٥، وقال: صحيح الإسناد، وصححه شيخ الإسلام البلقيني في «فتاويه»، وأورده أيضًا الشيخ ابن الجوزي في «الوفا» في أول كتابه، ونقله ابن كثير في «البداية» ١: ٨١.

(٣) هذه الخلاصة المفيدة جمعت وشملت البحث من أطرافه، وأعطت الحكم الصحيح البعيد عن كلِّ هوىً وعصبية، وقد جانب الحق بعض من كتب في هذا الموضوع، فلم يلتفت لهذه الخلاصة التي دَلّت على إنصاف صاحب «المفاهيم» وأمانته العلمية، وَبُعدِه عن كلِّ تلبيس وتدليس، إذ بَيّن أنَّ الحديث مُختلفٌ فيه، وأثبت هذا الاختلاف بكل صراحة وإتقان، وهو بهذا يدفع قول الذين راحوا يتكلمون في رجال الحديث وأسانيده، ليوهموا القراء بأنَّ مؤلف «المفاهيم» أهمل كلّ ذلك ليلبّس ويدلّس على الناس، ويصل إلى القول بصحة الحديث باتفاق، وللمؤلف بحث واسع ودراسة عميقة عن هذا الحديث، فجزاه الله خير الجزاء عن الإسلام وأهله.

شَواهِدُ لحَديثِ تَوسُّل آدم عليه السلام

ذكر ابن تيمية حديثين في هذا الموضوع وأوردهما مُستَشْهِدًا بهما، فقال: رَوىٰ أبو الفرج ابن الجوزي بسنده إلى ميسرة قال: قلت: يا رسول الله! متى كنتَ نبيًّا؟ قال: «**لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات، وخلق العرش، كتب على ساق العرش: محمد رسول الله خاتم الأنبياء، وخلق الله الجنة التي أسكنها آدم وحواء فكتب اسمي على الأبواب والأوراق والقباب والخيام، وآدم بين الروح والجسد، فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمي فأخبره الله: أنه سيد ولدك، فلما غرّهما الشيطان تابا واستشفعا باسمي إليه**».

وَروىٰ أبو نعيم الحافظ في كتاب «دلائل النبوة» ومن طريق الشيخ أبي الفرج، حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن رشدين، حدثنا أحمد بن سعيد الفهري، حدثنا عبد الله بن إسماعيل المدني، عن عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما أصاب آدم الخطيئة رفع رأسه فقال: يا رب! بحق محمد إلَّا غفرت لي، فأوحىٰ إليه، وما محمد ومن محمد؟ فقال: يا رب! إنك لما أتممت خلقي رفعت رأسي إلى عرشك، فإذا عليه مكتوب: لا إله إلَّا الله محمد رسول الله، فعلمت أنه أكرم خلقك عليك إذ قرنت اسمه مع اسمك، فقال: نعم، قد غفرت لك، وهو آخر الأنبياء من ذريتك، ولولاه ما خلقتك**».

فهذا الحديث يُؤَيِّدُ الذي قبله، وهما كالتفسير للأحاديث الصحيحة. اهـ(١).

قلت: فهذا يدل على أنَّ الحديث عند ابن تيمية صالح للاستشهاد والاعتبار؛ لأنَّ الموضوع أو الباطل لا يُستَشهَدُ به عند المُحدِّثين، وأنت ترى أنَّ الشيخ استشهد به هنا على التفسير(٢).

---

(١) الفتاوى، ٢: ١٥٠.

(٢) يكابر البعض في هذه المسألة وينكر صحة هذا الاستظهار عن ابن تيمية، ويقول: إن ابن تيمية يقول: بأن الحديث موضوع. وهذا قد يكون صحيحًا، لكن ابن تيمية هنا في =

تَصحِيحُ ابن تيمية لمعنى هذه الخُصُوصِية

تَكلّم الشيخ ابن تيمية عن هذه المسألة كلامًا جيدًا نفيسًا يدل على عقل وبصيرة واتزان كبير، فهو وإن كان قد نفى وجود حَديثٍ عن النبي ﷺ في هذا المعنى ـ وهذا حسب علمه في ذلك الوقت ـ، إلَّا أنه رجع فأيّد المعنى وفَسّرهُ تفسيرًا معقولًا وأثبت فيه صحة القول، وهو بهذا يرد ردًّا واضحًا على من زعم أنَّ ذلك شرك أو كفر، وعلى من زعم أنَّ المعنى فاسد وباطل، وعلى من زعم أنَّ فيه قدحًا في مقام التوحيد والتنزيه، وما هو إلَّا الهَوىٰ والعَمىٰ وسوء الفهم وضيق العقل، فالله ينور بصائرنا ويرشدنا إلى الحق والصواب، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

قال الشيخ الإمام ابن تيمية في «الفتاوى» ١١ : ٩٦ :

«ومحمد سيد ولد آدم وأفضل الخلق وأكرمهم عليه، ومن هنا قال من قال: إنَّ الله خلق من أجله العالم، أو إنه لولاه لما خلق عرشًا ولا كرسيًّا ولا سماء ولا أرضًا ولا شمسًا ولا قمرًا، لكن ليس هذا حديثًا عن النبي ﷺ؛ لا صحيحًا ولا ضعيفًا، ولم ينقله أحدٌ من أهل العلم بالحديث عن النبي ﷺ، بل ولا يُعرَفُ عن الصحابة، بل هو كلام لا يُدرىٰ قائله، ويمكن أن يُفَسّر بوجه

= هذا الموطن أورد الحديثين واستشهد بهما وفسر بهما الأحاديث الصحيحة، وأيد بهما كلامه وصرح بذلك، فهل يجهل شيخ الإسلام، وهو المحدث المتقن العارف بأصول الحديث، أن الحديث الباطل أو الموضوع لا يجوز الاستشهاد به، ولا يصلح أن يكون مفسرًا ولا متابعًا، ولا شاهدًا، حتى ولو ساقه بسنده، سبحانك هذا بهتان عظيم.

وراح بعضهم يلتمس التأويلات الباطلة لهذا الصنيع، وهي كلها باردة لا يقولها طالب علم منصف.

والحق: أن من استشهد بحديث في أي موطن أو أي مناسبة، فهو دليل على أنه صالح لذلك، ويترتب عليه أنه ليس بمنكر ولا واه بمرَّة، فإذا قال بوضعه في موطن آخر؛ فهو إما تناقض أو تغير في الاجتهاد، فإن كان التناقض فيسقط القولان، وإن كان هو التغير في الاجتهاد، فليس أحد القولين بأولى من الآخر، إذ لا يعلم المتقدم من المتأخر.

والذي يهمنا هنا أن ما استظهره المؤلف من كلام ابن تيمية صحيح لا غبار عليه، وما بقي بعد ذلك من التناقض؛ فليبحث عن جوابه.

صحيح؛ كقوله تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤]، وأمثال ذلك من الآيات التي يُبَيِّنُ فيها أنه خلق المخلوقات لبني آدم، ومعلوم أنَّ لله فيها حِكمًا عظيمة غير ذلك وأعظم من ذلك، ولكن يُبيِّنُ لبني آدم ما فيها من المنفعة وما أسبغ عليهم من النعمة.

فإذا قيل: فعل كذا لكذا، لم يقتض أن لا يكون فيه حِكمةٌ أخرى، وكذلك قول القائل: لولا كذا ما خلق كذا، لا يقتضي أن لا يكون فيه حِكَم أخرى عظيمة، بل يقتضي إذا كان أفضل صالحي بني آدم محمد، وكانت خلقته غاية مطلوبة وحكمة بالغة مقصودة أعظم من غيره؛ صار تمام الخلق ونهاية الكمال حصل بمحمد ﷺ». اهـ.

تَحليلٌ مُهِمٌّ لرأي ابن تيمية غَابَ عن عُقُولِ أتباعهِ

فانظر ـ هداك الله ـ إلى كلام الشيخ ابن تيمية وبُعد نظره، وسعة فهمه في تفسير هذه الخصوصية التي انتشرت واشتهرت، وجاء فيها حديث توسل آدم الذي رواه الحاكم والذي صَحّحهُ من صَحّحه، وحَسّنهُ من حَسّنه، وقبله من قبله ممن تَقدّم ذكرهم من أئمة الحديث.

وها هو الشيخ ابن تيمية هنا يقول: إنَّ هذا الكلام له وجه صحيح.

فأين هذا القول من قول من أقعد الدنيا وأقامها، وأخرج القائلين بذلك عن دائرة الإسلام، ووصفهم بالضلال والشرك، أو بالبدعة والتخريف، ثم يدّعي زورًا وبهتانًا أنه سَلفيٌّ تَيمِيٌّ، وهو بعيد كل البعد عن ابن تيمية، وعن السلفية؟! وليس هذا الصنيع منه في هذه المسألة فقط، بل الملاحظ أنه مع ابن تيمية في كل مسألة إلّا فيما فيه تعظيم الرسول ﷺ، أو تأييد كرامته وعظمته ومكانته، فإنه يتوقف فيها ويفكر وينظر، وهنا فقط تظهر عنده حماية مقام التوحيد أو حمية التوحيد، سبحانك هذا بهتان عظيم!!

الشَّاهدُ الثَّالث لحديث تَوسُّلِ آدم:

الشاهد الثالث لحديث توسل آدم: هو ما أخرجه ابن المنذر في «تفسيره» عن محمد بن علي بن حسين بن علي عليهم السلام قال: **«لما أصاب آدم الخطيئة عظم كربه واشتد ندمه فجاءه جبريل عليه السلام فقال: يا آدم! هل أدلك على باب توبتك الذي يتوب الله عليك منه؟ قال: بلى يا جبريل، قال: قم في مقامك الذي تناجي فيه ربك فَمجِّدهُ وامدح، فليس شيء أحب إلى الله من المدح، قال: فأقول ماذا يا جبريل؟ قال: فقل: لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير كله وهو على كل شيء قدير، ثم تَبُوءُ بخطيئتك فتقول: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلَّا أنت، رَبِّ إني ظلمت نفسي وعملت السوء فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلَّا أنت، اللهم إني أسألك بجاه محمد عبدك وكرامته عليك أن تغفر لي خطيئتي. قال: ففعل آدم، فقال الله: يا آدم! من علَّمك هذا؟ فقال: يا رب! إنك لما نفخت فيَّ الروح فقمت بشرًا سويًا أسمع وأبصر وأعقل وأنظر رأيت على ساق عرشك مكتوبًا: بسم الله الرحمٰن الرحيم، لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله، فلما لم أر على أثر اسمك اسم ملك مقرب، ولا نبي مرسل غير اسمه علمت أنه أكرم خلقك عليك، قال: صدقت، وقد تبت عليك وغفرت لك خطيئتك»**[1].

الشَّاهدُ الرَّابعُ لحديث تَوسُّل آدم:

الشاهد الرابع ما رواه أبو بكر الآجري في كتاب «الشريعة» (٢/ ٢٤٦) قال: حدثنا هارون بن يوسف التاجر، قال: حدثنا أبو مروان العثماني، قال: حدثني - أبي - عثمان بن خالد، عن عبد الرحمٰن بن أبي الزناد، عن أبيه قال: من الكلمات التي تاب الله بها على آدم قال: **«اللهم إني أسألك بحق محمد عليك، قال الله تعالى: يا آدم وما يدريك بمحمد؟ قال: يا رب! رفعت رأسي**

---

(١) السيوطي؛ «الدر المنثور»، ١: ٦٠. ومحمد بن علي بن الحسين، هو أبو جعفر الباقر، من ثقات التابعين وساداتهم، خرَّج له الستة، روى عن: جابر، وأبي سعيد، وابن عمر وغيرهم رضي الله عنهم.

فرأيت مكتوبًا على عرشك لا إله إلَّا الله محمد رسول الله، فعلمت أنه أكرم خلقك عليك».

فانضمام هذا الأثر إلى حديث عبد الرحمٰن بن زيد، يفيده قوة كما لا يخفى.

الجنةُ حَرامٌ على الأنبياء حتى يَدخُلَها محمد ﷺ:

ومن أمثال هذا التفضل الإلهي على حضرة النبي ﷺ: ما جاء في الحديث من كون الجنة حرامًا على الأنبياء حتى يدخلها نبينا محمد ﷺ.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: **«الجنة حُرِّمت على الأنبياء حتى أدخلها، وَحُرِّمت على الأمم حتى تدخلها أمتي»**[١].

ارتباطُ الكَونِ باسمه ﷺ:

ومن أمثال هذا التفضل الإلهي: ما جاء في الآثار من انتشار اسم محمد في الملأ الأعلى، قال كعب الأحبار: «إنَّ الله أنزل على آدم عصيًّا بعدد الأنبياء والمرسلين، ثم أقبل على ابنه شيث فقال: أي بُني، أنت خليفتي من بعدي فخذها بعمارة التقوى والعروة الوثقى، وكلّما ذكرت الله فاذكر إلى جنبه اسم محمد، فإني رأيت اسمه مكتوبًا على ساق العرش وأنا بين الروح والطين، ثم إني طفت السمٰوات فلم أرَ في السموات موضعًا إلَّا رأيت اسم محمد مكتوبًا عليه، وإنَّ ربي أسكنني الجنة فلم أرَ في الجنة قصرًا ولا غرفة إلَّا اسم محمد مكتوبًا عليه، ولقد رأيت اسم محمد مكتوبًا على نحور الحور العين، وعلى ورق قصب آجام الجنة، وعلى ورق شجرة طوبى، وعلى ورق سدرة المنتهى، وعلى أطراف الحجب وبين أعين الملائكة، فأكثر ذِكْرهُ فإنَّ الملائكة تذكره في كل ساعاتها». اهـ[٢].

قُلْتُ: وقد ذكر نحو هذا الخبر الشيخ ابن تيمية، فقال: «وقد رُوِيَ أنَّ الله كتب اسمه على العرش وعلى ما في الجنة من الأبواب والقباب والأوراق».

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط»، وقال الهيثمي: إسناده حسن. اهـ «مجمع الزوائد»، ١٠:٦٩.

(٢) القسطلاني؛ «المواهب اللدنية»، ١:١٨٦.

وَروىٰ في ذلك عدة آثار توافق هذه الأحاديث الثابتة التي تبين التنويه باسمه وإعلاء ذكره حينئذ.

وفي رواية لابن الجوزي عن ميسرة قال: قلت: يا رسول الله! متى كنت نبيًّا؟ قال: «**لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهنّ سبع سمٰوات وخلق العرش، كتب على ساق العرش: محمد رسول الله خاتم الأنبياء، وخلق الله الجنة التي أسكنها آدم وحواء، فكتب اسمي على الأبواب والأوراق والقباب والخيام وآدم بين الروح والجسد، فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمي، فأخبره الله أنه سيد ولدك، فلما غرّهما الشيطان تابا واستشفعا باسمي إليه**». اهـ[1].

فَوائِدُ مُهِمَّةٌ من حَديثِ تَوسُّلِ آدم:

وفي الحديث التوسل برسول الله ﷺ قبل أن يَتشرّفَ العالم بوجوده فيه، وأنَّ المدار في صحة التوسل على أن يكون للمتوسل به القدر الرفيع عند ربه عز وجل، وأنه لا يشترط كونه حيًّا في دار الدنيا.

ومنه يعلم: أنَّ القول بأنَّ التوسل لا يصح بأحد إلَّا وقت حياته في دار الدنيا؛ قول من اتبع هواه بغير هُدىً من الله.

حَاصِلُ البَحثِ في درجة الحديث:

والحاصل: أنَّ هذا الحديث صَحّحهُ بشواهده ونقله جماعة من فحول العلماء، وأئمة الحديث وحفاظه الذين لهم مقامهم المعروف ومكانتهم العالية وهم الأمناء على السُّنة النبوية، فمنهم: الحاكم، والسيوطي، والسبكي، والبلقيني.

ونقله البيهقي[2] في كتابه «دلائل النبوة» الذي شرط فيه أن لا يُخْرِجَ

---

(١) ابن تيمية؛ «الفتاوى» ٢: ١٥٠.

(٢) انظر كيف قال المؤلف (ونقله البيهقي في كتابه) ولم يقل: صححه، وهذا غاية الإنصاف، وكذلك قوله: ذكره ابن كثير في «البداية»، أضف إلى ذلك قوله فيما بعد ص١٧٣ عن ابن كثير: ولم يحكم بوضعها. فإن كل من له إلمام بالحديث واشتغال به يعرف معنى هذه الكلمة.

وهنا يتجلى تمام الإنصاف والأمانة حيث بين المؤلف أنَّ الحديث مختلف فيه، وهذا ما قرره مرات في هذه الصفحات، فليتنبه الجاهل.

الموضوعات، والذي قال فيه الذهبي: «عليك به فإنه كله هدى ونور»[(١)].

وذكره ابن كثير في «البداية»، واستشهد به ابن تيمية في «الفتاوى»، وكون العلماء اختلفوا فيه ـ فرده بعضهم وقبله البعض ـ ليس بغريب؛ لأنَّ كثيرًا من الأحاديث النبوية جرى فيه الخلاف بأكثر من هذا، وانتقده النقاد بأعظم من هذا.

وبسبب ذلك ظهرت هذه المؤلفات العظيمة، وفيها الاستدلالات والتعقبات والمراجعات والمؤاخذات، ولم يصل ذلك إلى الرمي بالشرك والكفر والضلال والخروج عن دائرة الإيمان؛ لأجل الاختلافات في درجة حديث من الأحاديث، وهذا الحديث من جملة تلك الأحاديث.

تَوسُّل اليهود به ﷺ

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ يعني اليهود ﴿كِتَٰبٌ﴾ يعني القرآن ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ﴾ نعت لكتاب، ويجوز في غير القرآن نصبه على الحال، وكذلك هو في مصحف أُبَيّ بالنصب فيما روي ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ يعني التوراة والإنجيل يخبرهم بما فيهما ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ﴾ أي يستنصرون، والاستفتاح: الاستنصار، استفتحت: استنصرت، وفي الحديث: كان النبي ﷺ يستفتح بصعاليك المهاجرين، أي: يستنصر بدعائهم وصلاتهم، ومنه: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٢]، والنصر: فتح شيء مغلق، فهو يرجع إلى قولهم: فتحت الباب.

وَروىٰ النسائي عن أبي سعيد الخدري أنَّ النبي ﷺ، قال: **«إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها؛ بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم»**.

---

(١) «شرح المواهب» (١/ ٦٢).

وَروىٰ النسائي أيضًا عن أبي الدرداء، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ابغوني الضعيف، فإنكم إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم**».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان، فلما التقوا هُزِمَتْ يهود فدعت يهود بهذا الدعاء، وقالوا: إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان؛ إلَّا أن تنصرنا عليهم. قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان، فلما بعث النبي ﷺ كفروا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي بك يا محمد، إلى قوله: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩][(١)].

التَّوسُّل بالنبي ﷺ في حَياتهِ وبعد وَفاتهِ

عن عثمان بن حُنيف رضي الله عنه قال: إنَّ رجلًا ضريرًا أتىٰ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ادع الله تعالىٰ أن يُعافيني، قال: «**إن شئت أخَّرتُ ذلك، وإن شئت دَعوتُ**» قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فَيُحسن الوضوء، ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: «**اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربك في حاجتي هذه فتقضيها لي، اللهم شفعه فِيَّ، وشفعني فيه**». قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[(٢)]. وقال الذهبي عن الحديث: إنه صحيح. وقال الترمذي في أبواب الدعوات آخر «السنن»: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه، من حديث أبي جعفر وهو غير الخطمي.

قُلْتُ: والصواب أنَّ أبا جعفر هو الخطمي المدني كما جاء مصرَّحًا به في

---

(١) القرطبي؛ «الجامع لأحكام القرآن» ٢: ٢٦ ـ ٢٧.

قول ابن عباس رضي الله عنهما هذا هو المشهور في كتب التفاسير المعتمدة، ونقله أئمة التفسير من المحدثين المعتبرين؛ كابن أبي حاتم والطبري والبغوي والألوسي والشوكاني ونقله ابن كثير في «البداية» دون اعتراض.

وهذه الرواية مقبولة في باب التفسير، وأسباب النزول، خصوصًا وأنه رواها البيهقي في «الدلائل»، وهو لا يروي الموضوعات كما نص على ذلك في المقدمة.

(٢) «المستدرك» ١: ٥١٩.

روايات الطبراني والحاكم والبيهقي، وزاد الطبراني في «المعجم الصغير» أنَّ اسمه عمير بن يزيد وأنه ثقة، قال العلامة المُحدِّث عبد الله ابن الصديق الغُماري في رسالته «إتحاف الأذكياء»: وليس من المعقول أن يُجْمعَ الحفاظ على تصحيح حديث في سنده مجهول، خصوصًا الذهبي والمنذري والحافظ.

قال المنذري: ورواه أيضًا النسائي، وابن ماجه، وابن خزيمة في «صحيحه»[(١)].

وليس هذا خاصًا بحياته ﷺ، بل قد استعمل بعض الصحابة هذه الصيغة من التوسل بعد وفاته ﷺ؛ فقد رَوىٰ الطبراني هذا الحديث وذكر في أوله قصة وهي: أنَّ رجلًا كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة له، وكان عثمان رضي الله عنه لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضأة فتوضأ، ثم ائت المسجد فَصلِّ فيه ركعتين ثم قل: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد! إني أتوجه بك إلى ربي فيقضي لي حاجتي»، وتذكر حاجتك. . .

فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة[(٢)] وقال: حاجتك؟ فذكر حاجته فقضاها له، ثم قال: ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة وقال: ما كانت لك من حاجة فأتنا. ثم إنَّ الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيرًا، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليَّ حتى كلمته فيَّ، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلمته، ولكن شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي ﷺ: **«أو تصبر؟»** فقال: يا رسول الله! ليس لي قائد، وقد شق عليَّ، فقال له النبي ﷺ:

---

(١) المنذري؛ «الترغيب والترهيب»، (كتاب النوافل)، باب «الترغيب في صلاة الحاجة»، ١: ٤٧٤.

(٢) الطنفسة: ـ مثلثة الطاء والفاء أيضًا، وقد تُفتح الطاء وتكسر الفاء ـ: اسم للبساط، وتطلق على حصير من سَعفٍ يكون عرضه ذراعًا.

«ائت الميضأة فتوضأ ثم صلّ ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات»، فقال عثمان بن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث، حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرٌّ قط.

قال المنذري: رواه الطبراني، وقال بعد ذكر طُرقه: «والحديث صحيح»[(١)].

وقال الشيخ ابن تيمية: قال الطبراني: رَوىٰ هذا الحديث شعبة، عن أبي جعفر ـ واسمه عمير بن يزيد ـ وهو ثقةٌ، تفرد به عثمان بن عمر، عن شعبة، قال أبو عبد الله المقدسي: «والحديث صحيح».

قُلْتُ: قال الشيخ ابن تيمية: «والطبراني ذكر تفرده بمبلغ علمه، ولم تبلغه رواية روح بن عبادة، عن شعبة، وذلك إسناد صحيح يبين أنه لم ينفرد به عثمان بن عمر». اهـ[(٢)].

وبهذا ظهر أنَّ هذه القصة صَحّحها الطبراني، والحافظ أبو عبد الله المقدسي، ونقل ذلك التصحيح الحافظ المنذري، والحافظ نور الدين الهيثمي والشيخ ابن تيمية[(٣)].

وحاصل القصة: أنَّ عثمان بن حنيف الراوي للحديث المشاهد للقصة، علّم مَنْ شكا إليه إبطاء الخليفة عن قضاء حاجته هذا الدعاء الذي فيه التوسل

---

(١) المنذري؛ «الترغيب والترهيب»؛ ١:٤٧٦، الهيثمي؛ «مجمع الزوائد» ٢:٢٧٩.

(٢) ابن تيمية؛ «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» ص:٩٨.

(٣) قال الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب»: «قال الطبراني بعد ذكر طرقه: والحديث صحيح، وقول الطبراني هذا يدل دلالة واضحة على تصحيحه للحديث من جميع طرقه التي وردت، ومنها طريق القصة فهو صحيح عنده غير متكلم فيه، والراوي للحديث وللقصة واحد، وهو عثمان بن حنيف، وصحح الحاكم القصة أيضًا، فقال: تابعه شبيب بن سعيد، عن روح بن القاسم بزيادات في المتن والإسناد، والقول فيه قول شبيب، فإنه ثقة مأمون»، كذا في «المستدرك» ١:٥٢٦.

قلت: ولم يعترض على هذا الذهبي بشيء، فهو إقرار منه بذلك.

هذا وقد صنف بعض أهل العلم رسالة خاصة في هذا الحديث وجمع طرقه سماها: «المنار المنيف في حديث عثمان بن حنيف».

بالنبي ﷺ، والنداء له مستغيثًا به بعد وفاته ﷺ، ولما ظنَّ الرجل أنَّ حاجته قضيت بسبب كلام عثمان مع الخليفة، بادر ابن حنيف بنفي ذلك الظن وحَدَّثه بالحديث الذي سمعه وشهده، ليثبت له أن حاجته إنما قضيت بتوسله به ﷺ، ونداثه له واستغاثته به، وأكد ذلك له بالحلف إنه ما كَلّمَ الخليفة في شأنه.

استعمالٌ آخر وتَأييدُ ابن تيمية له

رَوىٰ ابن أبي الدنيا في كتاب «مجابي الدعاء» قال: حدثنا أبو هاشم، سمعت كثير بن محمد بن كثير بن رفاعة يقول: جاء رجل إلى عبد الملك بن سعيد بن أبجر، فجسَّ بطنه فقال: بك داء لا يبرأ، قال: ما هو؟ قال: الدُّبَيْلَة ـ وهي خرَاج ودمل كبير يظهر في الجوف فيقتل صاحبه غالبًا ـ، قال: فتحول الرجل فقال: الله، الله، الله ربي لا أشرك به شيئًا، اللهم إني أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ﷺ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك وربي يرحمني مما بي. قال: فجسَّ بطنه فقال: قد برئت، ما بك علة.

قال الشيخ ابن تيمية: «قلت: فهذا الدعاء ونحوه قد رُويَ أنه دعا به السلف». اهـ[١].

ومعلوم أنَّ ابن تيمية أورد هذا الخبر ليبين به مقصوده ويوجهه كما يريد، **ولكن الذي يهمنا هنا هو**: أنه أثبت استعمال السلف لذلك وحصول الشفاء به، وهذا القدر من المسألة هو الذي يهمنا، أما تعليقه عليه فهذا رأيه هو، ونحن لا يهمنا إلَّا ثبوت النص فقط، لنستدل به على ما نريد، وهو له أن يستدل به كما يريد.

مُحَاولاتٌ يَائِسةٌ

وقد طنطن ودندن بعضهم حول حديث توسل آدم، وحديث عثمان بن حنيف وغيرهما، وبذل جهده في ردّها بكل ما أوتي من قوة، وحاول وحاور، وجادل، وقام وقعد، وأرغى وأزبد في هذا الموضوع، وكل ذلك لا فائدة منه

(١) «قاعدة جليلة» ص: ٩١.

لأنه مهما حاول ردَّ الأحاديث الواردة في هذا الباب؛ فقد قال ساداته من العلماء الكبار كلمتهم، وهم أوفر منه عقلًا وأوسع علمًا، وأطول باعًا وأعمق فهمًا، وأكثر نورًا وتقوى وإخلاصًا، مثل الإمام أحمد بن حنبل ـ وهو يقول بالتوسل كما نقله عنه ابنُ تيمية والعزُّ ابن عبد السلام ـ وابنِ تيمية نفسه في قَولٍ له بالتوسل بالنبي ﷺ خاصة، ثم نهاية المطاف عند الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي أنكر على من نسب القول إليه بتكفير المتوسلين، بل وصرح في فتاواه بأنَّ التوسل من الفروع، لا من الأصول، وكل ذلك سيأتي مفصلًا إن شاء الله في هذا الكتاب.

هذا، وقد صَنّف الشيخ العلامة المُحدِّث عبد الله الغماري رسالة خاصة في الكلام على هذا الحديث سماها «مصباح الزجاجة في فوائد صلاة الحاجة» أجاد فيها وأفاد، وأتى بما يشفي ويكفي ويغني، جزاه الله خير الجزاء.

التَّوسُّل به صلى الله عليه وسلم في عَرصَاتِ يوم القيامة

أما التوسل به في عرصات يوم القيامة فلا حاجة للإطالة فيه؛ فإنَّ أحاديث الشفاعة بلغت مبلغ التواتر، وَكلٌّ ذلك فيه النصوص الصريحة التي تفيد أن أهل الموقف إذا طال عليهم الوقوف واشتد الكرب؛ استغاثوا في تفريج كربتهم بالأنبياء، فيستغيثون بآدم، ثم بنوح، ثم بإبراهيم، ثم بموسى، ثم بعيسى فيحيلهم على سيد المرسلين، حتى إذا استغاثوا به ﷺ سارع إلى إغاثتهم وأسعف طلبتهم، وقال: «**أنا لها، أنا لها**»، ثم يخرّ ساجدًا ولا يزال كذلك حتى يُنادىٰ: أن ارفع رأسك، واشفع تُشَفَّع.

فهذا إجماع من الأنبياء والمرسلين وسائر المؤمنين، وتقرير من رب العالمين، بأن الاستغاثة عند الشدائد بأكابر المقربين، من أعظم مفاتيح الفرج ومن موجبات رضا رب العالمين.

مَشْرُوعِيةُ التَّوسُّلِ على طَرِيقةِ الشيخ ابن تيمية

يقول الشيخ ابن تيمية في كتابه «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» (ص٥) عند الكلام على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ

﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]: «فابتغاء الوسيلة إلى الله سبحانه وتعالى إنما يكون لمن توسل إلى الله بالإيمان بمحمد واتباعه، وهذا التوسل بالإيمان به وبطاعته فَرضٌ على كل أحد في كل حال باطنًا وظاهرًا، في حياة رسول الله ﷺ وبعد موته، في مشهده ومغيبه، لا يسقط التوسل بالإيمان به وبطاعته عن أحد من الخلق في حال من الأحوال بعد قيام الحجة عليه، ولا بعذر من الأعذار، ولا طريق إلى كرامة الله ورحمته والنجاة من هوانه وعذابه؛ إلَّا التوسل بالإيمان به وبطاعته، وهو ﷺ شفيع الخلائق، صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، فهو أعظم الشفعاء قدرًا وأعلاهم جاهًا عند الله، وقد قال تعالى عن موسى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، وقال عن المسيح: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥]، ومحمد ﷺ أعظم جاهًا من جميع الأنبياء والمرسلين، ولكن شفاعته ودعاؤه إنما ينتفع بهما من شفع له الرسول ودعا له، فمن دعا له الرسول وشفع له توسل إلى الله بشفاعته ودعائه؛ كما كان أصحابه يتوسلون إلى الله بدعائه وشفاعته، وكما يتوسل الناس يوم القيامة إلى الله تعالى بدعائه وشفاعته صلى الله عليه وآله وسلم تسليمًا».

وفي «الفتاوى الكبرى» ١: ١٤: سئل شيخ الإسلام رحمه الله هل يجوز التوسل بالنبي ﷺ أم لا؟ فأجاب: «الحمد لله، أما التوسل بالإيمان به ومحبته وطاعته والصلاة والسلام عليه وبدعائه وشفاعته ونحو ذلك مما هو من أفعاله وأفعال العباد المأمور بها في حقه، فهو مشروع باتفاق المسلمين».

قُلْتُ: فيستفاد من كلام الشيخ ابن تيمية أمران:

الأول: أنَّ المُسلم المُطيع المُحبَّ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المُتَّبع له المُصدّق بشفاعته؛ يُشرع له أن يتوسل بطاعته ومحبته وتصديقه ذلك.

وإننا إذا توسلنا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فاللَّه يشهد أننا إنما نتوسل بالإيمان به وبمحبته وبفضله وشرفه، فهذا هو المقصود الأصلي من التوسل، ولا يتصور أن يتوسل أحد بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لغير هذا المعنَى، ولا يمكن أن يكون سوى ذلك من جميع المسلمين المتوسلين، غير أنَّ المتوسِّل قد يصرح به وقد لا يصرح اعتمادًا على المقصود الأصلي من التوسل

الذي هو الإيمان بالنبي ومحبته صلى الله عليه وآله وسلم لا غير.

الثاني: مما يستفاد من كلام الشيخ ابن تيمية: أنَّ من دعا له الرسول ﷺ صح له أن يتوسل إلى الله بدعائه ﷺ له، وقد جاء أنه ﷺ قد دعا لأمته كما ثبت ذلك في أحاديث كثيرة.

منها: عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما رأيت من النبي ﷺ طيب نفس، قلت: يا رسول الله ادعُ الله لي، قال: «**اللهم اغفر لعائشة ما تقدم من ذنبها وما تأخر، وما أسرّت وما أعلنت**». فضحكت عائشة حتى سقط رأسها في حجرها من الضحك، فقال رسول الله ﷺ: «**أيسرك دعائي؟**»، فقالت: وما لي لا يسرني دعاؤك، فقال ﷺ: «**والله إنها لَدعوتي لأمتي في كل صلاة**»[١].

لذا فإنه يصح لكل مسلم أن يتوسل إلى الله سبحانه وتعالى بذلك فيقول: «اللهم إنَّ نبيك محمدًا ﷺ قد دعا لأمته، وأنا من أفراد هذه الأمة، فأتوسل إليك بهذا الدعاء أن تغفر لي وأن ترحمني»، إلى آخر ما يريد، فإذا قال ذلك؛ لم يخرج عن الأمر المتفق عليه بين علماء المسلمين كافة، فإن قال: «اللهم إني أتوسل إليك بنبيك محمد ﷺ»، فقد فاته التصريح بما ينويه، وبيان ما ينعقد عليه قلبه، وهو مقصود كل مسلم ومراده لا يخرج عن هذا الحد؛ لأنَّ المتوسل بالنبي ﷺ لا يقصد بذلك إلَّا تلك المعاني المتعلقة بذاته ﷺ من محبة وقربة وجاه، ورتبة وفضل ودعاء وشفاعة، خصوصًا وأنه ﷺ في برزخه يسمع الصلاة والسلام ويرد على ذلك بما يليق ويناسب من سلام واستغفار؛ لما قد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**حياتي خير لكم، تُحَدِّثُونَ وَيُحدَثُ لكم، ووفاتي خير لكم، تعرض عَلَيَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شرّ استغفرت الله لكم**»[٢].

---

(١) رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن منصور الرمادي، وهو ثقة. اهـ «مجمع الزوائد» ٩: ٢٤٣.

(٢) رواه الحافظ إسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم»، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٩: ٢٤، وصححه بقوله: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، كما سيأتي.

وهذا صريح بأنه ﷺ يستغفر للأمة في برزخه، والاستغفار دعاء، والأمة تنتفع بذلك.

وجاء في الحديث أنَّ النبي ﷺ قال: «ما من أحد يسلِّم عليَّ، إلَّا ردَّ الله عليَّ روحي حتى أردَّ عليه السلام»(١).

فهذا صريح بأنَّ النبي ﷺ يرد السلام على المُسَلِّم، والسلام هو الأمان، فهو دعاء بالأمان للمسلِّم، وهو ينتفع بذلك.

مَشرُوعِيةُ التَّوسُّل بالنبي ﷺ خاصة
عند الإمام أحمد بن حنبل، وابن تيمية

على أنَّ الشيخ ابن تيمية في بعض المواضع من كتبه أثبت جواز التوسل بالنبي ﷺ، دون تفريق أو تفصيل بين حياته وموته، وحضوره وغيابه، ونقل عن الإمام أحمد، والعز ابن عبد السلام جواز ذلك في «الفتاوى الكبرى».

قال الشيخ: «وكذلك مما يُشرعُ التوسل به ﷺ في الدعاء كما في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه: أنَّ النبي ﷺ علّم شخصًا أن يقول: **«اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد يا رسول الله، إني أتوسل بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها، اللهم فشفعه فيَّ»**. فهذا التوسل به حسن». اهـ(٢).

وقال أيضًا: «والتوسل إلى الله بغير نبينا ﷺ سواء سُمِّي استغاثة أو لم يُسَمَّ، لا نعلم أحدًا من السلف فعله، ولا رَوىٰ فيه آثارًا ولا نعلم فيه إلَّا ما أفتى به الشيخ ـ يعني الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ـ من المنع، وأما التوسل بالنبي ﷺ ففيه حديث في السنن، رواه: النسائي، والترمذي وغيرهما: أنَّ أعرابيًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إني أصبت في بصري فادع الله لي، فقال له النبي ﷺ: **«توضأ وصلِّ ركعتين، ثم قُل: اللهم أسألك وأتوجه إليك**

(١) رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال النووي: إسناده صحيح.

(٢) ابن تيمية؛ «الفتاوى» ٣: ٢٧٦.

بنبيك محمد، يا محمد إني أتشفع بك في ردّ بصري، اللهم شفّع نبيك فيّ، وقال: فإن كانت لك حاجة فمثل ذلك. فرد الله بصره»، فلأجل هذا الحديث استثنى الشيخ التوسل به»[١].

وقال الشيخ ابن تيمية أيضًا في موضع آخر: «ولذلك قال أحمد في «منسكه» الذي كتبه للمروزي صاحبه: إنه يتوسل بالنبي ﷺ في دعائه، ولكن غير أحمد قال: إنَّ هذا إقسام على الله به، ولا يقسم على الله بمخلوق، وأحمد في إحدى الروايتين قد جوَّز القسم به، فلذلك جوَّز التوسل به»[٢].

جَوازُ التَّوسُّل عند الإمام الشَّوكاني

قال الإمام المُحدِّث السَّلفِي الشيخ محمد بن علي الشوكاني في رسالته «الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد»: «أما التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بأحد من خلقه في مطلب يطلبه العبد من ربه، فقد قال الشيخ عز الدين ابن عبد السلام: إنه لا يجوز التوسل إلى الله تعالى إلَّا بالنبي ﷺ إن صح الحديث فيه. ولعله يشير إلى الحديث الذي أخرجه النسائي في سننه والترمذي في «صحيحه» وابن ماجه وغيرهم: أنَّ أعمى أتى النبي ﷺ، فذكر الحديث، قال: وللناس في معنى هذا قولان:

أحدهما: أنَّ التوسل هو الذي ذكره عمر بن الخطاب لما قال: كنا إذا أجدبنا نتوسل بنبينا إليك فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا. وهو في «صحيح البخاري» وغيره، فقد ذكر عمر رضي الله عنه أنهم كانوا يتوسلون بالنبي ﷺ في حياته في الاستسقاء، ثم توسلوا بعمه العباس بعد موته، وتوسلهم هو استسقاؤهم بحيث يدعو ويدعون معه، فيكون هو وسيلتهم إلى الله تعالى، والنبي ﷺ كان في مثل هذا شافعًا وداعيًا لهم.

والقول الثاني: أنَّ التوسل به ﷺ يكون في حياته وبعد موته، وفي حضرته ومغيبه، ولا يخفى عليك أنه قد ثبت التوسل به ﷺ في حياته، وثبت التوسل بغيره بعد موته بإجماع الصحابة إجماعًا سكوتيًّا؛ لعدم إنكار أحد منهم على عمر

---

(١) ابن تيمية؛ «الفتاوى» ١:١٠٥.
(٢) ابن تيمية؛ «الفتاوى» ١:١٤٠.

رضي الله عنه في توسله بالعباس رضي الله عنه، وعندي: أنه لا وجه لتخصيص جواز التوسل بالنبي ﷺ كما زعمه الشيخ عز الدين ابن عبد السلام لأمرين:

الأول: ما عرّفناك به من إجماع الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

والثاني: أنَّ التوسل إلى الله بأهل الفضل والعلم هو في التحقيق توسل بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة، إذ لا يكون الفاضل فاضلًا إلَّا بأعماله، فإذا قال القائل: اللهم إني أتوسل إليك بالعالم الفلاني؛ فهو باعتبار ما قام به من العلم، وقد ثبت في «الصحيحين» وغيرهما أنَّ النبي ﷺ حكىٰ عن الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة أنَّ كلّ واحد منهم توسل إلى الله بأعظم عمل عمله فارتفعت الصخرة، فلو كان التوسل بالأعمال الفاضلة غير جائز أو كان شركًا ـ كما زعمه المتشددون في هذا الباب كابن عبد السلام، ومن قال بقوله من أتباعه ـ، لم تحصل الإجابة من الله لهم، ولا سكت النبي ﷺ عن إنكار ما فعلوه بعد حكايته عنهم، وبهذا تعلم أنَّ ما يورده المانعون من التوسل بالأنبياء والصلحاء من نحو قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ونحو قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، ونحو قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]، ليس بوارد، بل هو من الاستدلال على محل النزاع بما هو أجنبي عنه، فإنَّ قولهم: ما نعبدهم إلَّا ليقربونا إلى الله زلفى، مصرِّح بأنهم عبدوهم لذلك، والمتوسل بالعالِم مثلًا لم يعبده، بل علم أن له مزية عند الله بحمله العلم فتوسل به لذلك، وكذلك قوله: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]؛ فإنه نهى عن أن يُدعىٰ مع الله غيره كأن يقول: يا الله ويا فلان، والمتوسل بالعالم مثلًا لم يَدْعُ إلَّا الله وإنما وقع منه التوسل إليه بعمل صالح عمله بعض عباده، كما تَوسّل الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الرعد: ١٤]؛ فإنَّ هؤلاء دعوا من لا يستجيب لهم، ولم يدعوا ربهم الذي يستجيب لهم، والمتوسل بالعالم مثلًا لم يدعُ إلَّا الله ولم يدعُ غيره دونه، ولا دعا غيره معه. فإذا عرفت هذا؛ لم يخف عليك دفع ما يورده المانعون للتوسل من الأدلة الخارجة عن

محل النزاع خروجًا زائدًا على ما ذكرناه، كاستدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٧ - ١٩]. فإنَّ هذه الآية الشريفة ليس فيها إلا أنه تعالى هو المنفرد بالأمر في يوم الدين، وأنه ليس لغيره من الأمر شيء، والمتوسل بنبي من الأنبياء أو عالم من العلماء، هو لا يعتقد أنَّ لمن توسل به مشاركة لله جل جلاله في أمر يوم الدين، ومن اعتقد هذا لعبد من العباد سواء كان نبيًّا أو غير نبي؛ فهو في ضلال مبين، وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [يونس: ٤٩]؛ فإنَّ هاتين الآيتين مصرِّحتان بأنه ليس لرسول الله ﷺ من أمر الله شيء، وأنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا فكيف يملك لغيره، وليس فيهما منع التوسل به أو بغيره من الأنبياء أو الأولياء أو العلماء، وقد جعل الله لرسوله ﷺ المقام المحمود؛ مقام الشفاعة العظمى، وأرشد الخلق إلى أن يسألوه ذلك ويطلبوه منه، وقال له: «سَلْ تُعْطَهْ واشْفَعْ تُشَفَّعْ»، وقيد ذلك في كتابه العزيز بأنَّ الشفاعة لا تكون إلَّا بإذنه ولا تكون إلَّا لمن ارتضى، وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله ﷺ لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]: «يا فلان بن فلان» لا أملك لكَ من الله شيئًا، يا فلانة بنت فلان، لا أملك لكِ من الله شيئًا»، فإنَّ هذا ليس فيه إلَّا التصريح بأنه ﷺ لا يستطيع نفع من أراد الله ضره، ولا ضر من أراد الله تعالى نفعه، وأنه لا يملك لأحد من قرابته فضلًا عن غيرهم شيئًا من الله، وهذا معلوم لكل مسلم، وليس فيه أنه لا يتوسل به إلى الله، فإنَّ ذلك هو طلب الأمر ممن له الأمر والنهي، وإنما أراد الطالب أن يُقدِّمَ بين يدي طلبه ما يكون سببًا للإجابة، ممن هو المنفرد بالعطاء والمنع، هو مالك يوم الدين». **انتهى كلام الشوكاني**.

الشيخ محمد بن عبد الوهاب يقول بجواز التوسل

سئل الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن قولهم في الاستسقاء: (لا بأس بالتوسل بالصالحين) وقول أحمد: (يتوسل بالنبي ﷺ خاصة مع قولهم: إنه لا يستغاث بمخلوق).

فقال: «فالفرق ظاهر جدًّا، وليس الكلام مما نحن فيه، فكون بعضهم يرخص بالتوسل بالصالحين، وبعضهم يخصه بالنبي ﷺ، وأكثر العلماء ينهى عن ذلك ويكرهه، فهذه المسألة من مسائل الفقه، وإن كان الصواب عندنا قول الجمهور من أنه مكروه، فلا ننكر على من فعله، ولا إنكار في مسائل الاجتهاد، ولكن إنكارنا على من دعا لمخلوق أعظم مما يدعو الله تعالى، ويقصد القبر يتضرع عند ضريح الشيخ عبد القادر أو غيره يطلب فيه تفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإعطاء الرغبات، فأين هذا ممن يدعو الله مخلصًا له الدين، لا يدعو مع الله أحدًا، ولكن يقول في دعائه: أسألك بنبيك أو بالمرسلين أو بعبادك الصالحين، أو يقصد قبر معروف أو غيره يدعو عنده، لكن لا يدعو إلَّا الله مخلصًا له الدين، فأين هذا مما نحن فيه»(١).

وهذا يدل على جواز التوسل عنده، غاية ما يرى أنه مكروه في رأيه عند الجمهور، والمكروه ليس بحرام، فضلًا عن أن يكون بدعة أو شركًا.

الشيخ محمد بن عبد الوهاب يَتَبَرّأُ ممن يُكَفِّر المتوسلين

وقد جاء عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب في رسالته الموجَّهة لأهل القصيم، الاستنكار الشديد على من نسب إليه تكفير المتوسل بالصالحين، وقال: «إنَّ سليمان بن سحيم افترى عليَّ أمورًا لم أقلها، ولم يأتِ أكثرها على بالي، فمنها: أني أكفر من توسل بالصالحين، وأني أكفر البوصيري لقوله: يا أكرم الخلق، وأني أحرق دلائل الخيرات.

وجوابي عن هذه المسائل أن أقول: سبحانك هذا بهتان عظيم».

وجاء أيضًا تأييد قوله هذا في رسالة أخرى له بعثها إلى أهل المجمعة يقول فيها: «إذا تبين هذا؛ فالمسائل التي شنع بها، منها ما هو من البهتان الظاهر، وهو قوله: إني أُكفِّر من توسل بالصالحين، وإني أُكفِّر البوصيري إلى آخر ما قال، ثم قال: وجوابي فيها أن أقول: سبحانك هذا بهتان

(١) الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، مجموعة المؤلفات القسم الثالث، ص٦٨، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

عظيم»[(١)].

التوسل بآثاره ﷺ

ثبت أنَّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتبركون بآثاره ﷺ، وهذا التبرك ليس له إلَّا معنى واحد؛ ألَا وهو التوسل بآثاره إلى الله تعالى؛ لأنَّ التوسل يقع على وجوه كثيرة لا على وجه واحد.

أفَتَرَاهُمْ يتوسلون بآثاره ولا يتوسلون به ﷺ؟

هل يصح أن يُتَوَسَّلَ بالفرع، ولا يصح بالأصل؟

هل يصح أن يُتوسلَ بالأثر الذي ما شُرّفَ ولا عُظِّمَ ولا كُرِّم إلَّا بسبب صاحبه محمد ﷺ، ثم يقول قائل: إنه لا يصح أن يتوسل به!؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

والنصوص الواردة في هذا الباب كثيرة جدًّا نقتصر على أشهرها، فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحرص كل الحرص على أن يُدفن بقرب رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة؛ فيبعث ولده عبد الله ليستأذن السيدة عائشة رضي الله عنها في ذلك، وإذا بالسيدة عائشة تعلن أنها كانت تريد هذا المكان لنفسها، فتقول: «كنت أريده لنفسي ولأوثرنه على نفسي». فيذهب عبد الله وَيُبشِّر أباه بهذه البشارة العظيمة، وإذا بعمر رضي الله عنه يقول: الحمد لله ما كان شيء أهم إليَّ من ذلك. وانظر تفصيل القصة في «البخاري»، فما معنى هذا الحرص من عمر ومن عائشة رضي الله عنهما؟

ولماذا كان الدفن بقرب رسول الله ﷺ أهم شيء وأحب شيء إلى عمر؟ ليس لذلك تفسير إلَّا التوسل بالنبي ﷺ بعد وفاته؛ بالتبرك بالقرب منه.

وهذه أُمّ سُلَيم رضي الله عنها تقطع فم القربة التي شرب منها رسول الله ﷺ، يقول أنس رضي الله عنه: فهو عندنا.

---

(١) انظر «الرسالة الأولى والحادية عشرة» من رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب القسم الخامس ص ١٢ وص٦٤.

وهؤلاء الصحابة يتسابقون لأخذ شعرة واحدة من شعر رأسه ﷺ لما حلقه.

وهذه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما تحتفظ بجبة رسول الله ﷺ وتقول: «فنحن نغسلها للمرضى؛ نستشفي بها».

وهذا خاتم رسول الله ﷺ يحتفظ به بعده أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ثم يسقط منه في البئر.

وكل هذه الأحاديث ثابتة وصحيحة كما سنذكره في مبحث «التبرك»، والذي نريد أن نقوله: هو أننا نتسائل لماذا هذه المحافظة منهم رضي الله تعالى عنهم على آثار النبي ﷺ. (فم القربة، الشعر، العرق، الجبة، الخاتم، المُصلّىٰ)، فما مقصودهم من ذلك؟ أهي الذكرى مجرد الذكرى، أم هي المحافظة على الآثار التاريخية لوضعها في المتحف؟

فإن كانت الأولى، فلماذا يعتنون بها عند الدعاء والتوجه إلى الله إذا أصابهم البلاء أو المرض؟

وإذا كانت الثانية، فأين هذا المتحف، ومن أين جاءتهم هذه الفكرة المبتدعة؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

لم يبقَ إلّا التبرك بآثاره ﷺ للتوسل بها إلى الله في الدعاء؛ لأنَّ الله هو المُعطي وهو المسؤول، والكل عبيده وتحت أمره، لا يملكون شيئًا لأنفسهم فضلًا عن غيرهم إلّا بإذن الله سبحانه وتعالى.

التَّوسّلُ بآثار الأنبياء عليهم السلام

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: ٢٤٨].

قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»: «قال ابن جرير عن هذا التابوت: وكانوا إذا قاتلوا أحدًا من الأعداء، يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان في قبة الزمان كما تقدم ذكره، فكانوا ينصرون ببركته، وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون، فلما كان

في بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان؛ غلبوهم وقهروهم على أخذه فانتزعوه من أيديهم». اهـ[١].

قال ابن كثير: «وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه، وكان فيه طست من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء». اهـ[٢].

وقال ابن كثير في «التفسير»: «كان فيه عصا موسى وعصا هارون، ولوحان من التوراة، وثياب هارون، ومنهم من قال: العصا والنعلان». اهـ[٣].

وقال القرطبي: «والتابوت كان من شأنه ـ فيما ذكر ـ أنه أنزله الله على آدم عليه السلام فكان عنده، إلى أن وصل إلى يعقوب عليه السلام، فكان في بني إسرائيل يغلبون به من قاتلهم حتى عَصَوا فغُلبوا على التابوت؛ غلبهم عليه العمالقة وسلبوا التابوت منهم». اهـ[٤].

وهذا في الحقيقة ليس إلّا توسلًا بآثار أولئك الأنبياء؛ إذ لا معنى لتقديمهم التابوت بين أيديهم في حروبهم إلّا ذلك، والله سبحانه وتعالى راضٍ عن ذلك؛ بدليل أنه رَدَّهُ إليهم وجعله علامة وآيةً على صحة ملك طالوت، ولم ينكر عليهم ذلك الفعل.

تَوسُّلُ النبي ﷺ بِحقِّهِ وحَقِّ الأنبياء والصالحين

جاء في مناقب فاطمة بنت أسد، أم علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أنها لما ماتت حفر رسول الله ﷺ لحدها بيده وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ دخل رسول الله ﷺ فاضطجع فيه فقال: «**الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي، فإنك أرحم الراحمين**»، وكَبَّر عليها أربعًا وأدخلوها

(١) ابن كثير؛ «البداية والنهاية» ٢:٥.
(٢) ابن كثير؛ «البداية والنهاية» ٢:٨.
(٣) ابن كثير؛ «تفسير القرآن العظيم» ١:٣١٣.
(٤) القرطبي؛ «الجامع لأحكام القرآن»، ٣:٢٤٧.

اللحد؛ هو والعباس وأبو بكر الصديق رضي الله عنهم[(١)].

وَاختُلِفَ في رَوْحِ بن صلاح ـ أحد رواته ـ، ولكن ابن حبان ذكره في «الثقات»، وقال الحاكم: ثقة مأمون، وكلا الحافظين صحح الحديث، وهكذا الهيثمي في (مجمع الزوائد) حيث قال: وفيه روح بن صلاح وثقه ابن حبان، والحاكم، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح[(٢)].

ورواه كذلك ابن عبد البر عن ابن عباس، وابن أبي شيبة عن جابر، وأخرجه الديلمي وأبو نعيم، فَطُرُقه يَشُدُّ بعضها بعضًا بقوة وتحقيق[(٣)].

قال الشيخ الحافظ عبد الله ابن الصديق الغماري[(٤)]: ورَوْحٌ هذا ضَعْفه خفيف عند من ضعفه كما يستفاد من عباراتهم؛ ولذا عبر الحافظ الهيثمي بما يفيد خفة الضعف، كما لا يخفى على من مارس كتب الفن. فالحديث لا يقل

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط». كذا في «مجمع الزوائد» ٩: ٢٥٧.

(٢) فيه بيان وجه استنباط تصحيح الهيثمي للحديث، وفي هذا غاية الإنصاف ورد ما توهمه البعض من الإيهام في نسبة التصحيح إلى الهيثمي خصوصًا وإن روح بن صلاح قد وثقه أبو حاتم، وابن حبان، وهو ـ يعني أبا حاتم ـ من الطبقة التي قال فيها الذهبي: «إذا وثق أحدهم شخصًا فعض على قوله بناجذيك»، كما جاء في رسالته: «ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل» المطبوعة بتحقيق الشيخ عبد الفتاح أبي غدة.
فلا تناقض في النقل عن الهيثمي، وإنما التناقض في فهم المنتقد.

(٣) مقصوده أنهم رووا أصل القصة، وهذا ليس بتدليس، وذلك وارد من صنيع المحدثين في النقل والرواية كما يفعله أهل المستخرجات، والبحث طويل ومفصل في كتب المصطلح، خصوصًا وقد بين المؤلف كلام الهيثمي في الحديث بقوله: وفيه روح بن صلاح، وبه يكون قد أبرأ ذمته منه، أما قول بعضهم: إن الحديث وارد في الطرق الأخرى بغير زيادة الدعاء، وهي لا توجد إلا في هذه الرواية، فهذا ليس بعلة، لأن الزيادة غير منكرة ولا غريبة، فإن الدعاء بهذه الصيغة قد ورد في معناه أحاديث كثيرة كحديث عثمان بن حنيف الذي أجمع الحفاظ على صحته، وحديث أبي سعيد الخدري، وفيه (بحق السائلين عليك إلخ) الذي ذكره الشيخ ابن تيمية في «الكلم الطيب»، وحديث: (أسألك بحق ممشاي) الذي ذكره الشيخ محمد بن عبد الوهاب في «آداب المشي إلى الصلاة» وغير ذلك من الأحاديث التي فيها الدعاء بهذه الصيغة.

(٤) الغماري؛ «إتحاف الأذكياء»، ص٢٠.

عن رتبة الحسن، بل هو على شرط ابن حبان صحيح.

ونلاحظ هنا أيضًا: أنَّ الأنبياء الذين توسل النبي ﷺ بحقهم على الله في هذا الحديث وغيره قد ماتوا، فثبت جواز التوسل إلى الله بالحق وبأهل الحق أحياءً وموتى.

تَوسُّلُ النبي ﷺ بِحَقِّ السائلين

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من خرج من بيته إلى الصلاة، فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وبحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشرًا ولا بطرًا، ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلَّا أنت؛ أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك**».

قال المنذري: رواه ابن ماجه بإسناد فيه مقال، وحَسّنهُ شيخنا الحافظ أبو الحسن[1].

وقال الحافظ ابن حجر: «هذا حديث حسن، أخرجه أحمد، وابن خزيمة في «كتاب التوحيد»، وأبو نعيم، وابن السني»[2].

وقال العراقي عن الحديث: إنه حسن[3].

وقال الحافظ البوصيري: «رواه ابن خزيمة في «صحيحه»»[4].

وقال الحافظ شرف الدين الدمياطي: «إسناده حسن إن شاء الله»[5].

وذكر العلامة المُحقّق المُحدِّث السيد علي بن يحيى العلوي في رسالته اللطيفة «هداية المتخبطين» أنَّ الحافظ عبد الغني المقدسي حسَّن الحديث، وقبله ابن أبي حاتم.

---

(١) المنذري؛ «الترغيب والترهيب» ٢:٤٥٨.

(٢) ابن حجر؛ «نتائج الأفكار» ١:٢٧٢.

(٣) العراقي؛ «المغني» (تخريج أحاديث الإحياء) ١:٣٢٣.

(٤) البوصيري؛ «مصباح الزجاجة» ١:٩٨.

(٥) الدمياطي؛ «المتجر الرابح» ص٤٧١.

وبهذا يتبين لك: أنَّ هذا الحديث صَحّحهُ وحَسّنَهُ جملة من كبار حفاظ الحديث وأئمته، وهم: ابن خزيمة، والمنذري، وشيخه أبو الحسن، والعراقي، والبوصيري - غير البوصيري صاحب «البردة» -، وابن حجر، والشرف الدمياطي، وعبد الغني المقدسي، وابن أبي حاتم.

فهل يبقى بعد قول هؤلاء كلام لمتكلم؟ وهل يصح من عاقل أن يترك حكم هؤلاء الفحول من الرجال الحفاظ المتقنين، إلى قول المتطفلين على موائد الحديث؟ ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦][١].

التوسل بقبر النبي ﷺ بإرشاد السيدة عائشة

قال الإمام الحافظ الدارمي في كتابه «السنن»، «باب ما أكرم الله تعالى نبيه ﷺ بعد موته»: حدثنا أبو النعمان، حدثنا سعيد بن زيد، حدثنا عمرو بن مالك النكري، حدثنا أبو الجوزاء أوس بن عبد الله، قال: «قحط أهل المدينة قحطًا شديدًا فشكوا إلى عائشة، فقالت: انظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كُوًا إلى السماء، حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف، قال: ففعلوا، فَمُطِرْنا مطرًا حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم، فسمي عام «الفتق»»[٢].

وكُوًا جمع: كَوَّة، وهي النافذة.

فهذا توسل بقبره ﷺ، لا من حيث كونه قبرًا؛ بل من حيث كونه ضَمّ جسد أشرف المخلوقين وحبيب رب العالمين، فتشرف بهذه المجاورة العظيمة، واستحق بذلك المنقبة الكريمة.

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «اللهم إني أسألك بحق السائلين» نقله الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب «آداب المشي إلى الصلاة»، وحث على العمل به.

فما بقي للمعترضين من كلام بعد تصحيح وتحسين ابن خزيمة ومن معه إلى إمام الدعوة رحمهم الله تعالى وعافانا من سوء الفهم.

(٢) «سنن الدارمي» ١: ٤٣.

تخريج الحديث:

أما أبو النعمان؛ فهو محمد بن الفضل الملقب بعارم، شيخ البخاري. قال الحافظ في «التقريب» عنه: ثقة ثبت، تَغيّر في آخر عمره.

قُلْتُ: وهذا لا يضره ولا يقدح في روايته، لأنَّ البخاري روى له في «صحيحه» أكثر من مئة حديث، وبعد اختلاطه لم تُحْمَل عنه رواية؛ قاله الدارقطني، ولا ينبّئك مثل خبير.

وقد ردَّ الذهبي على ابن حبان قوله بأنه وقع له أحاديث منكرة، فقال: «ولم يقدر ابن حبان أن يسوق له حديثًا منكرًا، فأين ما زعم؟»[1].

وأما سعيد بن زيد؛ فهو صدوق له أوهام، وكذلك حال عمرو بن مالك النكري كما قال الحافظ ابن حجر عنهما في «التقريب».

وقد قرر العلماء بأنَّ هذه الصيغة؛ وهي: صَدُوقٌ يَهِمُ، من صيغ التوثيق لا من صيغ التضعيف. كذا في «تدريب الراوي».

وأما أبو الجوزاء؛ فهو أوس بن عبد الله الرّبعي، وهو ثقة من رجال «الصحيحين».

فهذا سند لا بأس به، بل هو جيّد عندي، فقد قَبِلَ العلماء واستشهدوا بكثير من أمثاله، وبمن هم أقل حالًا من رجاله.

السيدة عائشة وموقفها من قبر النبي ﷺ:

أما قول بعضهم: بأنَّ هذا الأثر موقوف على عائشة وهي صحابية، وعمل الصحابة ليس بحجة. **فالجواب هو**: أنه وإن كان رأيًا لعائشة رضي الله عنها، إلَّا أنها رضي الله عنها معروفة بغزارة العلم، وفعلت ذلك في المدينة بين علماء الصحابة، ويكفينا من هذه القصة أنها دليل على أنَّ عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تَعلمُ أنَّ رسول الله ﷺ لا زال بعد وفاته رحيمًا وشافعًا لأمّته، وأن من زاره واستشفع به شفع له؛ كما فعلت أم المؤمنين، وليس هو من قبيل الشرك أو من

(١) «ميزان الاعتدال» ٤: ٨.

وسائل الشرك، كما يلغط به هؤلاء المكفِّرون المضلِّلون، فإنَّ عائشة رضي الله عنها ومن شهدها، لم يكونوا ممن يجهلون الشرك، ولا ما يمت إليه.

فالقصة تدمغ هؤلاء وتثبت أن النبي ﷺ يهتم بأمته في قبره حتى بعد وفاته، وقد ثبت أنَّ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أدخل بيتي الذي فيه رسول الله ﷺ وأبي فأضع ثوبي، فأقول: «إنما هو زوجي وأبي، فلما دفن عمر معهم؛ فوالله ما دخلته إلَّا وأنا مشدودة عَلَيَّ ثيابي حياء من عمر»[١].

ولم تعمل عائشة رضي الله عنها هذا باطلًا، بل هي تعلم أنَّ النبي ﷺ وصاحبيه يعلمون من هو عند قبورهم.

وقد قال النبي ﷺ لمعاذ لمّا أرسله لليمن: «**لعلك أن تَمُرُّ بقبري ومسجدي**»[٢]. فتُوُفِّي رسول الله ﷺ وجاء معاذ إلى قبر النبي ﷺ باكيًا. وشاهده عمر بن الخطاب على هذا الحال، وجرت بينهما هذه المحادثة كما رواها زيد بن أسلم، عن أبيه، قال:

خرج عمر إلى المسجد فوجد معاذ بن جبل عند قبر النبي ﷺ يبكي، قال: ما يبكيك؟ قال: حَدِيثٌ سمعته عن رسول الله ﷺ يقول: «**اليسير من الرياء شرك**». قال الحاكم: صحيح ولا يحفظ له علة[٣]، ووافقه الذهبي فقال: «صحيح ولا علة له».

وقال المنذري: رواه ابن ماجه، والبيهقي، والحاكم وقال: صحيحٌ ولا علّة له[٤]، وأقره ـ أعني المنذري ـ.

التَّوسُّل بِقَبرِ النبي ﷺ في خِلَافةِ عمر رضي الله عنه

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو نصر بن قتادة، وأبو بكر

(١) رواه أحمد، قال الحافظ الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. اهـ. «مجمع الزوائد»، ٨: ٢٦. ورواه الحاكم في «المستدرك» ٤: ٧، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يعترضه الذهبي بشيء.

(٢) رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات إلَّا أنّ يزيد بن قطيب لم يسمع من معاذ. اهـ «مجمع الزوائد»، ١٠: ٥٥.

(٣) الحاكم؛ «المستدرك» ١: ٤. (٤) «الترغيب والترهيب» ١: ٦٨.

الفارسي، قالا: حدثنا أبو عمر بن مطر، حدثنا إبراهيم بن علي الذهلي، حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن مالك قال: «أصاب الناس قحط في زمن عمر بن الخطاب، فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! اسْتَسْقِ الله لأمتك فإنهم قد هلكوا، فأتاه رسول الله ﷺ في المنام فقال: «ائت عمر فأقرئه مني السلام وأخبرهم أنهم مسقون، وقل له: عليك بالكيس الكيس»، فأتى الرجل فأخبر عمر، فقال: يا رب! ما آلو إلَّا ما عجزت عنه». وهذا إسناد صحيح[1].

ورَوىٰ ابن أبي شيبة بإسناد صحيح قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش عن أبي صالح السمان، عن مالك الدار ـ وكان خازن عمر ـ قال: «أصاب الناس قحط في زمن عمر رضي الله عنه، فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! استسقِ لأمتك فإنهم قد هلكوا. فأتي الرجل في المنام فقيل له: ائت عمر»، الحديث.

وقد رَوىٰ سيف في «الفتوح»: أنَّ الذي رأى المنام المذكور هو: بلال بن الحارث المزني أحد الصحابة، قال ابن حجر: «إسناده صحيح»[2]. اهـ[3].

---

(١) كذا قال الحافظ ابن كثير في «البداية» ٧:٩١، في حوادث عام ثمانية عشر.

(٢) «فتح الباري» ٢:٤١٥.

(٣) قوله: قال ابن حجر: إسناده صحيح.

زعم بعضهم أن هذا كذب وأن ابن حجر لم يصحح السند، وهذا من المعارض تطاول بجانب الحق ولا يتصف بالأدب، ويظهر ذلك لمن راجع كلام ابن حجر في «الفتح»، ولكن الناقد استعجل وفَاتَه أول الكلام؛ وذلك لأن ابن حجر صحح الخبر من قبل بقوله: روى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح، وساق القصة.

ثم قال: وروى سيف في «الفتوح» أن الذي رأى المنام المذكور هو بلال بن الحارث أحد الصحابة، فالقصة واحدة والسند واحد، والتصحيح يشملهما، فليتنبه المنصف.

وقول ابن حجر هنا: بإسناد صحيح، يصرخ في وجه من زعم بأن ابن حجر لم يصحح الخبر، وهو هنا يريد أن يستدل بابن حجر على تضعيف الخبر، ويا ليته يمشي مع ابن حجر في بقية المسألة؛ فابن حجر يقول بالتوسل، وشد الرحل لزيارة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، أما قول ابن حجر: بإسناد صحيح، فهو يتناول المتن كما تقدم بيانه، وإن أنكره بعض من لا معرفة له بالفن. =

ولم يقل أحد من الأئمة الذين رووا الحديث ولا من بعدهم ممن مر بتصانيفهم من الأئمة: إنه كفر وضلال، ولا طعن أحد في متن الحديث به، وقد أورد هذا الحديث ابن حجر العسقلاني وصحح سنده كما تقدم، وهو من هو في علمه وفضله ووزنه بين حفاظ الحديث، مما لا يحتاج إلى بيان وتفصيل.

تَوسُّل المُسلِمينَ به ﷺ يوم اليمامة

ذكر الحافظ ابن كثير أنَّ شعار المسلمين في موقعة اليمامة كان: «**يا محمداه**».

قال ما نصُّه: «وحمل خالد بن الوليد حتى جاوزهم وسار لجبال مسيلمة وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله، ثم رجع ثم وقف بين الصفين ودعا البراز وقال: أنا ابن الوليد العود، أنا ابن عامر وزيد، ثم نادى بشعار المسلمين،

= **خطأ واضح من بعض أصحاب المفاهيم الخاصة:**

وهذا الجاهل الذي أنكر تصحيح ابن حجر وزعم أنه لم يصححه، وكأنه بذلك يشعرنا قبوله لقول ابن حجر واعتماده عليه، لو صحت نسبة ذلك التصحيح إليه، يرجع وللأسف فينتقد صحة الخبر من أصله، ويقول: هو ضعيف؛ لأن فيه الأعمش، وهو مدلس.

قلت: ومن أين عرف أن الأعمش مدلس إلا من ابن حجر وكتبه كالتقريب والتهذيب؟ فما أوضح هذا التناقض في حق الحافظ ابن حجر يدافع عنه أولًا ثم يدفع في صدره ثانيًا.

ثم هو قد وقع في خطأ كبير لا يليق بالمبتدئين من طلاب هذا الفن فكيف بمن يتصدر للتصحيح والتضعيف، وذلك حين قال: إن الحديث فيه الأعمش عن أبي صالح السمان المذكور، والأعمش متفق على أنه مدلس، والمدلس الثقة لا يقبل خبره إلا إذا صرح بالسماع، وفاته مع الأسف أن هذه القاعدة عامة إلا فيمن استثناه العلماء خاصة فيمن يرسل أو يدلس؛ كابن المسيب وكالأعمش هنا، وبيان ذلك وضحه الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال فقال: قلت: وهو يدلس، وربما دلس عن ضعيف، ولا يدري به، فمتى قال: حدثنا، فلا كلام، ومتى قال: (عن) تطرق إليه احتمال التدليس إلا في شيوخ له أَكْثَرَ عنهم؛ كإبراهيم وابن أبي وائل، وأبي صالح السمان فإن روايته عن هذا الصنف محمولة على الاتصال. اهـ انظر «ميزان الاعتدال» للحافظ الذهبي.

وكان شعارهم يومئذ «يا محمّداه»[١]».

التَّوسُّل به ﷺ في المَرضِ والشّدائِد

عن الهيثم بن خنس قال: «كنا عند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فخدرت رجله، فقال له رجل: اذكر أحبَّ الناس إليك، فقال: يا محمد، فكأنما نشط من عقال».

وعن مجاهد قال: «خدرت رِجْلُ رَجُلٍ عند ابن عباس رضي الله عنهما، فقال له ابن عباس: اذكر أحب الناس إليك، فقال: محمد ﷺ، فذهب خدره»[٢].

فهذا توسل في صورة النداء.

التَّوسُّل بِغَيرِ النَّبي ﷺ

عن عتبة بن غزوان، عن نبي الله ﷺ قال: «**إذا أضل أحدكم شيئًا أو أراد عونًا وهو بأرض ليس بها أنيس فليقل: يا عباد الله أعينوني، فإنَّ لله عبادًا لا نراهم**»، وقد جُرِّبَ ذلك[٣].

وعن ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ لله ملائكة في الأرض سوى الحفظة يكتبون ما يسقط من ورق الشجر، فإذا أصاب أحدكم عرجة في رجله بأرض فلاة فليناد: أعينوني عباد الله**»[٤].

وعن عبد الله بن مسعود أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا انفلتت دابة**

---

(١) ابن كثير؛ «البداية والنهاية» ٦: ٣٢٤.
قوله: قال ابن كثير: كان شعار المسلمين يا محمداه!
أنكر بعضهم هذه المسألة زاعمًا أن مسائل العقيدة والتوحيد لا تؤخذ من التواريخ، وهذا فيه مغالطة؛ فقد قرر الشيخ محمد بن عبد الوهاب في فتاويه أن التوسل ليس من العقائد، بل هو من مسائل الفقه، كذا في فتاوى الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

(٢) ذكره الشيخ ابن تيمية في «الكلم الطيب» في الفصل السابع والأربعين، ص١٦٥.

(٣) رواه الطبراني، ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهم إلَّا أنَّ يزيد بن علي لم يدرك عتبة.

(٤) رواه الطبراني، ورجاله ثقات.

أحدكم بأرض فلاة فليناد: يا عباد الله احبسوا، يا عباد الله احبسوا، فإنَّ لله حاضرًا في الأرض سيحبسه»(١).

فهذا توسل في صورة النداء أيضًا.

وجاء في الحديث أنَّ النبي ﷺ كان يقول بعد ركعتي الفجر: «**اللهم رب جبريل وإسرافيل وميكائيل، ومحمد النبي أعوذ بك من النار**».

قال النووي في «الأذكار»: رواه ابن السُّنِّي، وقال الحافظ بعد تخريجه: «هو حديث حسن»(٢).

وتخصيص هؤلاء بالذكر في معنى التوسل بهم، فكأنه يقول: «اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بجبريل... إلخ».

وقد أشار ابن عَلّان إلى هذا في «الشرح»، فقال: «فالتوسل إلى الله بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة، له تأثير عظيم في حصول الحاجات ووصول المهمات». وكذا صرح ابن علّان في «شرح الأذكار» بمشروعية التوسل فقال معلقًا على حديث: «اللهم إني أسألك بحق السائلين»: «فيه التوسل بحق أرباب الخير على سبيل العموم من السائلين، ومثلهم بالأَوْلى الأنبياء والمرسلون»(٣).

معنى توسل عمر بالعباس رضي الله عنهما

أخرج البخاري في «صحيحه» عن أنس: أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانوا إذا قحطوا، استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا».

وأخرج الزبير بن بكار في «الأنساب» من طُرُقٍ، وغيره هذه القصة بأبسط من هذا، **وتلخيصها**: عن عبد الله بن عمر قال: استسقى عمر بن الخطاب عام الرمادة ـ بفتح الراء وتخفيف الميم، سميت بذلك لكثرة تطاير الرماد لاحتباس

---

(١) رواه أبو يعلى، والطبراني، وزاد: «سيحبسه عليكم»، وفيه معروف بن حسان وهو ضعيف. اهـ. «مجمع الزوائد» ١٠: ١٣٢.

(٢) ابن علان؛ «شرح الأذكار» ٢: ١٣٩.

(٣) ابن علان؛ «شرح الأذكار» ٢: ٣٩.

المطر ـ بالعباس بن عبد المطلب فخطب الناس فقال: «يا أيّها الناس! إن رسول الله صلّى الله عليه وسلم كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد، فاقتدوا أيها الناس برسول الله ﷺ في عمه العباس، واتخذوه وسيلة إلى الله، ادعُ يا عباس». فكان من دعائه رضي الله عنه: اللهم إنه لم ينزل بلاء إلّا بذنب ولم يكشف إلّا بتوبة، وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث واحفظ اللهم نبيك في عمه، فأرْخَت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس. وأقبل الناس على العباس يتمسحون به، ويقولون له: هنيئًا لك يا ساقي الحرمين، وقال عمر رضي الله عنه عند ذلك: هذا والله الوسيلة إلى الله، والمكان منه.

وفي ذلك أنشد عباس بن عتبة ابن أخيه أبياتًا منها:

بِعَمِّي سَقَى اللَّهُ الْحِجَازَ وَأَهْلَهُ عَشِيَّةَ يَسْتسقي بِشَيْبَتِهِ عُمَرْ

وقال ابن عبد البر: «وفي بعض الروايات: فأرخت السماء عزاليها فجاءت بأمثال الجبال حتى استوت الحفر بالآكام وأخصبت الأرض وعاش الناس، فقال عمر رضي الله عنه: هذا والله الوسيلة إلى الله عز وجل، والمكان منه. وقال حسان بن ثابت:

سَأَلَ الْإِمَام وَقَدْ تَتَابَعَ جَدْبُنَا فَسَقَى الْغَمَامُ بِغُرَّةِ الْعَبَّاسِ
عَمِّ النَّبِيِّ وَصِنْوِ وَالِدِهِ الَّذي وَرِثَ النَّبِيَّ بِذَاكَ دُونَ النَّاسِ
أَحْيَا الْإِلٰهُ بِهِ الْبِلَادَ فَأَصْبَحَتْ مُخْضَرَّةَ الْأَجْنَابِ بَعْدَ الْيَاسِ

وقال الفضل بن عباس بن عتبة:

بِعَمِّي سَقَى اللَّهُ الْحِجَازَ وَأَهْلَهُ عَشِيَّةَ يستسقي بِشَيْبَتِهِ عُمَرْ
تَوَجَّهَ بِالْعَبَّاسِ فِي الْجَدْبِ رَاغِبًا فَمَا كَرَّ حَتَّى جَاءَ بِالدِّيمَةِ الْمَطَرْ

وفي رواية: وطفق الناس بالعباس يمسحون أركانه ويقولون: هنيئًا لك ساقي الحرمين». كذا في «الاستيعاب» لابن عبد البر في ترجمة العباس رضي الله عنه.

وكان الحق لعمر رضي الله عنه في أن يَؤُمّ الناس مستسقيًا لهم، لكنه تأخر عن حقه وقَدّم العباس رضي الله عنه للاستسقاء؛ تعظيمًا لرسول الله ﷺ، وتفخيمًا لأهله، وتقديمًا لعمه صلى الله عليه وآله وسلم على نفسه؛ مبالغة في التوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما استطاع، وحث الناس على اتخاذ العباس وسيلة إلى الله جل شأنه، وكذلك اتخذه هو وسيلة بتقديمه ليدعو ليقيمه بذلك مقام رسول الله ﷺ حين كان حيًّا، فاستسقى لهم بالمُصَلّىٰ، ليكون أبلغ في تعظيمه، والإشادة بفضل أهل بيته.

وَبَيّنَ عمر رضي الله عنه ذلك في دعائه حيث قال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا». يعني: كنا نتوسل إليك بخروجه بالناس إلى المُصَلّىٰ ودعائه لهم وصلاته بهم، وإذ قد تعذر ذلك علينا بوفاته عليه الصلاة والسلام، فإني أُقَدّمُ من هو من أهل بيته ليكون الدعاء أرجى للقبول وأرجى للإجابة.

ولما دعا العباس رضي الله عنه تَوسّل برسول الله ﷺ حيث قال: «وقد تقرّب القوم بي لمكاني من نبيك - أي لقرابتي منه - فاحفظ اللهم نبيك في عمه». يعني: اقبل دعائي لأجل نبيك ﷺ.

فالقضية في الاستسقاء، ولا صلة لها بالتوسل الذي نحن بصدد الكلام عنه والذي وقع فيه الخلاف، وهذا أمر يعرفه كل ذي عينين؛ لأنَّ القصة تدل على هذا بوضوح، فقد أصابهم القحط واحتاجوا إلى إقامة الاستغاثة بصلاة الاستسقاء، وهذا يحتاج إلى إمام يصلي بهم ويدعو لهم ويقيم هذه الشعيرة الإسلامية التي كان يقيمها النبي ﷺ لَمَّا كان في دار التكليف كغيرها من شعائر الدين؛ من إمامة وجمعة وخطبة، فهي وظائف تكليفية لا يقوم بها أهل البرزخ؛ لانقطاع التكليف عنهم واشتغالهم بما هو أعظم من ذلك.

ومَنْ فهم مِنْ كلام أمير المؤمنين أنه إنما توسل بالعباس ولم يتوسل برسول الله ﷺ لأنَّ العباس حَيٌّ والنبي مَيّت، فقد مات فهمه وغلب عليه وَهْمُه، ونادى على نفسه بجهالة ظاهرة، أو عصبية لرأيه قاهرة؛ فإنَّ عمر لم يتوسل بالعباس رضي الله عنهما إلّا لقرابته من رسول الله ﷺ، كما تلمح ذلك من

قوله: «وَإنَّا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا»، وهو بذلك قد تَوسّل برسول الله ﷺ على أبلغ الوجوه.

وقد بَعُدَ عن الصواب كُلَّ البُعدِ من رمى المسلمين بالشرك بسبب ذلك مع قوله بجواز التوسلِ بالحي، فإنَّ التوسل لو كان شركًا؛ ما جاز بالحي ولا الميت؛ ألا ترى أنَّ اعتقاد الربوبية واستحقاق العبادة لغير الله من نبي أو ملك أو وَليٍّ؛ هو شرك وكفر، لا يجوز هنا في حياته الدنيا ولا الآخرة؟!

فهل سمعت من يقول: إنَّ اعتقاد الربوبية لغير الله جائز إذا كان حيًّا؛ أما بعد وفاته فشرك؟!

وقد عرفت أنَّ اتخاذ المعظَّم وسيلة إلى الله تعالى، لا يكون عبادة للوسيلة إلَّا إذا اعتقد أنه رب، كما كان ذلك شأن عباد الأوثان مع أوثانهم، فإذا لم يعتقد ذلك فيه وكان مأمورًا منه عز وجلّ باتخاذه وسيلة؛ كان ذلك الاتخاذ عبادة للآمر سبحانه.

قِصَّةُ العُتْبِي في التَّوسُّل

قال الإمام الحافظ الشيخ عماد الدين ابن كثير: «ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الصباغ في كتابه «الشامل» الحكاية المشهورة عن العتبي قال: كنت جالسًا عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، وقد جئتك مستغفرًا لذنبي مستشفعًا بك إلى ربي. ثم أنشد يقول:

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بِالْقَاعِ أَعْظُمُهُ فَطَابَ مِنْ طِيبِهِنَّ الْقَاعُ وَالْأَكَمُ
نَفْسِي الْفِدَاءُ لِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ فِيهِ الْعَفَافُ وَفِيهِ الْجُودُ وَالْكَرَمُ

ثم انصرف الأعرابي، فغلبتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: «الحَقْ الأعرابي فبشِّره أن الله قد غفر له»».

فهذه القصة رواها الإمام النووي في كتابه المعروف بـ «الإيضاح»[1]،

---

(١) «الإيضاح» ص٤٩٨.

ورواها أيضًا الحافظ عماد الدين ابن كثير في «تفسيره» الشهير عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: ٦٤].

ورواها أيضًا الشيخ أبو محمد ابن قدامة في كتابه «المُغْني»[١]، ونقلها أيضًا الشيخ أبو الفرج ابن قدامة في كتابه «الشرح الكبير»[٢]، ونقلها أيضًا الشيخ منصور بن يونس البهُوتي في كتابه المعروف بـ «كشاف القناع»[٣]، من أشهر كتب المذهب الحنبلي[٤].

وذكر الإمام القرطبي عمدة المفسرين قصة تشبهها في تفسيره المعروف بـ «الجامع لأحكام القرآن» قال: رَوىٰ أبو صادق، عن علي قال: قدم علينا أعرابي بعدما دفنًّا رسول الله ﷺ بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على قبر رسول الله ﷺ وَحَثَا على رأسه من ترابه فقال: قلتَ يا رسول الله فسمعنا قولك، ووعيت عن الله فوعينا عنك، وكان فيما أنزل الله عليك ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: ٦٤]، وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي، فنودي من القبر: أنه قد غفر لك[٥].

هذه قصة العتبي، وهؤلاء هم الذين نقلوها، وسواء أكانت صحيحة أم ضعيفة من ناحية السند الذي يعتمد عليه المُحَدِّثون في الحُكم على أي خبر،

---

(١) «المغني» ٣:٥٥٦.
(٢) «الشرح الكبير» ٣:٤٩٥.
(٣) «كشاف القناع» ٥:٣٠.
(٤) قول صحيح لا غبار عليه، وكلمة (روى) تستعمل في كل ما ينقله العلماء من الأحاديث والأخبار والآثار المرفوعة والموقوفة والمقطوعة، وهو ظاهر من صنيع العلماء، ولكن لا يعرفه إلا أهله.

وقد زعم بعض المخالفين أن كلمة (رواه) لا تقال إلا لمن ساق حديثًا وأسنده عن مشايخه إلى منتهاه، ولا ندري من أين جاء بهذه القاعدة التي لا أصل لها ولا قائل بها، ومن المعروف عند أهل العلم أن الأصول ليست بالاجتهاد، ولا بالاختراع.

ثم إن العلماء يروون أخبارًا وآثارًا كثيرة ويذكرونها في مؤلفاتهم بلا سند كمعلقات البخاري، ومنقطعات وبلاغات الموطأ، فمنها ما حذف أول سنده ومنها ما لا سند له، ويقولون فيها: رواه البخاري، ورواه مالك، ومثل هذا يصنعه النووي في كتابه «الأذكار».

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» ٥:٢٦٥.

فإننا نتساءل ونقول: هل نقل هؤلاء الكفر والضلال؟ أو نقلوا ما يدعو إلى الوثنية وعبادة القبور؟!

إذا كان الأمر كذلك، فأي ثقة فيهم أو في كتبهم؟! سبحانك هذا بهتان عظيم.

أبياتُ العُتْبِي على شُبّاكِ النبي ﷺ

تَقدّم ذكر البيتين اللّذين أنشدهما الأعرابي عند زيارته للنبي ﷺ، ورواهما العتبي وهما:

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بِالْقَاعِ أَعْظُمُهُ فَطَابَ مِنْ طِيبِهِنَّ الْقَاعُ وَالْأَكَمُ
نَفْسِي الْفِدَاءُ لِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ فِيهِ الْعَفَافُ وَفِيهِ الْجُودُ وَالْكَرَمُ

وهما مكتوبان بفضل الله على المواجهة النبوية الشريفة في العمود الذي بين شباك الحجرة النبوية، يراهما القاصي والداني منذ مئات السنين حتى في عهد المرحوم الملك عبد العزيز، فالملك سعود، فالملك فيصل، فالملك خالد رحمهم الله تعالى، فالملك فهد خادم الحرمين الشريفين حفظه الله، وسيبقيان بإذن الله بناء على توجيهات خادم الحرمين بالمحافظة على كل ما في المسجد النبوي الشريف، وعدم إزالة أيّ أثر قديم.

الخُلَاصَةُ

والخلاصة أنه مما لا شك فيه: أنَّ النبي ﷺ له عند الله قَدرٌ عَليٌّ ومرتبة رفيعة وجاه عظيم، فأي مانع شرعي أو عقلي يمنع التوسل به، خصوصًا وقد جاءت الأدلة التي تثبته في الدنيا والآخرة، ولسنا في ذلك سائلين غير الله تعالى، ولا داعين إلّا إياه، فنحن ندعوه بما أحب أيًا كان، تارة نسأله بأعمالنا الصالحة لأنه يحبها، وتارة نسأله بمن يحبه من خلقه؛ كما في حديث آدم عليه السلام السابق، وكما في حديث فاطمة بنت أسد رضي الله عنها الذي ذكرناه، وكما في حديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه المتقدم، وتارة نسأله بأسمائه الحسنى كما في قوله ﷺ: **«أسألك بأنك أنت الله»**، أو بصفته أو فعله؛ كما في

قوله ﷺ في الحديث الآخر: «**أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك**»، وليس مقصورًا على تلك الدائرة الضيقة التي يظنها المتعنتون.

وَسِرُّ ذلك: أنَّ كل ما أحبه الله صح التوسل به، وكذا كل من أحبه من نبي أو وليّ، وهو واضح لدى كل ذي فطرة سليمة، ولا يمنع منه عقل ولا نقل، بل تضافر العقل والنقل على جوازه، والمسؤول في ذلك كله الله وحده لا شريك له، لا النبي ولا الولي ولا الحي ولا الميت، ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

وإذا جاز السؤال بالأعمال فبالنبي ﷺ أولى؛ لأنه أفضل المخلوقات، والأعمالُ منها، والله أعظم حبًّا له ﷺ من الأعمال وغيرها، وليت شعري ما المانع من ذلك، واللفظ لا يفيد شيئًا أكثر من أنَّ للنبيّ ﷺ قدرًا عند الله، والمتوسل لا يريد غير هذا المعنى، ومن ينكر قدره ﷺ عند الله؛ فهو كافر كما قلنا.

وبعد؛ فمسألة التوسل تدل على عظمة المسؤول به ومحبته، فالسؤال بالنبي إنما هو لعظمته عند الله أو لمحبته إياه، وذلك مما لا شك فيه، على أنَّ التوسل بالأعمال متفق عليه، **فلماذا لا نقول**: إنَّ من يتوسل بالأنبياء أو الصالحين هو متوسل بأعمالهم التي يحبها الله، وقد ورد حديث أصحاب الغار فيكون من محل الاتفاق؟

ولا شك أنَّ المتوسل بالصالحين إنما يتوسل بهم من حيث إنهم صالحون، فيرجع الأمر إلى الأعمال الصالحة المتفق على جواز التوسل بها، كما قلنا في صدر هذا البحث.

شُبهَةٌ مَرْدُودَةٌ

فهذه الأحاديث والآثار كلها تثبت التوسل وتؤيده، **فإن قيل**: إنَّ ذلك خاص بحياته ﷺ.

فالجواب: أنَّ هذا التخصيص لا دليل عليه خصوصًا، وأنَّ الروح باقية وهي التي يكون بها الإحساس والإدراك والشعور.

ومذهب أهل السُّنة والجماعة: أنَّ الميت يسمع ويحس ويشعر، وأنه ينتفع بالخير ويفرح، ويتأذى بالشر ويحزن، وهذا بالنسبة لكل إنسان، ولذا نادى ﷺ أهل القليب من كفار قريش يوم بدر فقال: «**يا عتبة! يا شيبة! يا ربيعة!**»، فقيل له: كيف تناديهم وقد جَيَّفُوا؟ فقال: «**ما أنتم بأسمع منهم لكنهم لا يستطيعون الجواب**».

فإذا كان هذا عامًّا لكل إنسان، فكيف بأفضل البشر وأكرمهم وأجلهم؟! لا شك أنه أكمل إحساسًا وأتم إدراكًا وأقوى شعورًا، على أنه قد جاء التصريح في الأحاديث الكثيرة بأنه يسمع الكلام ويرد السلام، وَتُعرَضُ عليه أعمال الأمة، وأنه يستغفر لسيئاتهم، ويحمد الله على حسناتهم.

وقيمة الإنسان في الحقيقة إنما هي بمقدار شعوره وإحساسه وإدراكه لا بحياته، ولذلك نرى كثيرًا من الأحياء قد حرمهم الله تعالى الإحساس والشعور الإنساني، مع بَلَادة الطبع وقلة الذوق، فهؤلاء لا يُنتفع بهم، بل هم في صفوف الأموات والعياذ بالله.

زَعْمُ بَعضِ الجَهلةِ أنَّ النبي ﷺ لا يَسمعُنا ولا يَرانا، ولا يَعرِفُنا

ومن هؤلاء الموتى: من زعم أنَّ النبي ﷺ لا يسمع ولا يرى، ولا يعرف عنا ولا يدعو الله تعالى لنا، فأي جرأة أعظم من هذا؟ وأي جهل أقبح من هذا؟ إضافة إلى سوء الأدب والانتقاص لقدر النبي ﷺ، ولقد تضافرت الأحاديث والآثار التي تُثْبِتُ أنَّ الميت يسمع ويحس ويعرف، سواء أكان مؤمنًا أم كافرًا.

قال ابن القيم في كتاب «الروح»: «والسلف مجمعون على هذا، وقد تواترت الآثار عنهم».

وقد سئل الشيخ ابن تيمية عن هذه المسألة، فأفتى بما يؤيد ذلك[١].

فإذا كان هذا في حق عامة البشر، فما بالك بعامة المؤمنين، بل بخاصة

---

(١) انظر «الفتاوى» لابن تيمية، ٢٤: ٣٣١، ٣٦٢.

عباد الله الصالحين، بل بسيد الأولين والآخرين سيدنا محمد ﷺ، وقد فَصّلنا هذه المسألة في مبحث خاص بها في كتابنا هذا بعنوان: «الحياة البرزخية حياة حقيقية» وبعنوان «حياة خاصة بالنبي ﷺ».

بَيانُ أسماء المُتَوسِّلينَ من أئمّةِ المُسلمين(١)

ونذكر هنا أسماء أشهر من يقول بالتوسل، أو من نَقَلَ أدلته من كبار الأئمة وَحُفّاظ السُّنة:

(١) ذكر المؤلف في هذا الفصل: أسماء جملة من العلماء الذين يقولون بالتوسل، ثم بين مع كل اسم وجه مأخذ ذلك منه إما بطريق التصريح أو الاستظهار، فهو استنباط من مؤلف المفاهيم واجتهاد في محله، ولو سرد الأسماء تحت العنوان المذكور بدون بيان وجه الاستنباط لكان ذلك تدليسًا فرضي الله عن الإنصاف وأعاذنا الله من الجهل والعصبية.

ثم إن هذا الاستنباط صحيح ولا غبار عليه في نظر المؤلف ومن يوافقه وذلك لأن التوسل من مسائل العقيدة في نظر المنتقد المعترض، فكيف ينقل هؤلاء الأئمة «حديث آدم وغيره وقصة العتبي»، وهي تدل على التوسل وتدعو إليه صراحة وتحث على فعله.

أقول: كيف ينقل هؤلاء مثل ذلك ثم لا ينهون عنه في محله، ولا يحذرون منه في موضعه المناسب فهو إما تقصير منهم (وحاشا ذلك)، أو رضا به، وهذا الذي يراه المؤلف. وهذه النقول صحيحة ثابتة في محلها عن أهلها، وللمؤلف رسالة خاصة عن التوسل تعرض فيها بالتفصيل لأقوال العلماء ونصوصهم.

وكثير من هؤلاء العلماء الذين أنكر المنتقد قولهم بالتوسل مستدلًا على ذلك بكلامهم في الحديث، أقول: كثير من هؤلاء هم من القائلين بالتوسل، وحملة لوائه ودعاته المدافعين عنه كالقاضي عياض والسيوطي وابن حجر والقسطلاني والزرقاني والخفاجي، وقد أخطأ المنتقد خطأ واضحًا لا عذر فيه بنفيه ذلك عن النووي، والخفاجي والقسطلاني.

فأما النووي فقد صرح به في كتابه الإيضاح بل أمر الزائر أن يتوسل ويستشفع بصاحب المقام المحمود صلى الله عليه وسلم فأي كذب أقبح من هذا، وأما الخفاجي فقد صرّح بذلك وصحح الحديث، فقال: هو صحيح (نسيم الرياض ج٣ ص٣٩٨). وأما القسطلاني فقد صرّح بذلك في فصل خاص وحث على التوسل بكل ما أوتي من قوة (المواهب ج٢ ص٣٩٢) طبعة دار الكتب. ولا يمكن استقصاء البحث في هذه العجالة وإنما أردنا إيراد بعض الأمثلة التي تؤكد الحق الذي ندعو إليه ونؤمن به والباطل الذي يروج له المخالفون.

١ ـ فمنهم الإمام الحافظ، أبو عبد الله الحاكم في كتابه «المستدرك على الصحيحين»، فقد ذكر حديث توسل آدم بالنبي ﷺ، وصَحَّحهُ.

٢ ـ ومنهم الإمام الحافظ، أبو بكر البيهقي في كتابه «دلائل النبوة»، فقد ذكر حديث تَوَسُّل آدم وغيره، وقد التزم أن لا يُخْرِجَ الموضوعات.

٣ ـ ومنهم الإمام الحافظ، جلال الدين السيوطي في كتابه «الخصائص الكبرى»، فقد ذكر حديث توسل آدم.

٤ ـ ومنهم الإمام الحافظ، أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه «الوفا»، فقد ذكر الحديث وغيره.

٥ ـ ومنهم الإمام الحافظ، القاضي عياض في كتابه «الشفا في التعريف بحقوق المصطفى» ﷺ، فقد ذكر في «باب الزيارة» و«باب فضل النبي ﷺ» كثيرًا من ذلك.

٦ ـ ومنهم الإمام الشيخ، نور الدين القاري المعروف بِمُلّا علي القاري في شرحه على «الشفا» في المواطن السابقة.

٧ ـ ومنهم العلامة، أحمد شهاب الدين الخفاجي في شرحه على «الشفا» المسمى بـ «نسيم الرياض»، في المواطن السابقة.

٨ ـ ومنهم الإمام الحافظ، شهاب الدين القسطلاني في كتابه «المواهب اللدنية» في «المقصد الأول» من الكتاب.

٩ ـ ومنهم العلامة الشيخ، محمد عبد الباقي الزرقاني في شرحه على «المواهب» ١ : ٤٤.

١٠ ـ ومنهم الإمام شيخ الإسلام، أبو زكريا يحيى النووي في كتابه «الإيضاح» في «الباب السادس» ص٤٩٨.

١١ ـ ومنهم العلامة، ابن حجر الهيتمي في حاشيته على «الإيضاح»، ص٤٩٩.

١٢ ـ ومنهم الحافظ شهاب الدين محمد بن محمد بن الجزري الدمشقي في كتابه «عدة الحصن الحصين» في «فضل الدعاء».

١٣ ـ ومنهم العلامة الإمام، محمد بن علي الشوكاني في كتابه «تحفة الذاكرين» ص١٦١.

١٤ ـ ومنهم العلامة الإمام المُحَدِّث، علي بن عبد الكافي السبكي في كتابه «شفاء السقام في زيارة خير الأنام» ﷺ.

١٥ ـ ومنهم الحافظ عماد الدين ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: ٦٤]. فقد ذكر قصة العتبي مع الأعرابي الذي جاء زائرًا قاصدًا مستشفعًا بالنبي ﷺ، ولم يعترض عليها بشيء، وذكر قصة توسل آدم بالنبي ﷺ في «البداية والنهاية» ١: ١٨٠ ولم يحكم بوضعها.

وذكر قصة الرجل الذي جاء إلى قبر النبي ﷺ وتوسل به وقال: «إن إسنادها صحيح»، في «البداية والنهاية» ١: ٩١.

وذكر أنَّ شعار المسلمين يوم اليمامة: «يا محمّداه»، في «البداية والنهاية» ٦: ٣٢٤.

١٦ ـ ومنهم الإمام الحافظ، ابن حجر العسقلاني الذي ذكر قصة الرجل الذي جاء إلى قبر النبي ﷺ وتوسل به وصحح سندها في «فتح الباري» ٢: ٤٩٥.

١٧ ـ ومنهم الإمام المفسر، أبو عبد الله القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: ٦٤] ٥: ٢٦٥.

الصَّحابَةُ يَطلُبونَ من النبي ﷺ الشفاعة

زعم بعضهم: أنه لا يجوز أن تُطلبَ الشفاعة من النبي ﷺ في الدنيا، بل ذهب البعض الآخر من المتعنتين إلى أنَّ ذلك شرك وضلال، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، وهذا الاستدلال باطل، يدل على فهمهم الفاسد، وذلك من وجهين:

أولًا: أنه لم يرد نَصٌّ لا في الكتاب ولا في السُّنة ينهى عن طلب الشفاعة من النبي ﷺ في الدنيا.

ثانيًا: أنَّ هذه الآية لا تدل على ذلك، بل شأنها شأن غيرها من الآيات

التي جاءت لبيان اختصاص الله سبحانه وتعالى بما هو مُلْكٌ له دون غيره؛ بمعنى أنه هو المُتَصرّفُ فيه، وهذا لا ينفي أنه يعطيه من يشاء إذا أراد، فهو مَالِكُ المُلكِ يعطي المُلكَ من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ونظير هذا قوله عز وجل: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التغابن: ١]، ووصف نفسه أنه مالك الملك مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠﴾ [فاطر: ١٠] مع قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨٠]، وكذلك في الشفاعة قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] مع قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٨٧﴾ [مريم: ٨٧]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾ [الزخرف: ٨٦] ، فكما أنه سبحانه وتعالى أعطى من المُلكِ من شاء ما شاء، وجعل من العزة التي هي له ما شاء لرسوله ﷺ والمؤمنين، كذلك الشفاعة كلها له، وقد أعطاها للأنبياء وعباده الصالحين، بل وكثيرٍ من عامة المؤمنين كما نطقت به صحاح الأحاديث المتواترة تواترًا معنويًا.

وأيّ حرج في أن يطلب الإنسان من المالك بعض ما يملكه، لا سيما إذا كان المسؤول كريمًا، والسائل في أشد الحاجة إلى ما سأله، وهل الشفاعة إلّا الدعاء والدعاء مأذون فيه، مقدور عليه، مقبول من المؤمنين لا سيما الأنبياء والصالحين في الحياة وبعد الوفاة في القبر ويوم القيامة، فالشفاعة معطاة لمن اتخذ عند الله عهدًا، ومقبولة لديه عز وجل في كل من مات على التوحيد.

وقد ثبت أنَّ بعض الصحابة سأل النبي ﷺ الشفاعة، ولم يقل ﷺ: إنَّ طلبك الشفاعة مني شرك، فاطلبها من الله ولا تشرك بربك أحدًا.

فهذا أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: يا نبي الله! اشفع لي يوم القيامة، فيقول له ﷺ: «**أنا فاعل**»[1]، وكذلك سأل الشفاعة غير أنس.

---

(١) رواه الترمذي في «السنن»، «كتاب صفة القيامة» باب (ما جاء في شأن الصراط) وحَسّنهُ.

وهذا سواد بن قارب يقول بين يَدَيْ رسول الله ﷺ:

وَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَأَنَّكَ مَأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائِبِ
وَأَنَّكَ أَدْنَى الْمُرْسَلِينَ وَسِيلَةً إِلَى اللَّهِ يَا ابْنَ الْأَكْرَمِينَ الْأَطَايِبِ

إلى أن قال:

فَكُنْ لِي شَفِيعًا يَوْمَ لَا ذُو شَفَاعَةٍ سِوَاكَ بِمُغْنٍ عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبِ[١]

وأقره رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه طلب الشفاعة منه.

وطلب الشفاعة منه أيضًا مازن بن الغضوبة لما جاء مسلمًا، وأنشد يقول:

إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ خَبَّتْ[٢] مَطِيَّتِي
تَجُوبُ[٣] الْفَيَافِي[٤] مِنْ عُمَانَ إِلَى الْعَرْجِ[٥]
لِتَشْفَعَ لِي يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الْحَصَا
فَيَغْفِرَ لِي رَبِّي فَأَرْجِعَ بِالْفَلْجِ[٦][٧]

وطلب الشفاعة منه عُكَّاشة بن محصن حين ذكر ﷺ السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، فقال عكاشة: ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال مباشرة وبلا مراجعة: «**أنت منهم**».

ومعلوم أنه لا ينال أحد كائنًا من كان هذه الأسبقية إلَّا بعد شفاعته الكبرى ﷺ في أهل الموقف؛ كما هو ثابت في الأحاديث المتواترة، فهذا في معنى طلب الشفاعة.

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة»، وابن عبد البر في «الاستيعاب»، وذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري شرح صحيح البخاري» ٧: ١٨٠ في باب (إسلام عمر رضي الله عنه).

(٢) خبت: من الخَبب ـ محركة ـ، وهو ضَربٌ من العدو.

(٣) تجوب: تقطع.

(٤) الفيافي: جمع فيفاء، وهي الصحراء الواسعة المستوية.

(٥) العرج: اسم موضع بين الحرمين على ثمانية وسبعين ميلًا من المدينة المنورة.

(٦) الفَلْج: ـ بسكون اللام ـ الظفر والفوز.

(٧) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» ٢: ٢٥٧.

ونظائر هذا كثيرة في كتب السُّنة المشرفة، وهي كلها تدل على جواز طلب الشفاعة منه ﷺ في الدنيا، منهم من طلبها بالتعيين بقوله: اشفع لي، أو طلب دخول الجنة، أو طلب أن يكون من السابقين، أو طلب أن يكون من أهل الحوض، أو طلب مرافقته في الجنة؛ كما حصل من ربيعة الأسلمي إذ قال: أسألك مرافقتك في الجنة، فأرشده النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطريق بقوله: «**أعني على نفسك بكثرة السجود**»، ولم يقل له ولا لغيره ممن طلب الجنة أو طلب المعية أو تمنى أن يكون من أهل الجنة، أو أن يكون من أهل الحوض، أو أن يكون من المغفور لهم: إنَّ هذا حرام، ولا يجوز أن يطلب الآن، وإنَّ وقته لم يأت، وانتظر حتى يأذن الله في الشفاعة، أو في دخول الجنة، أو في الشرب من الحوض؛ مع أنَّ هذه الأمور المطلوبة كلها لا تكون إلَّا بعد الشفاعة العظمى، فهي في معنى طلب الشفاعة، والنبي ﷺ بشَّرهم بذلك ووعدهم بما جبر خواطرهم وأقر أعينهم، وحاشا أن يكون ذلك ممنوعًا ثم لا يبين لهم حكمه مجاملة أو مداراة ـ وهو الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم ـ وإنما يجبر الخواطر، ويُرضي النفوس بما هو دائر في فلك الحق، ونابع من أصل الدين وبعيد عن كل باطل أو نفاق.

وإذا صح طلب الشفاعة منه في الدنيا قبل الآخرة؛ فإنَّ معنى ذلك أنه سينالها حقيقة في محلها يوم القيامة، وبعد أن يأذن الله تعالى للشفعاء بالشفاعة، لا أنه ينالها هنا قبل وقتها.

وهذا في الحقيقة نظير بشارته بالجنة لكثير من المؤمنين، فإنَّ معناه أنهم سيدخلون الجنة يوم القيامة، وبعد أن يأذن الله تعالى بالدخول في الوقت المعلوم، لا أنه سيدخلها هنا في الدنيا أو البرزخ، ولا أظن أنَّ عاقلًا من عوام المسلمين يعتقد خلاف ذلك.

وإذا صح طلب الشفاعة منه في الدنيا في حياته، فإننا نقول: لا بأس بطلبها منه أيضًا بعد موته ﷺ بناء على ما هو مقرر عند أهل السُّنة والجماعة من حياة الأنبياء الحياة البرزخية، ونبينا محمد ﷺ أكملهم وأعظمهم في ذلك؛ إذ يسمع الكلام، وتُعرَضُ عليه أعمال الأمة ويستغفر اللَّهَ لهم ويحمد الله، وتبلغه

صلاة من يصلي عليه ولو كان في أقصى المعمورة؛ كما جاء في الحديث الذي صححه جمع من الحفاظ وهو: «**حياتي خير لكم تُحْدِثُون وَيُحْدَثُ لكم، ووفاتي خير لكم تُعرَضُ عليَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شرٍ استغفرت الله لكم**».

هذا الحديث صححه من الحفاظ: أبو زرعة العراقي، والهيثمي والقسطلاني، والسيوطي، وإسماعيل القاضي، وقد فصلنا تخريجه في غير هذا الموضع.

فلو طلبت منه الشفاعة فإنه قادر على أن يدعوَ الله ويسأله، كما كان يفعل في حياته، ثم ينالها العبد في محلها بعد أن يأذن الله تعالى، كما تحصل الجنة لمن بشَّر بها في الدنيا، فإنه ينالها في وقتها بعد أن يأذن الله بدخول الجنة، فهذه وتلك سواء. **هذا ما نعتقده ونعقد عليه قلوبنا**.

تَفسِيرُ ابن تَيمية لآيات الشَّفاعة

ويستفاد منه جواز طلب الشفاعة من النبي ﷺ في الدنيا

ذكر الشيخ ابن تيمية في «الفتاوى» تحليلًا نفيسًا للآيات الواردة في منع الشفاعة وعدم الانتفاع بها، والنهي عن طلبها، مع أنَّ هذه الآيات هي التي يستدل بها بعضهم على منع طلب الشفاعة من النبي ﷺ في الدنيا.

ويظهر من كلام الشيخ ابن تيمية في معنى تلك الآيات: أنَّ الاستدلال بها على ما يزعمون في غير محله، وتحريف لها عن مواضعها.

قال الشيخ: «واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، وبقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وبقوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨]، وبقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨].

وجواب أهل السُّنة: أنَّ هذا يراد به شيئان:

أحدهما: أنها لا تنفع المشركين؛ كما قال تعالى في نعتهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ

فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٢ ـ ٤٨] فهؤلاء نفي عنهم نفع شفاعة الشافعين؛ لأنهم كانوا كفارًا.

والثاني: أنه يراد بذلك نفي الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك ومن شابههم من أهل البدعة؛ من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أنَّ للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه؛ كما يشفع الناس بعضهم عند بعض، فيقبل المشفوع إليه شفاعة شافع لحاجته إليه رغبة ورهبة، وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة.

فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين، ويصورون تماثيلهم فيتشفعون بها ويقولون: هؤلاء خواص الله».

قُلْتُ: هذا كلام الشيخ ابن تيمية بلفظه، ومنه يظهر جليًّا حقيقة هذه الآيات التي يستدل بها المنكرون لطلب الشفاعة من النبي ﷺ في الدنيا، أو القائلون بأنها شرك وضلال.

وخلاصة كلامه: هو أنَّ المراد بذلك: هو أنَّ الشفاعة لا تنفع المشركين، فالآيات واردة في هذه القضية، أو أنَّ المراد بذلك: هو نفي الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك؛ وهي أن يعتقد أنَّ الشافع يملك ذلك بغير إذن الله سبحانه وتعالى، وهذا الذي ذكره الشيخ هو ما نعتقده بفضل الله.

ونقول: إنَّ طالب الشفاعة منه ﷺ إن اعتقد أو ظن أنه ﷺ يشفع بغير إذن الله؛ فهذا شرك أو ضلال لا نشك في ذلك ولا نرتاب، ولكنه حاشا وكلّا، ثم حاشا وكلا، ثم حاشا وكلا أن نعتقد ذلك أو نظنه، ونبرأ إلى الله من ذلك.

وإننا حين نطلب الشفاعة، فإننا نعتقد تمام الاعتقاد أنه لا يشفع أحد إلَّا بإذنه سبحانه وتعالى، ولا يقع شيء إلَّا برضاه وتأييده.

وإنما هذا كطلب دخول الجنة، وطلب الشرب من الحوض المورود وطلب النجاة على الصراط، فكلها لا تحصل إلَّا بإذن الله وفي وقتها الذي

قدره الله تعالى لها، وهل يشك في ذلك عاقل أو يخفى على من له أدنى معرفة أو قراءة في كتب السلف من أصغر طلاب العلم الشريف؟!

اللهم افتحْ مَسَامِعَ قلوبنا، ونوّر أبصارَنا.

إيّاك نَعبُد وإيّاك نَسْتَعِين

إننا نعتقد اعتقادًا جازمًا لازمًا لا شك فيه ولا ريب: أنَّ الأصل في الاستعانة والاستغاثة والطلب والنداء والسؤال، هو أن تكون لله سبحانه وتعالى فهو المعين والمغيث والمجيب.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٦، ١٠٧]، وقال: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف: ٥]، وقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، فالعبادة بجميع أنواعها لا بد أن تُصرَفَ لله وحده ولا يجوز صرف شيء منها لغير الله كائنًا من كان؛ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

فلا نَذْر إلا لله، ولا دعاء إلَّا له، ولا ذبح إلَّا له، ولا استغاثة ولا استعاذة ولا استعانة ولا حلف إلَّا بالله، ولا توكل إلَّا عليه سبحانه وتعالى عما يشرك به المشركون علوًّا كبيرًا.

ونحن نعتقد أنَّ الله هو الخالق للعباد وأفعالهم، لا تأثير لأحد سواه، لا لحي ولا ميت، وليس لأحد مع الله فعل أو ترك أو رزق أو إحياء أو إماتة، وليس أحدٌ من الخلق قادرًا على الفعل أو الترك بنفسه استقلالًا دون الله، أو بالمشاركة مع الله، أو أدنى من ذلك.

فالمتصرف في الكون هو الله سبحانه وتعالى، ولا يملك أحد شيئًا إلَّا إذا مَلّكهُ الله ذلك وأذن له في التصرف فيه، ولا يملك أحد لنفسه - فضلًا عن غيره - نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا إلَّا ما شاء الله بإذن الله، فالنفع

والضر حينئذ محدودان بهذا الحد، ومقيدان بهذا القيد ونسبتهما إلى الخلق على سبيل التسبب والتكسب، لا على سبيل الخلق أو الإيجاد أو التأثير أو العلة أو القوة، والنسبة في الحقيقة مَجَازِيَّة ليست حقيقية، ولكن الناس يختلفون في التعبير عن هذه الحقائق[1]، **فمنهم**: من يُسرِفُ في استعمال المجاز إسرافًا شديدًا، حتى يقع في شبه لفظية هو منها بريء، وقلبه سليم منعقد على كمال التوحيد والتنزيه لله سبحانه وتعالى.

ومنهم: من يتمسك بالحقيقة تمسكًا زائدًا على حد الاعتدال، فيصل به إلى التعنت والتشدد والإساءة إلى الناس بمعاملتهم على خلاف معتقدهم وحملهم على ما لا يقصدون، وإلزامهم بما لا يريدون، والحكم عليهم بما هم منه بريئون.

والواجب الاعتدال والبُعْد عن كل ذلك؛ فهو أَسلَمُ للدين وأحوط في حماية مقام التوحيد، والله أعلم.

وقد ذكر الشيخ ابن تيمية خلاصة موجزة مفيدة في بيان ما يختص بالحق سبحانه وتعالى، وهو عين ما نعتقده وندين الله تعالى به؛ لأنَّ عقيدتنا سلفية بفضل الله، وطريقتنا محمدية، ونقول بهذا الذي يقول به ابن تيمية.

قال الشيخ ابن تيمية: «واللَّهُ قد جعل له حقًّا لا يشركه فيه مخلوق، فلا تصلح العبادة إلَّا له، ولا الدعاء إلَّا له، ولا التوكل إلَّا عليه، ولا الرغبة إلَّا إليه، ولا الرهبة إلَّا منه، ولا ملجأ ولا منجى منه إلَّا إليه، ولا يأتي بالحسنات إلَّا هو، ولا يذهب السيئات إلَّا هو، ولا حول ولا قوة إلَّا به، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢]،

---

(١) هذه النقطة مفصلة في مبحث خاص بها بعنوان: «المجاز العقلي واستعماله».

فجعل الطاعة لله وللرسول، وجعل الخشية والتقوى لله وحده، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٥٩]، فالإيتاء لله والرسول، وأما التوكل فعلى الله وحده، والرغبة إلى الله وحده»[(١)].

الاستِعَانةُ والتَّوجُّهُ بالطَّلبِ للنبي ﷺ

ذكرنا فيما تَقدّم: أننا نعتقد اعتقادًا جازمًا لا شك فيه ولا ريب أنَّ الأصل في الاستعانة والاستغاثة والطلب والنداء والسؤال، هو أن تكون لله سبحانه وتعالى؛ فهو المعين والمغيث والمجيب، يقول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، فمن استعان بمخلوق أو استغاث به أو ناداه أو سأله أو طلبه سواء كان حيًّا أو ميتًا، معتقدًا أنه ينفع أو يضر بنفسه استقلالًا دون الله؛ فقد أشرك، ولكن الله أجاز للخلق أن يستعين بعضُهم ببعض، وأن يستغيث بعضُهم ببعض، وأمر من استُعين أن يُعين، ومن استُغيث أن يغيث، ومن نُودي أن يجيب، والأحاديث في هذا كثيرة جدًّا كلها تدل على إغاثة الملهوف وإعانة المحتاج وتفريج الكربات، والنبي ﷺ أعظم من يُستغاث به إلى الله سبحانه وتعالى في كشف الكربات وقضاء الحاجات.

فأيُّ شِدّةٍ أكبر من شدة يوم القيامة حين تطول الوقفة وتشتد الزحمة، ويتضاعف الحر ويلجم العرق من شاء الله، ومع عِظَمِ هذه الشدة وبلوغها الغاية؛ فإنَّ الناس يستغيثون إلى الله بخيرة خلقه، كما قال الرسول ﷺ: «**وبينما هم كذلك استغاثوا بآدم**» الحديث، وقد عبر فيه ﷺ بلفظ: «الاستغاثة»، وهو بهذا اللفظ في «صحيح البخاري».

وقد كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يستعينون به ﷺ ويستغيثون به، ويطلبون منه الشفاعة، ويشكون حالهم إليه من الفقر والمرض والبلاء، والدَّيْن والعجز، ويفزعون إليه عند الشدائد ويطلبون منه ويسألونه، معتقدين أنه ليس إلَّا واسطة وسببًا في النفع والضر، والفاعل حقيقة هو الله.

---

(١) ابن تيمية؛ «الفتاوى»، ١١ :٩٨.

أبو هريرة رضي الله عنه يشكو النسيان:

أخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه شكا إلى النبي ﷺ النسيان لما يسمعه من حديثه الشريف، وهو يريد أن يزول عنه ذلك، فقال رضي الله عنه: يا رسول الله! إني أسمع منك حديثًا كثيرًا فأنساه؛ فأحب أن لا أنسى، فقال ﷺ: «ابسط رداءك»، فبسطه فقذف بيده الشريفة من الهواء في الرداء ثم قال: «ضُمَّهُ». فَضمَّهُ، قال أبو هريرة: فما نسيت شيئًا بعده[(١)].

فها هو أبو هريرة يطلب منه عليه الصلاة والسلام عدم نسيان شيء، وهو مما لا يقدر عليه إلَّا الله عز وجل، فلم ينكره ولم يرمِهِ بالشرك، لِمَا يعلم كل أحد أنَّ المُوحّد إذا طلب شيئًا من ذوي الجاه عند الله، فلا يريد منهم أن يخلقوا شيئًا، ولا هو معتقد فيهم شيئًا من ذلك، وإنما يريد أن يتسببوا له بما أقدرهم الله عليه من دعاء وما شاء الله من تصرف.

وها أنت ذا ترى أنه عليه الصلاة والسلام أجابه إلى مطلبه، ولم يَرِد أنه دعا له في هذه القصة، وإنما غرف له من الهواء، وألقاه في الرداء وأمره فضمه إلى صدره، فجعل الله ذلك ـ تفضلًا ـ سببًا لقضاء حاجته.

وكذلك لم يقل له عليه الصلاة والسلام: ما لك تسألني والله أقرب إليك مني؟ لما هو معلوم عند كل أحد أنَّ المُعوَّل عليه في قضاء الحوائج ممن بيده مقاليد الأمور، إنما هو أقربية الطالب منه عز وجل وكمال مكانته عنده.

قتادة رضي الله عنه يستغيث به لإصلاح عينه:

وقد ثبت أنَّ قتادة بن النعمان أصيبت عينه فسالت حدقته على وجنتيه فأرادوا أن يقطعوها، فقال: لا، حتى أستأمر رسول الله ﷺ؛ فاستأمره، فقال: «لا». ثم وضع راحته على حدقته، ثم غمزها، فعادت كما كانت، فكانت أصحَّ عينيه[(٢)].

---

(١) رواه البخاري في «كتاب العلم»، باب (حفظ العلم).

(٢) رواه البغوي، وأبو يعلى، وأخرجه الدارقطني، وابن شاهين، والبيهقي في «الدلائل»، ونقله الحافظ ابن حجر في «الإصابة» ٣: ٢٢٥، والحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٤: ٢٩٧، والحافظ السيوطي في «الخصائص الكبرى».

وآخر يَستعِينُ به ﷺ في زَوالِ سلْعَتِهِ:

عن مخلد بن عقبة بن عبد الرحمن بن شرحبيل، عن جده عبد الرحمٰن، عن أبيه، قال: أتيت رسول الله ﷺ وَبِكَفّي سلْعةٌ فقلت: يا نبي الله! هذه السّلعةُ قد أورمتني، تحول بيني وبين قائم السيف أن أقبض عليه، وعن عِنَان الدابة، فقال رسول الله ﷺ: «ادنُ مني» فدنوت منه، ثم قال: «افتح يدك» ففتحتها، ثم قال: «اقبضها» فقبضتها. قال: «ادن مني» فدنوت ففتحها فنفث في كفي، ثم وضع يده على السلعة، فما زال يطحنها بكفّهِ حتى رفعها عنها وما أرى أثرها»[1]. والسّلْعةُ: غُدّةٌ تظهر بين الجلد واللحم.

معاذ رضي الله عنه يطلب منه ﷺ إصلاح يده:

وفي يوم بدر؛ ضرب عكرمة بن أبي جهل معاذ بن عمرو بن الجموح على عاتقه أثناء القتال؛ يقول معاذ: فضرب يدي فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني القتال عنه؛ فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي، فلما آذتني؛ وضعت عليها قدمي ثم تمطيت عليها حتى طرحتها.

قال في «المواهب»: وجاء معاذ بن عمرو يحمل يده ـ وضربه عليها عكرمة ـ إلى رسول الله ﷺ، كما ذكر القاضي عياض، عن ابن وهب، فبصق عليه الصلاة والسلام عليها؛ فلصقت[2].

الاستعانة والاستغاثة به ﷺ إلى الله في البلاء:

وقد استفاضت النصوص الصحيحة التي تنطق بأنهم كانوا إذا أصابهم القحط وانقطع عنهم المطر، فزعوا إليه مستشفعين متوسلين طالبين مستغيثين به إلى الله، فيعرضون عليه حالهم، ويشكون ما نزل بهم من البلاء والشر.

فهذا أعرابي يناديه وهو ﷺ يخطب يوم الجمعة ويقول: يا رسول الله! هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادعُ الله أن يغيثنا. فدعا الله وجاء المطر إلى

---

(١) رواه الطبراني، وذكره الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد»، ٨: ٢٩٨.

(٢) ذكر هذه القصة الزرقاني وأسندها إلى ابن إسحاق، ومن طريقه الحاكم.

الجمعة الثانية، فجاء وقال: يا رسول الله! تهدمت البيوت وتقطعت السبل وهلكت المواشي ـ يعني من كثرة المطر ـ، فدعا ﷺ فانجاب السحاب وصار المطر حول المدينة[١].

وروى أبو داود بسند جيد عن عائشة رضي الله عنها قالت: شكا الناس إلى رسول الله ﷺ قحوط المطر[٢].

وأخرج البيهقي في «دلائل النبوة» بسند ليس فيه متهم بالوضع ـ وانظر «فتح الباري»[٣] ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ أعرابيًّا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أتيناك وما لنا بعير يئط[٤]، ولا صبي يغط[٥]، ثم أنشد:

أَتَيْنَاكَ وَالْعَذْرَاءُ يَدْمَى[٦] لِبَانُهَا[٧]
وَقَدْ شُغِلَتْ أُمُّ الصَّبِيِّ عَنِ الطِّفْلِ
وَأَلْقَى بِكَفَّيْهِ الْفَتِيُّ[٨] اسْتِكَانَةً
مِنَ الْجُوعِ ضَعْفًا مَا يُمِرُّ ولا يُحْلِي[٩]
وَلَا شَيْءَ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ عِنْدَنَا
سِوَى الْحَنْظَلِ الْعَامي[١٠] والْعِلْهِزِ[١١] الْفَسْلِ[١٢]

---

(١) رواه البخاري في «كتاب الاستسقاء»، (باب سؤال الناس الإمام إذا قحطوا).
(٢) رواه أبو داود في «كتاب الصلاة»، (باب رفع اليدين في الاستسقاء).
(٣) ابن حجر، «فتح الباري»، ٢: ٤٩٥.
(٤) يئط: ـ بفتح فكسر فطاء مشددة ـ أي يصوّت.
(٥) يغط: كيئط، وزنًا ومعنىً، والكلام كناية عن شدّة الفقر والجوع والقحط.
(٦) يدمى: كيسعى.
(٧) اللبان: ـ بفتح اللام آخره نون ـ الصدر، وهو كناية عن أنها تمتهن نفسها ولا تجد من يخدمها لضيق ذات يدها من الجدب.
(٨) الفتي: ـ كغني ـ الشاب.
(٩) ما يمرّ ولا يحلي: أي ما ينطق بشرّ ولا بخير من جوعه وضعفه، من أمرّ وأحلى.
(١٠) العامي: نسبة إلى العام أي السنّة، لأن الحنظل يتخذ في عام الجدب.
(١١) العِلْهِز: ـ بكسر فسكون فكسر ـ طعام من الدم والوبر كان يُتّخذ في المجاعة.
(١٢) الفَسْلُ: ـ بفتح الفاء وسكون السين المهملة ـ الرديء.

وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا إِلَيْكَ فِرَارُنَا
وَأَيْنَ فِرَارُ النَّاسِ إِلَّا إِلَى الرُّسْلِ

فقام يجرُّ رداءه حتى صعد المنبر، فرفع يديه فقال: «**اللهم اسقنا غيثًا مغيثًا**[١]**، مريعًا**[٢]**، غدقًا طبقًا**[٣]**، نافعًا غير ضار، عاجلًا غير رائث**[٤]**، تملأ به الضرع، وتنبت به الزرع، وتحيي به الأرض بعد موتها**»، قال: فما رد رسول الله ﷺ يديه حتى ألقت السماء بأرواقها[٥]، وجاء الناس يضجون: الغرق.. الغرق، فقال ﷺ: «**حوالينا ولا علينا**» فانجاب السحاب عن المدينة.

فانظر كيف أسند ﷺ الإغاثة والنفع ونحوهما إلى الغيث على سبيل المجاز في الإسناد، وكيف أقر الشاعر على قوله: «وليس لنا إلَّا إليك فرارنا * البيت»، ولم يعده مشركًا، لأنَّ القصر فيه إضافي، وهل كان يخفى عليه ﷺ قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وقد أنزلت عليه؟

والمعنى: أن الفرار المرجو نفعه المؤكد خيره، إليك لا إلى من دونك، وإلى الرسل لا إلى من دونهم، فإنَّ المرسلين أعلى من يتوسل بهم إلى الله عز وجل، وأعظم من يقضي الله الحوائج على أيديهم للملتجئين إليهم والمستغيثين. وتأمل جيدًا تأثره ﷺ الشديد بما أنشده هذا الشاعر، وشدة سرعته إلى نجدتهم وإغاثتهم؛ حيث قام إلى المنبر يجر رداءه ولم يتمهل حتى يصلحه استعجالًا لإجابة داعيه، وإسراعًا إلى إغاثة مناديه، عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام.

النبي ﷺ هو رُكْنُنا وَعِصمتُنا ومَلاذُنَا:

ولقد ناداه حسان بن ثابت رضي الله عنه ووصفه بأنه الركن الذي يعتمد

---

(١) المُغيث: بضم الميم.

(٢) المريع: ـ بفتح الميم ـ المُخْصِب.

(٣) غَدَقًا طبقًا: ـ بالتحريك فيهما ـ معناه: الكثير العام.

(٤) غير رائث: غير مُبطئ، من رَاث ـ بالثاء ـ إذا أبطأ.

(٥) أرواقها: مياهها الصافية، جمع روق، كدلو.

عليه، والعصمة الذي يلجأ إليه، فقال:

يَا رُكْنَ مُعْتَمِدٍ وَعِصْمَةَ لَائِذٍ وَمَلَاذَ مُنْتَجِعٍ[١] وَجَارَ مُجَاوِرِ
يَا مَنْ تَخَيَّرَهُ الْإِلٰهُ لِخَلْقِهِ فَحَبَاهُ بِالْخُلُقِ الزَّكِيِّ الطَّاهِرِ
أَنْتَ النَّبِيُّ وَخَيْرُ عُصْبَةِ آدَمٍ يَا مَنْ يَجُودُ كَفَيْضِ بَحْرٍ زَاخِرِ
مِيكَالُ مَعْكَ وَجِبْرَئِيلُ كِلَاهُمَا مَدَدٌ لِنَصْرِكَ مِنْ عَزِيزٍ قَاهِرِ[٢]

حَمزةُ فَاعِلُ الخَيرات وَكَاشِفُ الكُرُبَات

عند ابن شاذان من حديث ابن مسعود: ما رأينا رسول الله ﷺ باكيًا قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب؛ وضعه في القِبلة، ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نشغ من البكاء يقول: «**يا حمزة! يا عم رسول الله! وأسد الله وأسد رسوله! يا حمزة يا فاعل الخيرات! يا حمزة يا كاشف الكربات! يا حمزة يا ذابًا عن وجه رسول الله!**». اهـ[٣].

لا فَرْقَ بين الحَياة والمَوت:

فإن قال قائل: إنَّ الاستغاثة به ﷺ وشكوى الحال إليه وطلب الشفاعة والعون منه، وكل ما يكون في هذا الباب؛ إنما يصح في حياته، أما بعد موته فهو كفر، وربما تسامح فقال: غير مشروع، أو قال: لا يجوز.

فنقول: إنَّ الاستغاثة والتوسل إن كان المصحح لطلبهما هو الحياة كما يقولون، فالأنبياء أحياء في قبورهم، وغيرهم من عباد الله المرْضيِّين كذلك.

ولو لم يكن للفقيه من الدليل على صحة التوسل والاستغاثة به ﷺ بعد وفاته، إلَّا قياسه على التوسل والاستغاثة به في حياته الدنيا لكفى؛ فإنه حيٌّ في الدارَيْن، دائم العناية بأمته، مُتَصرفٌ بإذن الله في شؤونها، خبير بأحوالها تعرض عليه صلوات المصلين عليه من أمته، ويبلغه سلامهم على كثرتهم.

---

(١) منتجع: طالب للمعروف.

(٢) انظر «الاستيعاب» ١: ٢٦٤.

(٣) القسطلاني؛ «المواهب اللدنية» ١: ٢١٢.

ومن اتسع علمه بشؤون الأرواح وما جعلها الله عليه من الخصائص ـ لا سيما العالية منها ـ اتسع قلبه للإيمان بذلك، فكيف بروح الأرواح ونور الأنوار نبينا عليه الصلاة والسلام؟!

ولو كان طلب الشفاعة أو الاستغاثة أو التوسل به عليه الصلاة والسلام شركًا وكفرًا ـ كما توهموا ـ؛ لما جاز في حال من الأحوال، لا في الحياة الدنيا ولا في الحياة الأخرى، لا يوم القيامة ولا قبلها؛ فإنَّ الشرك ممقوت عند الله في كل حال.

دَعوى بَاطِلة

أما دعوى أنَّ الميت لا يقدر على شيء فهي باطلة؛ لأنه إن كان ذلك لكونهم يعتقدون أنَّ الميت صار ترابًا، فهذا عين الجهل بما ورد عن نبينا ﷺ، بل عن ربنا جل جلاله من ثبوت حياة الأرواح وبقائها بعد مفارقة الأجسام، ومناداة النبي ﷺ لها يوم بدر: «**يا عمرو بن هشام! ويا عتبة بن ربيعة! ويا فلان بن فلان! إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟**» فقيل له: ما ذلك؟ فقال: «**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**».

ومن ذلك: تسليمه على أهل القبور ومناداته لهم بقوله ﷺ: «**السلام عليكم يا أهل الديار**».

ومن ذلك: عذاب القبر ونعيمه، وإثبات المجيء والذهاب إلى الأرواح إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة التي جاء بها الإسلام، وأثبتتها الفلسفة قديمًا وحديثًا.

ولنقتصر هنا على هذا السؤال:

أيعتقدون أنَّ الشهداء أحياء عند ربهم؛ كما نطق القرآن بذلك أم لا؟ فإن لم يعتقدوا فلا كلام لنا معهم؛ لأنهم كذبوا القرآن حيث يقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٤]... ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وإن اعتقدوا ذلك فنقول لهم: إنَّ الأنبياء وكثيرًا من صالحي المسلمين الذين ليسوا بشهداء، كأكابر الصحابة أفضل من الشهداء بلا شك ولا مرية فإذا ثبتت الحياة للشهداء؛ فثبوتها لمن هو أفضل منهم أَوْلى، على أنَّ حياة الأنبياء مصرح بها في الأحاديث الصحيحة.

فإذًا نقول: حيث ثبتت حياة الأرواح بالأدلة القطعية، فلا يسعنا بعد ثبوت الحياة إلَّا إثبات خصائصها؛ فإنَّ ثبوت الملزوم يوجب ثبوت اللازم، كما أنَّ نفي اللازم يوجب نفي الملزوم، كما هو معروف.

وأي مانع عقلًا من الاستغاثة إلى الله بها، والاستمداد منها، كما يستعين الرجل بالملائكة في قضاء حوائجه، أو كما يستعين الرجل بالرجل، (وأنت بالروح لا بالجسم إنسان).

وتصرفات الأرواح على نحو تصرفات الملائكة لا تحتاج إلى مماسّة ولا آلة، فليست على نحو ما تعرف من قوانين التصرفات عندنا؛ فإنها من عالم آخر، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، وماذا يفهمون من تصرف الملائكة، أو الجن في هذا العالم؟.

ولا شك أنَّ الأرواح لها من الإطلاق والحرية ما يُمَكِّنها من أن تجيب من يناديها، وتغيث من يستغيث بها كالأحياء سواء بسواء، بل أشد وأعظم.

فإن كانوا لا يعرفون إلَّا المحسوسات ولا يعترفون إلَّا بالمشاهدات فهذا هو شأن الطبيعيين لا المؤمنين، على أننا نَتنزّلُ معهم ونسلّم لهم أنَّ الأرواح بعد مفارقة الأجساد لا تستطيع أن تعمل شيئًا، ولكن نقول لهم: إذا فرضنا ذلك وسلَّمنا جدلًا، فلنا أن نُقرر أنه ليست مساعدة الأنبياء والأولياء للمستغيثين بهم من باب تصرف الأرواح في هذا العالم، بل مساعدتهم لمن يزورهم أو يستغيث بهم بالدعاء لهم؛ كما يدعو الرجل الصالح لغيره، فيكون من دعاء الفاضل للمفضول، أو على الأقل من دعاء الأخ لأخيه، وقد علمت أنهم أحياء يشعرون ويحسون ويعلمون، بل الشعور أتم والعلم أعم بعد مفارقة الجسد، لزوال الحجب الترابية، وعدم منازعة الشهوات البشرية.

وقد جاء في الحديث[1] أنَّ أعمالنا تُعرَضُ عليه ﷺ، فإن وجد خيرًا حمد الله وإن وجد غير ذلك استغفر لنا، **ولنا أن نقول**: إنَّ المستغاث به والمطلوب منه الإغاثة هو الله تعالى، ولكن السائل يسأل متوسلًا إلى الله بالنبي ﷺ أن يقضي حاجته، فالفاعل هو الله، ولكن أراد السائل أن يسأله تعالى ببعض المقرَّبين لديه الأكرمين عليه، فكأنه يقول: أنا من محبيه (أو محسوبيه) فارحمني لأجله، وسيرحم الله كثيرًا من الناس لأجل النبي ﷺ وغيره من الأنبياء والأولياء والعلماء.

وبالجملة: فإكرام الله لبعض أحباب النبي ﷺ لأجل نبيه - بل بعض العباد لبعض - أمر معروف غير مجهول، ومن ذلك الذين يصلون على الميت ويطلبون من الله أن يكرمه ويعفو عنه لأجلهم بقولهم: وقد جئناك شفعاء فشفعنا.

هل طَلبُ ما لا يَقدِرُ عليه إلَّا الله شرك؟

ومن جملة الدعاوي الباطلة التي يتمسّك بها هؤلاء المكفرون لمن يتوسل بالنبي ﷺ أو يطلب منه: قولهم: إنَّ الناس يطلبون من الأنبياء والصالحين الميتين ما لا يقدر عليه إلَّا الله، وذلك الطلب شرك.

وجوابه: أنَّ هذا سُوء فَهمٍ لما عليه المسلمون في قديم الدهر وحديثه؛ فإن الناس إنما يطلبون منهم أن يتسببوا عند ربهم في قضاء ما طلبوه من الله عز وجل؛ بأن يخلقه سبحانه بسبب تشفعهم ودعائهم وتوجههم، كما صح ذلك في الضرير وغيره ممن جاء طالبًا مستغيثًا متوسلًا به إلى الله، وقد أجابهم إلى طلبهم وجبر خواطرهم وحقق مرادهم بإذن الله، ولم يقل ﷺ لواحد منهم: أشركت.

وهكذا كل ما طلب منه من خوارق العادات؛ كشفاء الداء العضال بلا دواء، وإنزال المطر من السماء حين الحاجة إليه ولا سحاب، وقلب الأعيان، ونبع الماء من الأصابع، وتكثير الطعام، وغير ذلك فهو مما لا يدخل تحت قدرة البشر عادة، وكان يجيب إليه ولا يقول عليه الصلاة والسلام لهم: إنكم أشركتم فجددوا إسلامكم، فإنكم طلبتم مني ما لا يقدر عليه إلَّا الله.

---

(١) ذكرنا هذا الحديث في غير موضع من هذا الكتاب مع تخريجه.

أفيكون هؤلاء أعلم بالتوحيد وبما يُخرِجُ عن التوحيد من رسول الله ﷺ وأصحابه، هذا ما لا يتصوره جاهل فضلًا عن عالم.

وَحكىٰ القرآن المجيد قول نبي الله سليمان لأهل مجلسه من الجن والإنس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [النمل: ٣٨]، فهو يطلب منهم الإتيان بالعرش العظيم من اليمن إلى موضعه بالشام على طريقة خارقة للعادة؛ ليكون ذلك آية لصاحبته داعية إلى إيمانها.

ولما قال عفريت من الجن: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩]، يعني في ساعات قليلة، قال نبي الله عليه الصلاة والسلام: أريد أعجل من ذلك، فقال الذي عنده علم من الكتاب وهو أحد الصديقين من أهل مجلسه من الإنس: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]؛ يعني قبل أن يرجع إليك طرفك إذا أرسلته، فقال عليه الصلاة والسلام: ذلك أريد. فدعا الرجل فإذا بالعرش بين يديه.

فالإتيان بالعرش على هذه الطريقة هو مما لا يقدر عليه إلَّا الله، وليس داخلًا تحت مقدور الإنس ولا الجن عادة، وقد طلبه سليمان من أهل مجلسه، وقال ذلك الصِّدِّيقُ له: أنا أفعل ذلك، أفكفر نبي الله سليمان بذلك الطلب وأشرك ولي الله بهذا الجواب؟ حاشاهما من ذلك، وإنما إسناد الفعل في الكلامين على طريقة المجاز العقلي، وهو سائغ بل شائع.

وكشف الخفاء عن هذا اللبس ـ إن كان ثَمَّ خفاء ـ هو أنَّ الناس إنما يطلبون منهم التشفع إلى الله في ذلك، وهو مما أقدرهم الله عليه، ومَلّكهم إياه، فالقائل: يا نبي الله! اشفني أو اقض ديني، فإنما يريد: اشفع لي في الشفاء، وادع لي بقضاء دَيْني، وتوجه إلى الله في شأني؛ فهم ما طلبوا منهم إلَّا ما أقدرهم الله عليه وَمَلّكهم إياه من الدعاء والتشفع.

وهذا هو الذي نعتقده فيمن قال ذلك وندين الله على هذا، فالإسناد في كلام الناس من المجاز العقلي الذي لا خطر فيه على من نطق به؛ كقوله سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ [يس: ٣٦]، وقوله عليه الصلاة والسلام «**إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطًا أو يلم**».

وهو في كلام الله ورسوله ﷺ والخاصة والعامة كثير جدًّا، وليس فيه محذور؛ فإنَّ صدوره من الموحدين قرينة على مرادهم، وليس فيه شيء من سوء الأدب، وقد فصلنا هذه الحقيقة في مبحث خاص بها من هذا الكتاب.

«إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعِن بالله»[1]

وهذا الحديث يخطئ كثير من الناس في فهمه؛ إذ يستدل به على أنه لا سؤال ولا استعانة مطلقًا من كل وجه وبأي طريق إلَّا بالله، ويجعل السؤال والاستعانة بغير الله من الشرك المُخْرِج عن الملة، وهو بهذا ينفي الأخذ بالأسباب والاستعانة بها، ويهدم كثيرًا من النصوص الواردة في هذا الباب.

والحَقُّ أنَّ هذا الحديث الشريف ليس المقصود به النهي عن السؤال والاستعانة بما سوى الله كما يفيده ظاهر لفظه، وإنما المقصود به: النهي عن الغفلة عن أنَّ ما كان من الخير على يد الأسباب فهو من الله، والأمر بالانتباه إلى أنَّ ما كان من نعمة على يد المخلوقات فهو من الله وبالله، **فالمعنى**: وإذا أردت الاستعانة بأحد من المخلوقين، ولا بد لك منها، فاجعل كل اعتمادك على الله وحده، ولا تَحْجبنَكَ الأسباب عن رؤية المسبِّب جل جلاله، ولا تكن ممن يعلمون ظاهرًا من هذه الارتباطات والعلاقات بين الأشياء المترتب بعضها على بعض، وهم عن الذي ربط بينها غافلون.

وقد أومأ هذا الحديث نفسه إلى هذا المعنى، وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام عقب هذه الجملة الشريفة: «**واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلَّا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلَّا بشيء قد كتبه الله عليك**». فأثبت لهم كما ترى نفعًا وضرًّا بما كتبه الله للعبد، أو عليه.

فهذا منه ﷺ يوضح مراده. وكيف ننكر الاستعانة بغيره؛ وقد جاء الأمر

---

(١) هذا طرف من الحديث المشهور الذي رواه الترمذي وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا.

بها في مواضع كثيرة من الكتاب والسُّنة، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وحكىٰ عن العبد الصالح ذي القرنين قوله: ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: ٩٥]، وفي مشروعية صلاة الخوف الثابتة بالكتاب والسُّنة مشروعية استعانة بعض الخلق ببعض، وكذا في أمره تعالى المؤمنين بأن يأخذوا حذرهم من عدوهم.

وكذا في ترغيبه عليه الصلاة والسلام للمؤمنين في قضاء حوائج المحتاجين، والتيسير على المُعْسِر والتفريج عن المكروب، وفي ترهيبه من إهمال ذلك، وهو في السُّنة كثير؛ رَوىٰ الشيخان عنه صلى الله عليه وسلم قال: «**من كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته**».

وروىٰ: مسلم، وأبو داود وغيرهما عنه عليه الصلاة والسلام قال: «**واللَّهُ في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**».

وَروىٰ الطبراني عنه ﷺ قال: «**إنَّ لله خلقًا خلقهم لحوائج الناس يفزع الناس إليهم في حوائجهم، أولئك الآمنون من عذاب الله**».

فانظر إلى قوله ﷺ: «**يفزع الناس إليهم في حوائجهم**»، ولم يجعلهم مشركين، بل ولا عاصين.

وروى الطبراني أيضًا مرفوعًا: «**إنَّ لله عند أقوام نِعَمًا أقرها عندهم ما كانوا في حوائج المسلمين ما لم يَملُّوهُم، فإذا مَلُّوهُم نقلها إلى غيرهم**».

وَروىٰ هو، وابن أبي الدنيا عنه ﷺ قال: «**إن لله أقوامًا اختصهم بالنِّعَم لمنافع العباد، يقرهم فيها ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها منهم فحوَّلها إلى غيرهم**».

قال الحافظ المنذري: «ولو قيل بتحسين سنده؛ لكان ممكنًا».

وقال ﷺ: «**لأن يمشي أحدكم مع أخيه في قضاء حاجته ـ وأشار بأصبعه ـ أفضل من أن يعتكف في مسجدي هذا شهرين**»[1].

---

(١) رواه الحاكم، وقال: «صحيح الإسناد» كذا في «الترغيب» ٣: ٣٧٢.

وإذا سألت فاسأل الله

أما قوله ﷺ: **«وإذا سألت فاسأل الله»**، فإنه لا مستمسك فيه، ولا دليل لمنع السؤال أو التوسل، ومن فهم من ظاهره منع السؤال من الغير مطلقًا، أو منع التوسل بالغير على الإطلاق فقد أخطأ الطريق وغالط نفسه كل المغالطة؛ وذلك لأنَّ من اتخذ الأنبياء والصالحين وسيلة إلى الله، لجلب خير منه عز وجل أو دفع شر كذلك، فهو ليس إلَّا سائلًا الله وحده أن يُيَسِّرَ له ما طلب، أو يصرف عنه ما ساء متوسلًا إليه بمن توسل به، وهو في ذلك آخذ بالسبب الذي وضعه الله لينجح العبيد في قضاء حوائجهم منه عز وجل، ومن أخذ بالسبب الذي أمر الله بسلوكه لنيل جوده فما سأل السبب؛ بل سأل واضعه، فقول القائل: يا رسول الله! أريد أن ترد عيني، أو أن يزول عنا البلاء، أو أن يذهب مرضي، فمعنى ذلك طلب هذه الأشياء من الله بواسطة شفاعة رسوله ﷺ، وهو كقوله: ادع لي بكذا واشفع لي في كذا، لا فرق بينهما إلَّا أنَّ هذا أصرح في المراد من ذلك، ومثلهما في ذلك أو أوضح قول المتوسل: اللهم إني أسألك بنبيك تيسير كذا مما ينفع، أو دفع كذا من الشر.

فالمتوسل في ذلك كله ما سأل في حاجته إلَّا الله عز وجل.

وبهذا تعلم: أنَّ الاحتجاج على منع التوسل بقوله عليه الصلاة والسلام: **«إذا سألت فاسأل الله»** هو مغالطة في حمل الحديث على ما هو ظاهر الفساد من أنه لا يصح لأحد أن يسأل غير الله شيئًا، فإنَّ من فهم هذا من الحديث فقد أخطأ الخطأ كله. **ويكفي في بيان هذا الخطأ:** أنَّ الحديث نفسه إنما هو جواب منه عليه الصلاة والسلام لسؤال ابن عباس راوي الحديث بعد تشويق رسول الله ﷺ له أن يسأله، فإنه قال له: **«يا غلام! ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن»**. فأي تحريض على السؤال أجمل من هذا؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما: بلى، فأجابه عليه الصلاة والسلام بهذا الحديث الذي منه هذه الجملة.

ولو جرينا على هذا الوهم، ما صح على مقتضاه أن يسأل جاهل عالمًا،

ولا واقعٌ في مهلكة غوثًا، ممن تتوقف نجاته على إغاثته، ولا دائن مدينًا قضاء ما عليه، ولا مستقرض قرضًا، ولما صح للناس يوم القيامة أن يسألوا النبيين الشفاعة، ولا صح لنبي الله عيسى أن يأمرهم بسؤالها سيد المرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام؛ فإنَّ الدليل على مقتضى هذا الوهم الذي توهموه عام، يشمل عدم صحة ما ذكرناه وما لم نذكره.

فإن قالوا: إنَّ الممنوع إنما هو سؤال الأنبياء والصالحين من أهل القبور في برازخهم لأنهم غير قادرين، فقد سبق رد هذا الوهم مبسوطًا، **وإجماله**: أنهم أحياء سامعون قادرون على الشفاعة والدعاء، وحياتهم حياة برزخية لائقة بمقامهم يصح بها نفعهم بالدعاء والاستغفار، والمنكر لذلك أخف أحواله أنه جاهل بما كاد يلحق بالمتواتر من سنته عليه الصلاة والسلام، الدال على أنَّ موتى المؤمنين لهم في حياتهم البرزخية العلم والسماع والقدرة على الدعاء وما شاء الله من التصرفات، فما الظن بأكابر أهل البرزخ من النبيين وسائر الصالحين؟!

وفي حديث الإسراء والمعراج الصحيح - بل المشهور - ما فعل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع خيرهم محمدٍ ﷺ؛ من الصلاة خلفه والخطبة بين يديه والدعاء له في السموات، حتى أنَّ الأمة ما ظفرت بتخفيف خمسين صلاة إلى خمس في كل يوم وليلة بشفاعته ﷺ المتعددة إلَّا بعد إشارة كليم الله موسى بن عمران بها عليه صلى الله عليهما وسلم.

وبهذا يتبين: أنَّ المقصود من الحديث ليس ما توهموه، فإنه فاسد واضح الفساد كما تبين، وإنما المقصود منه الترهيب من سؤال الناس أموالهم بلا حاجة طمعًا فيها، والترغيب في القناعة بما يسر الله من الخير ولو كان قليلًا، والتعفف عما لا تدعو إليه الحاجة مما بأيدي الناس، وأن يستغني بسؤال الله من فضله؛ فإنه يحب المُلحِّينَ في الدعاء، والناس على العكس من ذلك كما قال القائل:

اللَّهُ يَغْضَبُ إنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

فالمعنى: أنك إذا رأيت في يد أحد من المال ما أعجبك وطمحت إليه نفسك، فلا تسأله ما في يده، واستغن بسؤال الله من فضله عن سؤال عبده، فالحديث إرشاد إلى القناعة، والتنزه عن الطمع، وأين هذا من سؤال الله بأنبيائه وأوليائه، أو سؤال أنبيائه الشفاعة للسائلين فيما جعل الله شفاعتهم فيه الذي هو من أقوى الأسباب في النجاح، ولكن الإنسان إذا ركب الهوى؛ شَطَّ به في مجال الأوهام، وخرج به عن جادة الأفهام.

«إنه لا يُستغاث بي»

جاء في الحديث أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال أبو بكر الصديق: قوموا بنا لنستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: **«إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله»**[1].

وهذا الحديث قد يستدل به من يقول بمنع الاستغاثة به ﷺ، وهذا استدلال باطل من أصله، وذلك لأنه لو أجراه على ظاهره؛ لكان المقصود به منع الاستغاثة به ﷺ مطلقًا، كما هو ظاهر اللفظ، وهذا مَنقُوضٌ بفعل الصحابة معه ﷺ؛ إذ كانوا يستغيثون ويستسقون به، ويطلبون منه الدعاء، وهو يستجيب لذلك بفرح وسرور، وحينئذٍ فلا بد من تأويله بما يناسب عمومات الأحاديث لينتظم شمل النصوص.

فنقول: إنَّ المراد بقوله ذلك: هو إثبات حقيقة التوحيد في أصل الاعتقاد؛ وهو أنَّ المُغِيث حقيقة هو الله تعالى، والعبد ما هو إلَّا واسطة في ذلك، أو أنه أراد أن يعلمهم أنه لا يطلب من العبد ما لا يقدر عليه؛ كالفوز بالجنة والنجاة من النار، والهداية التي هي العصمة من الغواية، وضمان الختم على السعادة.

والحديث لا يدل على تخصيص الاستعانة والاستغاثة بالحي دون الميت، ولا يمتُّ بصلة إلى هذا التفريق، بل إنَّ ظاهره يمنع الاستغاثة أبدًا بما سوى الله،

---

(١) رواه الطبراني في معجمه «الكبير»، قال في «مجمع الزوائد» ١٥٩/١٠: رجاله رجال الصحيح، وفيه عبد الله بن لهيعة.

دون تفريق بين حي وميت، وهذا غير مقصود لما قدمناه.

وقد أشار الشيخ ابن تيمية في «الفتاوى» إلى نحو هذا المعنى حيث قال: «قد يكون في كلام الله ورسوله ﷺ عبارة لها معنى صحيح، ولكن بعض الناس يفهم من تلك غير مراد الله ورسوله ﷺ فهذا يُرد عليه فهمه؛ كما رَوىٰ الطبراني في «معجمه الكبير» أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال أبو بكر الصديق: قوموا بنا لنستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «**إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله**».

فهذا إنما أراد به النبي ﷺ المعنى الثاني، وهو أن يطلب منه ما لا يقدر عليه إلَّا الله، وإلَّا فالصحابة كانوا يطلبون منه الدعاء ويستسقون به كما في «صحيح البخاري» عن ابن عمر قال: ربما تذكَّرت الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبي ﷺ يستسقي فما ينزل حتى يَجِيش له مِيزابٌ:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ[1] الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ[2]

أَلفاظٌ مُستعمَلةٌ وَردت في هذا الباب

وقد وردت ألفاظ في مدح النبي ﷺ حصل بسببها اللَّبسُ عند بعضهم، فحكم بالكفر على قائليها؛ وذلك كقولهم:

ليس لنا مَلاذٌ سوى النبي ﷺ.

ولا رجاء إلَّا هو.

وأنا مُستجيرٌ به.

وإليه يُفزَعُ في المصائب.

وإن توقفت فمن أسأل.

ومقصودهم ليس لنا ملاذ؛ أي: من الخلق، ولا رجاء؛ أي: من البشر، وإليه يفزع في المصائب؛ أي: من سائر الخلق لكرامته عند مولاه وليقوم هو

---

(١) ثمال: ـ بكسر المثلثة وتخفيف الميم ـ، هو المَلْجأ والمعين.

(٢) عصمة للأرامل: أي يمنعهم مما يضرهم، والأرامل: جمع أرملة، وهي الفقيرة التي لا زوج لها.

بالتوجه إلى الله والطلب منه، وإن توقفت فمن أسأل؛ أي: من عباد الله.

ومع أننا في دعائنا وتوسلنا لا نستعمل مثل هذه الألفاظ، ولا ندعو إليها ولا نحث عليها؛ دفعًا للإيهام وابتعادًا عن الألفاظ المختلف فيها وتمسكًا بالظاهر الذي لا خلاف فيه، إلَّا أننا نرى أنَّ الحكم على قائليها بالكفر تسرع ليس بمحمود، وتصرف لا حكمة فيه، وذلك لأنه لا بد من أن نأخذ في الاعتبار أنَّ قائليها هم من الموحّدين؛ يشهدون أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، ويقيمون الصلاة ويصدقون بجميع أركان الدين، ويؤمنون بالله ربًّا وبمحمد نبيًّا وبالإسلام دينًا، وبذلك صارت لهم ذمة أهل الدين وحرمة الإسلام؛ فعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته**»[(١)].

ومن هنا فإنَّ الواجب علينا أننا إذا وجدنا في كلام المؤمنين إسناد شيْءٍ لغير الله سبحانه وتعالى، فإنه يجب حمله على المجاز العقلي ولا سبيل إلى تكفيرهم؛ إذ المجاز العقلي مستعمل في الكتاب والسُّنة، فصدور ذلك الإسناد من موحد كاف في جعله إسنادًا مجازيًّا؛ لأنَّ الاعتقاد الصحيح هو اعتقاد أنَّ الله هو الخالق للعباد وأفعالهم، لا تأثير لأحد سواه لا لحي ولا لميت، فهذا الاعتقاد هو التوحيد، بخلاف من اعتقد غير هذا فإنه يقع في الإشراك، وليس في المسلمين إطلاقًا من يعتقد لأحد مع الله فعلًا أو تركًا أو رزقًا أو إحياءً أو إماتةً، وما جاء من الألفاظ الموهمة؛ فإنَّ مقصود أصحابها هو الاستشفاع إلى الله بتلك الوسيلة، فالمقصود هو الله سبحانه وتعالى وليس من المسلمين رجل واحد يعتقد فيمن يطلبه أو يسأله؛ أنه قادر على الفعل والترك دون التفات إلى الله تعالى من قريب أو بعيد، أو مع التفات هو أدنى إلى الشرك بالله، ونعوذ بالله أن نرميَ مسلمًا بشرك أو كفر من أجل خطأ أو جهل أو نسيان أو اجتهاد[(٢)].

ونحن نقول: إنْ كان كثير من هؤلاء يخطئون في التعبير بطلب المغفرة

---

(١) رواه البخاري.

(٢) تكرر إيراد هذه الحقيقة في كتابنا هذا لتعدد المناسبات، وقد عقدنا لها مبحثًا خاصًا بعنوان: «المجاز العقلي» وبه ينجلي كثير من الإشكال وسوء الفهم.

والجنة والشفاء والنجاح وسؤالهم ذلك من رسول الله ﷺ مباشرة، فإنه لا يخطئهم التوحيد؛ لأنَّ المقصود هو الاستشفاع إلى الله بتلك الوسيلة، فكأنه يقول: يا رسول الله! اسأل الله أن يغفر لي وأن يرحمني، وأنا أتوسل بك إليه في قضاء حاجتي، وتفريج كربتي، وتحقيق رغبتي.

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يستعينون به ﷺ ويستغيثون ويطلبون منه الشفاعة، ويشكون حالهم إليه من الفقر والمرض والبلاء والدَّيْن والعجز، كما ذكرناه.

ومعلوم أنه ﷺ لا يفعل ذلك بنفسه استقلالًا بذاته أو بقوته، وإنما هو بإذن الله وأمره وقدرته، وهو عبد مأمور له مقامه وجاهه عند ربه، وله كرامته التي يدخل بها على الله عامة البشر، ممن يؤمنون به ويصدقون برسالته ويعتقدونْ فضله وكرامته.

ونحن نعتقد: أن من اعتقد خلاف هذا؛ فقد أشرك بلا خلاف.

ولذلك تراه ﷺ في بعض الأحيان ينبّه على هذا إذا ظهر له؛ بطريق الوحي، أو الحال أنَّ السائل أو السامع ناقص الاعتقاد؛ ففي موقف يخبر أنه سيد ولد آدم، وفي موقف آخر ينبههم على أنَّ السيِّدَ هو الله، وفي موقف يستغيثون به ويعلمهم أن يتوسلوا به، وفي موقف يقول لهم: إنما يستغاث بالله ولا يستغاث بي، وفي موقف يسألونه ويستغيثون به فيجيبهم إلى طلبهم، بل ويخيِّرهم بين أمرين؛ الصبر على البلاء مع ضمانة الجنة، أو كشف البلاء سريعًا؛ كما خير الأعمى، وخير المرأة التي تُصْرَعُ، وخَيَّر قتادة رضي الله عنه الذي ذهبت عينه، وفي موقف يقول لهم: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**»، وفي موقف يقول: «**من فرّج عن مؤمن كربة**»، وفي موقف يقول: «**لا يأتي بالخيرات إلّا الله**».

وبهذا يظهر لك: أنَّ عقيدتنا بحمد الله أصفى وأطهر، فالعبد لا يفعل شيئًا بنفسه مهما كانت رتبته أو درجته، حتى أفضل الخلق ﷺ، إنما يعطي ويمنع، ويضر وينفع، ويجيب ويعين بالله سبحانه وتعالى.

فإذا استُغِيثَ به أو استُعِينَ أو طُلب؛ فإنما يتوجه إلى المولى جل شأنه

سبحانه وتعالى، فيطلب ويدعو ويسأل ويشفع، فيجاب ويشفع.

وما كان يقول لهم: لا تطلبوا مني شيئًا، ولا تسألوني، ولا تشكوا حالكم إليَّ بل توجهوا إلى الله واسألوه؛ فبابه مفتوح وهو قريب مجيب، لا يحتاج إلى أحد، وليس بينه وبين خلقه حجاب ولا بواب.

موقف الشيخ محمد بن عبد الوهاب من هذه الألفاظ التي زَعمُوا انها شِركٌ أو ضلال

وللشيخ محمد بن عبد الوهاب موقف عظيم ورأي حكيم في هذا الباب، وخصوصًا بالنسبة لبعض الألفاظ المشتهرة على الألسنة، والتي زعم من يدّعي حماية التوحيد والغَيْرَةَ عليه أنها شرك، وأنَّ قائلها مشرك، وها هو إمام التوحيد ورأس الموحدين يقول كلمته السديدة بحكمته الرشيدة التي بسببها انتشرت دعوته بين الأنام، واشتهرت طريقته عند الخاص والعام، استمِعْ إلى قوله رحمه الله في عقيدته ضمن رسالته رحمه الله إلى عبد الله بن سحيم مطوع أهل المَجْمَعة:

«إذا تبين هذا؛ فالمسائل التي شَنّع بها، منها ما هو من البهتان الظاهر، وهي قوله: إني مُبطلٌ كتب المذاهب، وقوله: إني أقول: إنَّ الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء، وقوله: إني أدّعي الاجتهاد، وقوله: إني خارج عن التقليد، وقوله: إني أقول: إنَّ اختلاف العلماء نقمة، وقوله: إني أُكفِّر من توسل بالصالحين، وقوله: إني أكفِّر البوصيري لقوله: يا أكرم الخلق، وقوله: إني أقول: لو أقدر على هدم حجرة الرسول لهدمتها، ولو أقدر على الكعبة لأخذت ميزابها وجعلت لها ميزابًا من خشب، وقوله: إني أنكر زيارة قبر النبي ﷺ، وقوله: إني أنكر زيارة قبر الوالدين وغيرهما، وإني أكفر من يحلف بغير الله، فهذه اثنتا عشرة مسألة، جوابي فيها أن أقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]، ولكن قبله مَنْ بَهتَ النبيَّ محمدًا ﷺ أنه يَسُبُّ عيسى ابن مريم، وَيَسُبُّ الصالحين، ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨][(١)]».

---

(١) كذا في «الرسالة الحادية عشرة» من رسائل الشيخ، ضمن مجموعة مؤلفاته، القسم الخامس، ص٦١، وقد نشرتها جامعة محمد بن سعود الإسلامية، في أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

الخلاصة

والحاصل: أنه لا يُكَفَّر المستغيث إلَّا إذا اعتقد الخلق والإيجاد لغير الله تعالى، والتفرقة بين الأحياء والأموات لا معنى لها؛ فإنه إن اعتقد الإيجاد لغير الله كَفَر على خِلَافٍ للمعتزلة في خلق الأفعال، وإن اعتقد التسبب والاكتساب لم يكفر.

وأنت تعلم أنَّ غاية ما يعتقد الناس في الأموات: هو أنهم مُتَسبِّبُونَ ومكتسبون كالأحياء، لا أنهم خالقون موجدون كالإله، إذ لا يعقل أن يعتقد فيهم الناس أكثر من الأحياء، وهم لا يعتقدون في الأحياء إلَّا الكسب والتسبب، فإذا كان هناك غلط، فليكن في اعتقاد التسبب والاكتساب؛ لأنَّ هذا هو غاية ما يعتقده المؤمن في المخلوق، وإلَّا لم يكن مؤمنًا، والغلط في ذلك ليس كفرًا ولا شركًا.

ولا نزال نكرر على مسامعك: أنه لا يُعقل أن يَعتَقِد في الميت أكثر مما يعتقد في الحي؛ فيُثْبِتَ الأفعال للحي على سبيل التسبب، ويثبتها للميت على سبيل التأثير الذاتي والإيجاد الحقيقي؛ فإنه لا شك أنَّ هذا مما لا يُعْقَل.

فغاية أمر هذا المُستَغِيث بالميت ـ بعد كل تَنزُّلٍ ـ أن يكون كمن يطلب العون من المُقْعَدِ غير عالم أنه مقعد، ومن يستطيع أن يقول: إنَّ ذلك شرك؟! على أنَّ التسبب مقدور للميت وفي إمكانه أن يكتسبه كالحي بالدعاء لنا، فإنَّ الأرواح تدعو لأقاربهم.

فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: **«إنَّ أعمالكم تُعرَضُ على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيرًا استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تُمِتهُم حتى تهديهم كما هديتنا»**[1].

وَروىٰ ابن المبارك بسنده إلى أبي أيوب رضي الله عنه، قال: تُعرَضُ أعمال الأحياء على الموتى، فإذا رأوا حسنًا فرحوا واستبشروا، وإن رأوا سوءًا قالوا: اللهم راجع به[2].

---

(١) أخرجه أحمد، وله طرق يشدّ بعضها بعضًا، انظر «الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني» ٧: ٨٩، و«شرح الصدور» للسيوطي.

(٢) انظر كتاب «الروح» لابن القيم ص٧.

الباب الثاني

مباحث نبوية

وفيها خصائص النبي ﷺ

وحقيقة النبوة وحقيقة البشرية

ومفهوم التبرك بالنبي ﷺ وآثاره

الخَصائِصُ المُحَمّدية، ومَوقفُ العُلماء منها

اعتنىٰ العلماء بالخصائص النبوية اعتناءً عظيمًا بالتأليف والشرح، والجمع والإفراد بالبحث، وأشهرها وأجمعها «الخصائص الكبرى» للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي.

وهذه الخصائص كثيرة جدًّا؛ منها ما صح سنده، ومنها ما لم يصح، ومنها ما هو مُختَلفٌ فيْه بين العلماء؛ إذ يرى بعضهم أنه صحيح، ويرى الآخرون خلاف ذلك، فهي مسائل خلافية.

والكلام فيها دائر بين العلماء من قديم بين الصواب والخطأ والصحة والبطلان، لا بين الكفر والإيمان، والعلماء يختلفون في كثير من الأحاديث ويردّ بعضهم على بعض في تصحيحها وتضعيفها أو ردِّها؛ لاختلاف أنظارهم في تقييم أسانيدها ونقد رجالها، فمن صحّح منها الضعيف أو ضعّف الصحيح، أو أثبت المردود أو ردّ الثابت بحجة أو تأويل أو شبهة دليل، فقد سلك مسلك العلماء في البحث والنظر، وذلك من حقه كإنسان له عقله وفهمه، والمجال مفتوح والميدان فسيح والعلم مُشاع بين الجميع.

وقد شجع عليه إمام العقلاء وسيد العلماء النبي الأعظم والرسول الأكرم محمد ﷺ؛ إذ جعل للمجتهد المصيب أجرين، وللمجتهد المخطئ أجرًا.

ولم يزل العلماء يتسامحون في نقل الخصائص النبوية وينظرون إليها على أنها داخلة في فضائل الأعمال، ولا تتعلق بالحلال والحرام، وعلى هذا بَنىٰ العلماء قاعدتهم في العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال ما دام أنه ليس موضوعًا ولا باطلًا، بشروطه المعتبرة في هذا الباب، ولا يشترطون فيها الصحيح بالمعنى المصطلح عليه، ولو ذهبنا إلى اشتراط هذا الشرط الشاذ؛ لما أمكن لنا ذكر شيء من سيرة النبي ﷺ قبل البعثة وبعد البعثة، مع أنك تجد كتب الحفاظ الذين عليهم العمدة وعلى صنيعهم المعول، والذين منهم عرفنا ما يجوز وما لا يجوز ذكره من الحديث الضعيف، تجد كتبهم مملوءة بالمقطوعات

والمراسيل، وما أُخِذَ عن الكهان وأشباههم في خصائص رسول الله ﷺ؛ لأنَّ ذلك مما يجوز ذكره في هذا المقام.

كُتُب السَّلفِ والخصائص:

ولو رجعنا إلى كتب السلف، لوجدنا كثيرًا من علماء الأمة وأئمة الفقه يذكرون في كتبهم جملة من خصائص النبي ﷺ، وينقلون من هذه الخصائص عجائب وغرائب، ولو توقف الباحث في قبولها على صحة سندها؛ لما صفا له من ذلك إلَّا نزر يسير بالنسبة لمقدار ما نقلوه منها، وهذا كله اعتمادًا على ما هو معروف من قواعد العلماء وأصولهم المقررة في هذا الباب.

ابن تيمية والخصائص النبوية

أما الشيخ ابن تيمية ـ وهو معروف بتشَدُّدِهِ ـ فقد نقل في كتبه بعض الأقوال في هذا الموضوع التي لم يصح سندها، واستشهد بها في كثير من المسائل، واعتبرها معتمدة في بيان أو تأييد ما يفسره من الحديث، ومن ذلك على سبيل المثال قوله في «الفتاوى الكبرى»:

«قد رُوِيَ أن الله كتب اسمه ـ أي النبي ﷺ ـ على العرش وعلى ما في الجنة من الأبواب والقباب والأوراق». وَرُوِيَ في ذلك عدة آثار توافق هذه الأحاديث الثابتة التي تبيِّن التنويه باسمه وإعلاء ذكره ﷺ حينئذ. وقد تقدم لفظ الحديث الذي في «المسند» عن ميسرة الفجر لما قيل له: متى كنت نبيًّا؟ قال: **«وآدم بين الروح والجسد»**. وقد رواه أبو الحسين بن بشران من طريق الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي في «الوفا بفضائل المصطفى ﷺ»: حدثنا أبو جعفر محمد بن عمرو، حدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح، حدثنا محمد بن صالح، حدثنا محمد بن سنان العوفي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن يزيد بن ميسرة، عن عبد الله بن سفيان، عن ميسرة، قال: قلت: يا رسول الله! متى كنت نبيًّا؟ قال: **«لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وخلق العرش، كتب على ساق العرش: محمد رسول الله خاتم الأنبياء، وخلق الله الجنة التي أسكنها آدم وحواء، فكتب اسمي على الأبواب والأوراق والقباب والخيام، وآدم**

بين الروح والجسد، فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمي، فأخبره الله أنه سيد ولدك، فلما غرّهما الشيطان تابا واستشفعا باسمي إليه». اهـ[١].

ابن تيمية والكرامات:

والخصائص والكرامات من جنس واحد من ناحية الحكم عليها ونقلها وعدم التشدد فيها كما نتشدد في نقل الأحكام من الحلال والحرام، فهي كلها تدور في فلك المناقب والفضائل.

ومن هنا كان موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من كرامات الأولياء نفس موقفه من خصائص الأنبياء.

وقد نقل في كتبه جملة صالحة من الكرامات وخوارق العادات التي وقعت في الصدر الأول.

ولو بحثنا عن درجاتها وأسانيدها وطريق ثبوتها، لوجدنا أنَّ منها الصحيح ومنها الحسن، ومنها الضعيف ومنها المقبول، ومنها المردود ومنها المنكر ومنها الشاذ.

وكل ذلك في هذا الباب مقبول، وعن العلماء محمول ومنقول، فمن ذلك قوله في كراماتٍ لبعض الصحابة رضي الله عنهم:

١ ـ خرجت أم أيمن مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء، فكادت تموت من العطش، فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة، سمعت حسًّا على رأسها فرفعته فإذا دلو معلق، فشربت منه حتى رويت، وما عطشت بقية عُمُرِها.

٢ ـ وهذا سفينة مولى رسول الله ﷺ أخبر الأسد بأنه رسولُ رسولِ الله ﷺ، فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصده.

٣ ـ وهذا البراء بن مالك كان إذا أقسم على الله تعالى أَبرَّ قَسَمَهُ وكانت الحرب إذا اشتدت على المسلمين في الجهاد يقولون: يا براء! أقسم على ربك، فيقول: «يا رب! أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم». فيهزم العدو، فلما كان يوم

---

(١) ابن تيمية؛ الفتاوى، ٢: ١٥١.

القادسية، قال: «أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد»، فمنحوا أكتافهم، وقتل البراء شهيدًا.

٤ ـ وهذا خالد بن الوليد حاصر حصنًا منيعًا فقالوا: لا نُسلم حتى تشرب السم، فشربه فلم يضره.

٥ ـ وهذا عمر بن الخطاب لما أرسل جيشًا أمّر عليهم رجلًا يُسمّىٰ سارية، فبينما عمر يخطب فجعل يصيح على المنبر: يا سارية! الجبل، يا سارية! الجبل، فقدم رسول الجيش فسأل فقال: يا أمير المؤمنين، لَقِينَا عدوًّا فهزمونا، فإذا بصائح: يا سارية! الجبل، يا سارية! الجبل، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله.

٦ ـ وهذا العلاء بن الحضرمي كان عامل رسول الله ﷺ على البحرين، وكان يقول في دعائه: يا عليم! يا حليم! يا عليّ! يا عظيم! فيستجاب له، ودعا الله بأن يسقوا ويتوضؤوا لما عدموا الماء والإسقاء لما بعدهم، فأجيب، ودعا الله لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم، فمروا كلهم على الماء ما ابتلت سروج خيولِهم، ودعا الله أن لا يروا جسده إذا مات، فلم يجدوه في اللحد.

٧ ـ وجرى مثل ذلك لأبي مسلم الخولاني الذي أُلقيَ في النار، فإنه مشى هو ومن معه من العسكر على دجلة وهي ترمي بالخشب من مدها، ثم التفت إلى أصحابه فقال: «تفقدون من متاعكم شيئًا حتى أدعو الله عز وجل فيه؟» فقال بعضهم: فقدت مخلاة، فقال: «اتبعني»، فتبعه فوجدها قد تعلقت بشيء فأخذها. وطلبه الأسود العنسي لما ادعى النبوة فقال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال: «ما أسمع»، قال: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: «نعم»، فأمر بنار فأُلقي فيها، فوجدوه قائمًا يصلي فيها، وقد صارت عليه بردًا وسلامًا، وقدم المدينة بعد موت النبي ﷺ فأجلسه عمر بينه وبين أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما وقال: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أرى من أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الله». ووضعت له جارية السم في طعامه فلم يضره. وخببت[١]

(١) الخب: الخداع.

امرأة عليه زوجته فدعا عليها فعميت، وجاءت وتابت فدعا لها الله فرد عليها بصرها.

٨ ـ وكان سعيد بن المسيب في أيام الحرة يسمع الأذان من قبر رسول الله ﷺ أوقات الصلوات، وكان المسجد قد خلا فلم يبقَ غيره.

٩ ـ وكان عمرو بن عقبة بنْ فرقد يصلي يومًا في شدة الحرّ فأظلته غمامة، وكان السبع يحميه وهو يرعى ركاب أصحابه؛ لأنه كان يشترط على أصحابه في الغزو أنه يخدمهم.

١٠ ـ وكان مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير إذا دخل بيته، سبَّحت معه آنيته، وكان هو وصاحب له يسيران في ظلمة، فأضاء لهما طرف السوط[(١)]. اهـ».

الشيخ ابن القيم وجلوس النبي ﷺ على العرش[(٢)]

وقد نقل الإمام العلامة شيخ الإسلام ابن القيم خصوصيّة عجيبة غريبة وعزاها إلى كثير من أئمة السلف رضي الله عنهم وهي قوله:

«فائدة: قال القاضي: صَنّفَ المروزي كتابًا في فضيلة النبي ﷺ وذكر فيه إقعاده على العرش، قال القاضي: وهو قول أبي داود، وأحمد بن أصرم، ويحيى بن أبي طالب، وأبي بكر بن حماد، وأبي جعفر الدمشقي، وعياش الدوري، وإسحاق بن راهويه، وعبد الوهاب الوراق، وإبراهيم الأصبهاني، وإبراهيم الحربي، وهارون بن معروف،

---

(١) ابن تيمية؛ «الفتاوى الكبرى»، ١١: ٢٨١.

(٢) هذا الذي نقله صاحب «المفاهيم» هو صحيح عند أهله وعند من يقول به بلا شك ولا ريب، ولكننا نعتقد أن صاحب «المفاهيم» ما نقل هذا الخبر إلا للاستشهاد به فقط على تساهل بعض أئمة الحديث المعتبرين في نقل الخصائص، ونعيذ بالله أخانا العلّامة المالكي صاحب «المفاهيم» من أن يعتقد أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقعد على العرش مع الله سبحانه وتعالى وقد صرّح بردِّ هذا وبراءته من القول به في الصفحة التي بعد هذه من هذا الكتاب (ص٢١٤) ولكن المستعجل هداه الله لم ينتظر حتى يراه. هذا وقد كذَّب الشيخ محمد زاهد الكوثري نسبة الخبر للدارقطني في تعليقاته على كتاب «السيف الصقيل»، وكذلك محمد ناصر الدين الألباني في كتابه «مختصر العلو» للذهبي حيث قال: «هذا كذب على الدارقطني».

ومحمد بن إسماعيل السلمي ومحمد بن مصعب العابد، وأبي بكر بن صدقة، ومحمد بن بشر بن شريك، وأبي قلابة، وعلي بن سهل، وأبي عبد الله بن عبد النور، وأبي عبيد والحسن بن فضل وهارون بن العباس الهاشمي، وإسماعيل بن إبراهيم الهاشمي، ومحمد بن عمران الفارسي الزاهد، ومحمد بن يونس البصري، وعبد الله بن الإمام أحمد المروزي، وبشر الحافي»، انتهى.

قال الشيخ ابن القيم: **(قلت)**: وهو قول ابن جرير الطبري، وإمام هؤلاء كلهم مجاهد إمام التفسير، وهو قول أبي الحسن الدارقطني ومن شعره فيه:

حَدِيثُ الشَّفَاعَةِ عَنْ أَحْمَدٍ   إِلَى أَحْمَدَ الْمُصْطَفَى مُسْنَدُهْ
وَجَاءَ حَدِيثٌ بِإِقْعَادِهِ   عَلَى الْعَرْشِ أَيْضًا فَلَا نَجْحَدُهْ
أَمِرُّوا الْحَدِيثَ عَلَى وَجْهِهِ   وَلَا تُدْخِلُوا فِيهِ مَا يُفْسِدُهْ
وَلَا تُنْكِرُوا أَنَّهُ قَاعِدٌ   وَلَا تُنْكِرُوا أَنَّهُ يُقْعِدُهْ[1]

كشاف القناع وخصائص عجيبة

ذكر الفقيه العلامة الشيخ منصور بن يونس البهُوتي في كتابه «كشاف القناع» جملة من خصائص النبي ﷺ قد يستغربها كثير ممن يقصر عقله عن فهم هذه الأصول واستيعاب تلك القواعد.

فمنها قوله: «والنَّجسُ منّا طاهر منه ﷺ ومن سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويجوز أن يُستشفى ببوله ودمه؛ لما رواه الدارقطني: أنَّ أم أيمن شربت بوله، فقال: **«إذن لا تلج النار بطنك»**، لكنه ضعيف، ولما رواه ابن حبان في «الضعفاء»: أنَّ غلامًا حجم النبي ﷺ فلما فرغ من حجامته شرب دمه، فقال: **«ويحك ما صنعت بالدم؟»** قال: غيّبته في بطني، قال: **«اذهب فقد أحرزت نفسك من النار»**. قال الحافظ ابن حجر: وكان السر في ذلك؛ ما صنعه المَلَكَان من غسلهما جوفه.

ومنها قوله: ولم يكن له ﷺ فيء ـ أي: ظل ـ في الشمس والقمر؛ لأنه

(١) ابن القيم، «بدائع الفوائد» ٤: ٤٠.

نوراني والظل نوع ظلمة. ذكره ابن عقيل وغيره، ويشهد له أنه سأل الله أن يجعل في جميع أعضائه وجهاته نورًا، وختم بقوله: واجعلني نورًا، وكانت الأرض تجتذب أثقاله؛ للأخبار.

ومنها قوله: المقام المحمود جلوسه ﷺ على العرش، وعن عبد الله بن سلام: على الكرسي، ذكرهما البغوي.

ومنها قوله: إنه ﷺ كان لا يتثاءب.

ومنها قوله: إنه صلى الله عليه وسلم عُرِضَ عليه الخلق كلهم من آدم إلى من بعده كما علم آدم أسماء كل شيء؛ لحديث الديلمي: «**مُثِّلَتْ لي الدنيا بالماء والطين، فعلمت الأشياء كلها كما عَلِمَ آدم الأسماء كلها**»، وعرض عليه أمته بأسرهم حتى رآهم؛ لحديث الطبراني: «**عرضت عليَّ أمتي البارحة لدى هذه الحجرة أولها وآخرها، صوّروا لي بالماء والطين، حتى إني لأعرف بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه**». وعرض عليه أيضًا ما هو كائن في أمته حتى تقوم الساعة؛ لحديث أحمد وغيره: «**رأيت ما تلقى أمتي بعدي وسفك بعضهم دماء بعض**».

ومنها قوله: وزيارة قبره مستحبة للرجال والنساء، لعموم ما روى الدارقطني عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حج وزار قبري بعد وفاتي، فكأنما زارني في حياتي**[(١)]» اهـ.

فهذه الخصائص التي ذكروها ونقلوها، منها ما هو صحيح ومنها ما هو ضعيف، ومنها ما لا دليل له أصلًا.

فلا أدري ماذا يقول المعترض في هذه الخصائص التي نقلها كبار الأئمة من أهل السُّنة، ولم يعترضوا عليها بشيء، وسلموها وتسامحوا في نقلها اعتمادًا على قاعدة التسامح في نقل الفضائل، مع أنَّ في هذه الخصائص من الأقوال ما لو سمعه المعترض أو المنكر، لحكم على قائله بما هو أعظم من الكفر، **وأين**

(١) البهُوتي؛ «كشاف القناع»، ٥: ٣٠، طبع بأمر الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله.

ما نقلناه بجانب من قال: إنَّ سيدنا محمدًا ﷺ يُجلسه الله يوم القيامة على عرشه، كما نقله الإمام الشيخ ابن القيم من كبار أئمة السلف في كتابه المعروف «بدائع الفوائد» بلا برهان ولا دليل من كتاب وَسنةٍ صحيحة مرفوعة[1]، **وأين ما نقلناه من الخصائص** بجانب ما جاء في «كشاف القناع» من أنَّ النبي ﷺ نور، وأنه لا ظل له وأن ما يخرج منه من الغائط تبتلعه الأرض فلا يبقى شيء منه على وجه الأرض، **وأين ما نقلناه من الخصائص** بجانب ما نقله الشيخ ابن تيمية من الخصائص كقوله: «إنَّ اسمه ﷺ مكتوب على ساق العرش، وعلى أوراق الجنة وأشجارها وأبوابها وثمارها وقبابها»، فأين المعلقون والمحققون كيف فاتت عليهم هذه المسائل دون نقد وتمحيص؟!، ولا ينفع سبيل الحذف والإضافة الذي يفعله البعض في كتب التراث ليوافق النص ما في هواه؛ فهي جريمة وخيانة عظيمة تستحق الحد بالقطع، لأنَّ الواجب هو إثبات النص كما ورد مهما خالف رأي المحقق أو المعلق، ثم ليكتب عليه ما يشاء مما يوافق رأيه وفكره.

الجَنّةُ تَحت أَقدامِ الأمهات
فكيف لا تَكُون تَحت أَمرِ النبي ﷺ

ومن الخصائص النبوية التي جرى فيها البحث بين أهل العلم: ما جاء من أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقطع أرض الجنة، وقد ذكر هذه الخصوصية: الحافظ السيوطي، والقسطلاني، والزرقاني في شرحه على «المواهب اللدنية»، ومعلوم أنَّ هذا الإقطاع لا يكون إلَّا لمن يستحقه من أهل التوحيد وبإذن الله سبحانه وتعالى؛ إما من طريق الوحي أو الإلهام، أو التفويض من الله سبحانه وتعالى، وقد أشار إلى ذلك ﷺ بقوله: «**إنما أنا قاسم والله يعطي**»، وإذا صح التعبير بأنَّ الجنة تحت أقدام الأمهات، فكيف لا يصح التعبير بأنَّ الجنة تحت أمره ﷺ، بل تحت قدمه، والمعنى واحد

---

(١) وقد أثبت هذه الخصوصية جملة من كبار العلماء، كما ذكر ذلك ابن القيم في كتابه، ونبينا صلى الله عليه وسلم يستحق كل علو ورفعة لائقة به، مع حفظ كمال التنزيه والبعد عن التشبيه والتجسيم لمولانا جل جلاله.

ومعروف عند أدنى طلاب العلم معرفة، فهو تعبير مجازي المقصود منه أنَّ الوصول إلى الجنة هو من طريق بر الوالدين وخدمتهما وخصوصًا الأم، وهو بالنسبة للنبي ﷺ من حيث طاعته ومحبته وموالاته.

ولهذه الخصوصية أمثالٌ كثيرة تشهد لصحتها سنذكر أهمها.

النبي ﷺ يَضمنُ الجنة:

ويأتي في معنى إقطاع أرض الجنة؛ ضمانة النبي ﷺ الجنة لبعضهم، وهذا ما حصل لأهل بيعة العقبة، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: كنت ممن حضر العقبة الأولى؛ وفيه: فبايعنا رسول الله ﷺ على أن لا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان عظيم نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، قال: «**فإن وفّيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا، فأمركم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر**». ذكره ابن كثير في «باب بدء إسلام الأنصار»[١].

وجاء في «صحيح مسلم» التصريح بأنَّ تلك البيعة مشروطة بالجنة؛ قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: إني من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ، وقال: بايعناه على أن لا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل النفس التي حَرّم الله إلّا بالحق، ولا ننهب، ولا نعصي، بالجنة إن فعلنا ذلك[٢].

وفي رواية: أنه ﷺ قال: «**فمن وَفَىٰ فله الجنة**»[٣].

وعن قتادة رضي الله عنه أنهم قالوا: يا رسول الله! فما لنا بذلك إن نحن وَفّينا؟ قال: «**الجنة**». اهـ[٤].

وعن أبي مسعود رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «**فإذا فعلتم ذلك فلكم**

---

(١) ابن كثير؛ «السيرة» ٢: ١٧٦.

(٢) أي بايعناه بالجنة على فعل ذلك، يعني اشترطوا عليه ضمانة الجنة لهم فأعطاهم.

(٣) ابن كثير؛ «البداية والنهاية» ٣: ١٥٠.

(٤) ابن كثير؛ «البداية والنهاية» ٣: ١٦٢.

على الله الجنة، وعليَّ»[١].

وعن عقبة بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «فإذا فعلتم ذلك فلكم على الله الجنة، وعليَّ»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إنَّ رسول الله ﷺ أعطاه نعليه، فقال له: «اذهب، فمن لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلَّا الله، فبشره بالجنة»[٣].

صُكُوكٌ لِدخُولِ الجنة بيده ﷺ

وَرُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «يوضع للأنبياء منابر من نور يجلسون عليها، ويبقى منبري لا أجلس عليه ـ أو قال: لا أقعد عليه ـ قائمًا بين يدي ربي؛ مخافة أن يبعث بي إلىٰ الجنة وتبقى أمتي بعدي، فأقول: يا رب! أمتي أمتي، فيقول الله عز وجل: يا محمد! ما تريد أن أصنع بأمتك؟ فأقول: يا رب عَجّل حسابهم، فيدعىٰ بهم فيحاسبون، فمنهم من يدخل الجنة برحمته، ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتي، فما أزال أشفع حتى أعطىٰ صِكَاكًا برجال قد بعث بهم إلى النار حتى إنَّ مالكًا خازن النار ليقول: يا محمد! ما تركت لغضب ربك في أمتك من نقمة»[٤].

النبي ﷺ يُعطِي الجنة:

جاء في رواية عن جابر رضي الله عنه أنه قال: فقلنا: فعلام نبايعك؟، فقال: «على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولكم الجنة»، الحديث.

قال الحافظ ابن حجر: «ولأحمد من وجه آخر عن جابر، قال: كان

---

(١) رواه الطبراني، انظر: «مجمع الزوائد» ٦: ٤٧.

(٢) رواه ابن أبي شيبة، وابن عساكر، انظر: «كنز العمال» ١: ٦٧.

(٣) رواه مسلم في «كتاب الإيمان».

(٤) رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، والبيهقي في «البعث»، قال المنذري: «وليس في رواته متروك».

العباس آخذًا بيد رسول الله ﷺ، فلما فرغنا قال رسول الله ﷺ: **«أخذتُ وأعطيتُ»**. اهـ[١].

أي: أخذتُ البيعة وأعطيتُ الجنة.

قُلْتُ: وقد جاء في رواية أخرى التصريح بما هو أبلغ من ذلك، قال جابر: إنَّ النبي ﷺ قال لهم: **«تبايعوني على السمع والطاعة»** ـ إلى أنَّ قال: ـ **«ولكم الجنة»**، قال: فقالوا: والله لا ندع هذه البيعة أبدًا ولا نسلبها أبدًا، فبايعناه، فأخذ علينا وشرط؛ ويعطينا على ذلك الجنة[٢].

النبي ﷺ يبيع الجنة وعثمان يشتريها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: اشترى عثمان الجنة من النبي ﷺ مرتين بيع الحق؛ حيث حفر بئر رُومة، وحيث جهز جيش العسرة[٣].

وكل عاقل يدري أنَّ الجنة لله سبحانه وتعالى لا يملكها أحد ولا يتصرف فيها أحد مهما كانت قيمته ودرجته؛ لا مَلَك ولا نبي ولا رسول ولكن الله يَمُنّ على رسله ويعطيهم من المنح التي تميزهم عن غيرهم، وذلك لكرامتهم عنده وعلو مقامهم لديه، فتنسب إليهم تلك العطايا وتضاف إليهم تلك التصرفات على جهة التكريم والتعظيم والاحترام والتقديم، ومن هذا المنطلق جاء التعبير في خصائص النبي ﷺ من أنه يقطع أرض الجنة، أو يضمن الجنة، أو يبيع الجنة، أو يبشر بالجنة مع أنَّ الجنة لله سبحانه وتعالى، لا يشك في ذلك ولا يرتاب إلَّا جاهل ليس عنده أدنى معرفة بأبسط مسائل العلم.

اللهم نوّر بصائرنا وافتح مسامع قلوبنا، وأرِنا الحق حقًّا وارزقنا اتِّباعه.

---

(١) ابن حجر؛ «فتح الباري» ٧: ٢٢٣. رواه أحمد. «مجمع الزوائد» ٦: ٤٨.

(٢) قال الهيثمي: «روى أصحاب السنن منه طرفًا، رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح». اهـ. «مجمع الزوائد» ٦: ٤٦.

(٣) رواه الحاكم في «مستدركه» ٣: ١٠٧ وصححه ووقع فيه لفظ «بئر معونة»، والصواب ما أثبت.

ما هو المقصود بِلَيْلةِ المَولدِ المُفَضّلة

ذكر بعض العلماء في الخصائص النبوية أنَّ ليلة المولد النبوي أفضل من ليلة القدر، وعقد مقارنة في هذا الموضوع بين الليلتين، والذي نحب أن نذكره هنا: هو أنَّ المقصود بهذه الليلة هي الليلة التي وقع فيها الميلاد النبوي حقيقة، وهي قد مضت منذ مئات السنين، وهي كانت قبل أن تعرف أو تظهر ليلة القدر بلا شك. وليس المقصود بتلك الليلة ليلة المولد المتكررة كل عام، والتي هي نظائر ليلة الميلاد الحقيقي، والحق أنَّ البحث عن هذه المسألة ليس بكبير فائدة، ولا يترتب على إنكاره أو الإقرار به ضرر أو خطر، ولا يعارض ذلك شيئًا من أصول العقيدة، وقد بحث العلماء عن مسائل حقيرة وألفوا فيها رسائل خاصة وهي لا تساوي شيئًا أمام هذه المسألة. **والحاصل**: أننا نعتقد أنَّ هذه المفاضلة هي بين ليلة المولد الحقيقي، وبين ليلة القدر، وأنَّ الليلة التي وقع فيها المولد النبوي والتي جرى فيها بحث المفاضلة والمقارنة قد مضت وانتهت ولا وجود لها اليوم، أما ليلة القدر فهي موجودة ومتكررة في كل عام؛ ولذلك فهي أفضل الليالي لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ [القدر: ١ ـ ٣].

والبحث عن هذه المسألة وأمثالها جرى بين أئمة العلم، وتكلّم فيها كبار السلف، فهذا الشيخ الإمام ابن تيمية يَتَكلّمُ على مسألة المقارنة بين ليلة القدر وليلة الإسراء، ويبحث عنها بدقة وإتقان، مع أنه لم يثبت أنه بحث عنها أو تكلم عليها أحد قبله من أئمة السلف وأهل القرون الأولى، فضلًا عن الصحابة، فضلًا عن الرسول ﷺ.

فتوى ابن تيمية في الموضوع:

قال الإمام الشيخ ابن القيم: «سئل شيخ الإسلام رحمه الله عن رجل قال: ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر. وقال آخر: بل ليلة القدر أفضل، فأيهما مصيب؟

فأجاب: الحمد لله، أما القائل بأنَّ ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر فإن

أراد به أن تكون الليلة التي أسري فيها بالنبي ﷺ ونظائرها من كل عام أفضل لأمة محمد ﷺ من ليلة القدر؛ بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل منه في ليلة القدر، فهذا باطل لم يقله أحد من المسلمين، وهو معلوم الفساد بالاطّراد من دين الإسلام، وإن أراد الليلة المُعيّنَة التي أسري فيها بالنبي ﷺ وحصل له فيها ما لم يحصل له في غيرها، من غير أن يشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة؛ فهذا صحيح»[1].

«لا تطروني»

فهم بعض الناس من قوله ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم**» النهي عن مدحه ﷺ، واعتبار ذلك من الإطراء والغلو المذموم المؤدي إلى الشرك، وأنَّ كل من مدحه ﷺ ورفعه على غيره من عامة البشر وأثنى عليه ووصفه بما يميزه عن غيره؛ فقد ابتدع في الدين وخالف سنة سيد المرسلين ﷺ.

وهذا فهم سيِّء ويدل على قصر نظر صاحبه؛ وذلك أنَّ النبي ﷺ نهى أن يُطرى كما أطرت النصارى ابنَ مريم؛ إذ قالوا: ابن الله.

ومعنى ذلك: أنَّ من أطراه ﷺ ووصفه بما وصف به النصارى نبيهم؛ فقد صار مثلهم.

أما من مدحه ووصفه بما لا يخرجه عن حقيقة البشرية، معتقدًا أنه عبد الله ورسوله ﷺ مبتعدًا عن معتقد النصارى؛ فإنه ولا شك من أكمل الناس توحيدًا.

دَعْ مَا ٱدَّعَتْهُ ٱلنَّصَارَى فِي نَبِيِّهِم ... وَٱحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ وَٱحْتَكِمِ
فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ ٱللَّهِ لَيْسَ لَهُ ... حَدٌّ فَيُعْرِبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ
فَمَبْلَغُ ٱلْعِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ ... وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ ٱللَّهِ كُلِّهِمِ

لقد تولى الله سبحانه وتعالى بنفسه مدح نبيه المصطفى ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، وأمر بالأدب معه في الخطاب

---

(١) انظر «زاد المعاد» ١: ٢١.

والجواب؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات: ٢]، ونهانا أن نعامله كما يعامل بعضنا بعضًا، أو أن نناديه كما ينادي بعضنا بعضًا، فقال: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

وذم الذين يسوّون بينه وبين غيره في المعاملة والأسلوب فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحجرات: ٤].

وقد كان الصحابة الكرام يمتدحون النبي ﷺ؛ فهذا حسان بن ثابت يقول:

أَغَرُّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ ... مِنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ[1] وَيُشْهَدُ[2]
وَضَمَّ الْإِلَٰهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ ... إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ إِسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ... فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ
نَبِيٌّ أَتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَفَتْرَةٍ ... مِنَ الرُّسْلِ وَالْأَوْثَانُ فِي الْأَرْضِ تُعْبَدُ
فَأَمْسَى سِرَاجًا مُسْتَنِيرًا وَهَادِيًا ... يَلُوحُ كَمَا لَاحَ الصَّقِيلُ الْمُهَنَّدُ
وَأَنْذَرَنَا نَارًا وَبَشَّرَ جَنَّةً ... وَعَلَّمَنَا الْإِسْلَامَ فَاللَّهَ نَحْمَدُ

ويقول أيضًا:

يَا رُكْنَ مُعْتَمِدٍ وَعِصْمَةَ لَائِذٍ ... وَمَلَاذَ مُنْتَجِعٍ وَجَارَ مُجَاوِرِ
يَا مَنْ تَخَيَّرَهُ الْإِلٰهُ لِخَلْقِهِ ... فَحَبَاهُ بِالْخُلُقِ الزَّكِيِّ الطَّاهِرِ
أَنْتَ النَّبِيُّ وَخَيْرُ عُصْبَةِ آدَمٍ ... يَا مَنْ يَجُودُ كَفَيْضِ بَحْرٍ زَاخِرِ
مِيكَالُ مَعْكَ وَجِبْرَئِيلُ كِلَاهُمَا ... مَدَدٌ لِنَصْرِكَ مِنْ عَزِيزٍ قَاهِرِ

وهذه صفية بنت عبد المطلب ترثي رسول الله ﷺ:

أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنْتَ رَجَاءَنَا ... وَكُنْتَ بِنَا بَرًّا وَلَمْ تَكُ جَافِيَا
وَكُنْتَ رَحِيمًا هَادِيًا وَمُعَلِّمًا ... لِيَبْكِ عَلَيْكَ الْيَوْمَ مَنْ كَانَ بَاكِيَا
صَدَقْتَ وَبَلَّغْتَ الرِّسَالَةَ صَادِقًا ... وَقُمتَ صَلِيبَ الدِّينِ[3] أَبْلَجَ صَافِيَا
فِدًى لِرَسُولِ اللَّهِ أُمِّي وَخَالَتِي ... وَعَمِّي وَآبَائِي وَنَفْسِي وَمَالِيَا

---

(١) يلوح: يظهر. (٢) يشهد: يشاهَد. (٣) أي قويّهُ.

لَعَمْرُكَ مَا أَبْكِي النَّبِيَّ لِفَقْدِهِ وَلٰكِنْ لِمَا أَخْشَى مِنَ الْهَرْجِ آتِيَا
كَأَنَّ عَلَى قَلْبِي لِذِكْرِ مُحَمَّدٍ وَمَا خِفْتُ من بَعْدِ النَّبِيِّ مَطَاوِيَا
فَلَوْ أَنَّ رَبَّ النَّاسِ أَبْقَى نَبِيَّنَا سَعِدْنَا وَلٰكِنْ أَمْرُهُ كَانَ مَاضِيَا
عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ السَّلامُ تَحِيَّةً وَأُدْخِلْتَ جَنَّاتٍ مِنَ الْعَدْنِ رَاضِيَا
أَفَاطِمَ صَلَّى اللَّهُ رَبُّ مُحَمَّدٍ عَلَى جَدَثٍ[١] أَمْسَى بِطَيْبَةَ ثَاوِيَا

وذكر ابن سعد في «الطبقات» أنها لأروى بنت عبد المطلب.

وهذا كعب بن زهير يمدح النبي ﷺ بقصيدته المعروفة التي مطلعها:

بَانَتْ[٢] سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ[٣] مُتَيَّمٌ[٤] إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ[٥]
أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُولُ
فِي عُصْبَةٍ[٦] مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا[٧]
يَمْشُونَ مَشْيَ الْجِمَالِ الزُّهْرِ[٨] يَعْصِمُهُمْ[٩] ضَرْبٌ إِذَا عَرَّدَ[١٠] السُّودُ التَّنَابِيلُ[١١]

وفي رواية أبي بكر ابن الأنباري أنه لما وصل إلى قوله:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُولُ

رَمىٰ عليه الصلاة والسلام إليه بردة كانت عليه، وأنَّ معاوية رضي الله عنه بذل له فيها عشرة آلاف، فقال: ما كنت لأوثر برسول الله ﷺ أحدًا، فلما مات كعب، بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفًا فأخذها منهم.

---

(١) الجَدَث: القبر. (٢) بَانت: فارقت.
(٣) مَتبُول: أصيب بتبل، والتبل أن يُسْقِمَ الهَوَى الإنسان.
(٤) متيَّم: معبَّد. (٥) مَكْبُول: مقيد.
(٦) العُصْبة: من العشرة إلى الأربعين.
(٧) زولوا: من زَالَ يَزُول زولًا، والمراد به: الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.
(٨) الزهر: البيض، جمع: أزهر، وزهراء.
(٩) يعصمهم: يمنعهم. (١٠) عرَّد: فرَّ.
(١١) التَّنابِيلُ: القصار، جمع: تِنْبال ـ بكسر التاء ـ.

وها هو ﷺ يمدح نفسه بنفسه قال:

«أنا خير أصحاب اليمين»، «أنا خير السابقين».

«أنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر»(١).

وقال: **«أنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر»**(٢).

وقال: **«لم يلتق أبواي على سفاح قط»**(٣).

ويقول جبريل عليه السلام: «قلبت مشارق الأرض ومغاربها، فلم أرَ رجلًا أفضل من محمد، ولم أرَ بني أب أفضل من بني هاشم»(٤).

وعن أنس رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ أُتِيَ بالبراق ليلة أُسريَ به فاستصعب عليه، فقال له جبريل: «بمحمد تفعل هذا؟ فما ركبك أحد أكرم على الله منه»، فارفضَّ عرقًا(٥).

وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ ـ آدم فمن سواه ـ إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر»**(٦).

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا أول الناس خروجًا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا، لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر»**(٧).

وقال صلى الله عليه وسلم: **«وأنا أكرم ولد آدم على ربي، يطوف عَلَيَّ ألف خادم كأنهم بيض مكنون، أو لؤلؤ منثور»**(٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«أنا أول من تنشق عنه الأرض فأُكسَى حلة من حلل الجنة، ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من**

---

(١) رواها الطبراني، والبيهقي في «الدلائل».

(٢) رواه الترمذي، والدارمي.

(٣) رواه ابن عمر العدني في مسنده.

(٤) رواه البيهقي، وأبو نعيم والطبراني عن عائشة رضي الله عنها.

(٥) رواه الشيخان.

(٦) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

(٧) رواه الترمذي.

(٨) رواه الدارمي.

الخلائق يقوم ذلك المقام غيري»(١).

الأنبياء بَشَرٌ... ولكن!

يظن بعض الناس أنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يساوون غيرهم من البشر في كل أحوالهم وأعراضهم، وهذا خطأ واضح وجهل فاضح، ترده الأدلة الصحيحة من الكتاب والسُّنة.

وهم وإن كانوا يشتركون مع جميع بني آدم في حقيقة الأصل التي هي البشرية كما بيّنه قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]، إلَّا أنهم يختلفون عنهم في كثير من الصفات والعوارض، وإلَّا فما هي مزيتهم؟ وكيف تظهر ثمرة اصطفائهم على غيرهم واجتبائهم على من سواهم؟

وسنذكر في هذا المبحث شيئًا من صفاتهم في الدنيا، وخصائصهم في البرزخ التي ثبتت لهم بنص الكتاب والسُّنة.

الأنبياء سَادةُ البَشر:

الأنبياء هم الصفوة المختارة من عباد الله شرَّفهم الله بالنبوة، وأعطاهم الحكمة، ورزقهم قوة العقل وسَداد الرأي، واصطفاهم ليكونوا وسطاء بينه وبين خلقه، يبلغونهم أوامر الله عز وجل، ويحذرونهم غضبه وعقابه ويرشدونهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، وقد اقتضت حكمة الله أن يكونوا من البشر ليتمكن الناس من الاجتماع بهم والأخذ عنهم، والاتباع لهم في سلوكهم وأخلاقهم، والبشرية هي عين إعجازهم؛ فهم بشر من جنس البشر لكنهم متميزون عنهم بما لا يلحقهم به أحد، ومن هنا كانت ملاحظة البشرية العادية المجردة فيهم دون غيرها هي نظرة جاهلية شركية. وفي القرآن شواهد كثيرة على ذلك.

فمن ذلك: قول قوم نوح في حقه فيما حكاه الله عنهم؛ إذ قال: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]، ومن

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

ذلك قول قوم موسى وهارون في حقهما فيما حكاه الله عنهم؛ إذ قال: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۝٤٧﴾ [المؤمنون: ٤٧].

ومن ذلك: قول ثمود لصالح عليه السلام فيما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٥٤﴾ [الشعراء: ١٥٤].

ومن ذلك: قول أصحاب الأيكة لنبيهم شعيب فيما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝١٨٦﴾ [الشعراء: ١٨٥، ١٨٦].

ومن ذلك قول المشركين في حق سيدنا محمد ﷺ، وقد رأوه بعين البشرية المجردة فيما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

صفات الأنبياء عليهم السلام:

والأنبياء صلوات الله عليهم وإن كانوا من البشر؛ يأكلون ويشربون ويصحون ويمرضون، وينكحون النساء ويمشون في الأسواق، وتعتريهم العوارض التي تمر على البشر من ضعف وشيخوخة وموت، إلَّا أنهم يمتازون بخصائص ويتصفون بأوصاف عظيمة جليلة؛ هي بالنسبة لهم من ألزم اللوازم ومن أهم الضروريات. وهذه الصفات نلخصها فيما يلي:

١ ـ الصدق. ٢ ـ التبليغ.
٣ ـ الأمانة. ٤ ـ الفطانة.
٥ ـ السلامة من العيوب المنفرة. ٦ ـ العصمة.

وليس هذا محل تفصيل هذه الصفات، فقد تكفلت بها كتب التوحيد، وسنذكر هنا بعض الصفات التي يتميز بها سيد الأنبياء ﷺ عن عامة البشر.

ـ يَرىٰ من خَلفهِ كما يَرىٰ من أمامه ﷺ:

أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«هل ترون قبلتي هاهنا؟ فوالله ما يخفى عليَّ ركوعكم ولا سجودكم، إني لأراكم من وراء ظهري»**.

وأخرج مسلم عن أنس رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«أيها الناس إني إمامكم فلا تسبقوني بالركوع ولا بالسجود ولا بالقيام ولا بالانصراف فإني أراكم أمامي ومن خلفي»**.

وأخرج عبد الرزاق في «مصنفه»، والحاكم، وأبو نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: **«إني لأنظر إلى ما ورائي كما أنظر إلى ما بين يدي»**.

وأخرج أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني أراكم من وراء ظهري»**.

ـ يرى ﷺ ما لا نَرىٰ، ويَسمعُ ﷺ ما لا نسمع:

عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أَطَّت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلَّا ومَلَك واضع جبهته ساجدًا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله»**. قال أبو ذر: لوددت أني كنت شجرة تعضد[1].

ـ إبطهُ الشريف ﷺ:

أخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه، قال: **«رأيت رسول الله ﷺ يرفع يديه في الدعاء حتى يُرى بياضُ إبطيه»**.

وأخرج ابن سعد عن جابر رضي الله عنه، قال: **«كان النبي ﷺ إذا سجد، يُرىٰ بياضُ إبطيه»**. وقد ورد ذكر بياض إبطيه ﷺ في عدة أحاديث عن جماعة من الصحابة.

قال المحب الطبري: من خصائصه ﷺ: أنَّ الإبط من جميع الناس مُتَغيّرُ اللون غيره ـ ﷺ ـ، وذكر القرطبي مثل ذلك وزاد: «وأنه لا شعر فيه».

---

(١) رواه: أحمد، والترمذي، وابن ماجه.

ـ **حفظه ﷺ من التثاؤب:**

أخرج البخاري في «التاريخ»، وابن أبي شيبة في «المصنف»، وابن سعد عن يزيد بن الأصم، قال: «**ما تثاءب النبي ﷺ قط**».

وأخرج ابن أبي شيبة عن مسلمة بن عبد الملك بن مروان، قال: «**ما تثاءب نبي قط**».

ـ **عَرقهُ الشريف ﷺ:**

أخرج مسلم عن أنس رضي الله عنه، قال: دخل علينا رسول الله ﷺ فَقَالَ[١] عندنا، فعرق وجاءت أمي بقارورة فجعلت تسلت العرق، فاستيقظ النبي ﷺ فقال: «**يا أم سُلَيم، ما هذا الذي تصنعين؟**» قالت: عرق نجعله في طِيبنَا، وهو أطيب الطيب.

وأخرج من وجه آخر عن أنس رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وَسلَّم كان يأتي أم سُلَيم فَيقِيلُ[١] عندها، فتبسط له نطعًا فيقيل عليه، وكان كثير العرق، فكانت تجمع عرقه فتجعله في الطيب والقوارير، فقال: «**يا أم سُلَيم! ما هذا؟**» قالت: عرقك أذوف به طيبي.

ـ **طُولُه ﷺ:**

أخرج ابن أبي خيثمة في «تاريخه» والبيهقي، وابن عساكر عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، وكان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده، ولم يكن على حال يماشيه أحد من الناس ينسب إلى الطول إلَّا طاله رسول الله ﷺ ولربما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما، فإذا فارقاه نُسِبَ رسول الله ﷺ إلى الربعة».

وذكر ابن سبع في «الخصائص» ذلك وزاد: أنه كان إذا جلس يكون كتفه أعلى من جميع الجالسين.

---

(١) من القيلولة.

ـ ظِلّهُ ﷺ:

أخرج الحكيم الترمذي عن ذكوان أنَّ رسول الله ﷺ لم يكن له ظل في شمس ولا قمر. قال ابن سبع: «من خصائصه ـ ﷺ ـ أنَّ الظل كان لا يقع على الأرض وأنه كان نورًا، فكان إذا مشى في الشمس أو القمر لا ينظر له ظل، قال بعضهم: ويشهد له قوله ﷺ في دعائه: «**واجعلني نورًا**»».

ـ حفظه من الذُّبَاب:

وذكر القاضي عياض في «الشفا»، والعزفيّ في «مولده»: أنَّ من خصائصه ﷺ أنه كان لا ينزل عليه الذباب، وذكره ابن سبع في «الخصائص» بلفظ: «إنه لم يقع على ثيابه ذباب قط»، وزاد: «أنَّ من خصائصه ﷺ: أنَّ القمل لم يكن يؤذيه».

ـ دمه ﷺ:

أخرج البزار، وأبو يعلى، والطبراني، والحاكم، والبيهقي عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أنه أتى النبي ﷺ وهو يحتجم فلما فرغ، قال: «**يا عبد الله! اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد**»، فشربه. فلما رجع قال: «**يا عبد الله! ما صنعت؟**» قال: جعلته في أخفى مكان علمت أنه مخفي عن الناس، قال: «**لعلك شربته؟**» قلت: نعم، قال: «**ويل للناس منك وويل لك من الناس**»، فكانوا يرون أنَّ القوة التي به من ذلك الدم.

ـ نومه ﷺ:

أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها، قالت: يا رسول الله! أتنام قبل أن توتر؟ فقال: «**يا عائشة، إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي**».

وأخرج أبو نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**تنام عيني ولا ينام قلبي**».

وأخرج الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم**».

- جِمَاعهُ ﷺ:

أخرج البخاري من طريق قتادة، عن أنس رضي الله عنه، قال: «كان النبي ﷺ يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة، قلت لأنس: أو كان يطيقه؟ قال: كنا نَتحدّثُ أنه أعطي قوة ثلاثين».

- حِفظهُ ﷺ من الاحتلام:

أخرج الطبراني من طريق عكرمة عن ابن عباس، والدينوري في «المجالسة» من طريق مجاهد عن ابن عباس، قال: ما احتلم نبي قط وإنما الاحتلام من الشيطان.

خُلاصَةٌ مُفِيدة:

وقد نظم بعضهم جُملةً من الخصائص التي تميز بها ﷺ عن غيره من جهة الصفات البشرية العادية فقال:

خُصَّ نَبِيُّنَا بِعَشْرَةِ خِصَالْ ... لَمْ يَحْتَلِمْ قَطُّ وَمَا لَهُ ظِلَالْ
وَالأَرْضُ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ تَبْتَلِعْ ... كَذَلِكَ الذُّبَابُ عَنْهُ مُمْتَنِعْ
تَنَامُ عَيْنَاهُ وَقَلْبٌ لا يَنَامْ ... مِنْ خَلْفِهِ يَرَى كَمَا يَرَى أَمَامْ
لَمْ يَتَثَاءَبْ قَطُّ وَهْيَ السَّابِعَةْ ... وُلِدَ مَخْتُونًا إِلَيْهَا تَابِعَةْ
تَعْرِفُهُ الدَّوَابُ حِينَ يَرْكَبُ ... تَأْتِي إِلَيْهِ سُرْعَةً لَا تَهْرُبُ
يَعْلُو جُلُوسُهُ جُلُوسَ الْجُلَسَا ... صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ صُبْحًا وَمَسَا

وقد ذكرنا في (مباحث نبوية) من «الباب الثاني» بعض الخصائص النبوية وخلاصة ما نراه في ذلك، وهي أنَّ هذه الخصائص كثيرة جدًا، منها ما صح سنده، ومنها ما لم يصح، ومنها ما هو مختلف فيه بين العلماء؛ إذ يرى بعضهم أنه صحيح، ويرى الآخرون خلاف ذلك، فهي مسائل خلافية.

والكلام فيها دائر بين العلماء من قديم بين الصواب والخطأ، والصحة والبطلان، لا بين الكفر والإيمان، وقد نقلنا جملة من هذه الخصائص التي منها ما هو صحيح، ومنها ما هو ليس بصحيح، ومنها المقبول، ومنها غير ذلك. نقلناها لتكون شواهد على ما ذكرناه من تسامح بعض أئمة الحديث في نقل ذلك دون تحقيق أو نقد، وليس المقصود من ذلك الكلام حول صحتها وعدم صحتها، أو ثبوتها وعدم ثبوتها، فتدبر!

مفهوم التبرك

يُخطِئُ كثير من الناس في فهم حقيقة التبرك بالنبي ﷺ وآثاره وآل بيته وورّاثه من العلماء والأولياء رضي الله عنهم، فيصفون كل من يَسلُكُ ذلك المسلك بالشرك والضلال، كما هي عادتهم في كل جديد يضيق عنه نظرهم، ويقصر عن إدراكه تفكيرهم.

وقبل أن نُبيّنَ الأدلة والشواهد الناطقة بجواز ذلك، بل بمشروعيته، ينبغي أنْ نعلم أن التبرك ليس هو إلَّا توسلًا إلى الله سبحانه وتعالى بذلك المتبرَّك به، سواء أكان أثرًا أو مكانًا، أو شخصًا.

أما الأعيان؛ فلاعتقاد فضلها وقربها من الله سبحانه وتعالى، مع اعتقاد عجزها عن جلب خير أو دفع شر إلَّا بإذن الله.

وأما الآثار؛ فلأنها منسوبة إلى تلك الأعيان، فهي مُشَرَّفة بشرفها، ومكرَّمة ومعظَّمة ومحبوبة لأجلها.

وأما الأمكنة؛ فلا فضل لها لذاتها من حيث هي أمكنة، وإنما لما يَحِلُّ فيها ويقع من خير وبر؛ كالصلاة والصيام وجميع أنواع العبادات مما يقوم به عباد الله الصالحون؛ إذ تتنزل فيها الرحمات، وتحضرها الملائكة وتغشاها السكينة، وهذه هي البركة التي تطلب من الله في الأماكن المقصودة لذلك.

وهذه البركة تُطلَبُ بالتعرض لها في أماكنها بالتوجه إلى الله تعالى ودعائه واستغفاره، وتذكّر ما وقع في تلك الأماكن من حوادث عظيمة ومناسبات

كريمة، تحرك النفوس وتبعث الهمة والنشاط للتشبه بأهلها أهل الفلاح والصلاح، وإليك هذه النصوص المقتبسة من رسالتنا الخاصة في موضوع البركة.

التبرك بشعره وبصاقه ﷺ:

عن جعفر بن عبد الله بن الحكم: أنَّ خالد بن الوليد رضي الله عنه فقد قلنسوة له يوم اليرموك، فقال: اطلبوها، فلم يجدوها، فقال: اطلبوها، فوجدوها، فإذا هي قلنسوة خَلِقَةٌ ـ أي ليست بجديدة ـ، فقال خالد: اعتمر رسول الله ﷺ فحلق رأسه، فابتدر الناس جوانب شعره، فسبقتهم إلى ناصيته، فجعلتها في هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالًا وهي معي؛ إلَّا رزقت النصر[١].

وعن مالك بن حمزة بن أبي أسيد الساعدي الخزرجي، عن أبيه، عن جده أبي أسيد وله بئر بالمدينة يقال لها: بئر بُضَاعة، قد بصق فيها النبي ﷺ، فهو يشرب منها ويتيمن بها[٢].

وصف عروة بن مسعود حال الصحابة مع النبي ﷺ:

روىٰ الإمام البخاري بسنده إلى المسور بن مخرمة، ومروان، قالا: ثُمّ إنَّ عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه قال: فوالله ما تَنَخَّمَ رسول الله ﷺ نخامة إلَّا وقعت في كف رجل منهم، فَدَلَكَ بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّونَ إليه النظر تعظيمًا له، فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: «أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إنْ رأيت[٣] مَلِكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ

---

(١) قال الهيثمي: رواه الطبراني، وأبو يعلى بنحوه، ورجالهما رجال الصحيح، وجعفر سمع من جماعة من الصحابة، فلا أدري سمع من خالد أم لا. اهـ. «مجمع الزوائد» ٩: ٣٤٩. وذكره ابن حجر في «المطالب العالية» ٤: ٩٠، وفيه يقول خالد: (فما وجهت في وجه إلا فتح لي).

(٢) رواه الطبراني، ورجاله ثقات. (٣) أي ما رأيت.

محمدًا ـ ﷺ ـ، والله إن تَنَخَّمَ نخامة إلّا وقعت في كفِّ رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّونَ إليه النظر تعظيمًا له»(١).

تَعليقُ الحافظ ابن حجر على هذه القصة:

«وفيه طهارة النخامة والشعر المنفصل، والتبرك بفضلات الصالحين الطاهرة، ولعل الصحابة فعلوا ذلك بحضرة عروة وبالغوا في ذلك؛ إشارة منهم إلى الرد على ما خشيه من فرارهم، وكأنهم قالوا بلسان الحال: من يحب إمَامهُ هذه المحبة ويعظمه هذا التعظيم، كيف يظن به أنه يفر عنه وَيُسلِمهُ لعدوه؟ بل هم أشد اغتباطًا به وبدينه وبنصره من القبائل التي يراعي بعضها بعضًا بمجرد الرحم، فيستفاد منه جواز التوصل إلى المقصود بكل طريق سائغ»(٢).

النبي ﷺ يُرشِدُ إلى المحافظة على بقية وَضُوئه:

عن طلق بن علي، قال: خرجنا وفدًا إلى رسول الله ﷺ فبايعناه وصلينا معه، وأخبرناه أنَّ بأرضنا بيعة لنا، فاستوهبناه من فضل طهوره، فدعا بماء فتوضأ وتمضمض ثم صبه لنا في إداوة، وأمرنا فقال: «**اخرجوا فإذا أتيتم أرضكم فاكسروا بيعتكم وانضحوا مكانها بهذا الماء واتخذوها مسجدًا**»، قلنا: إنَّ البلد بعيد والحر شديد والماء ينشف، فقال: «**مُدُّوهُ من الماء، فإنه لا يزيده إلّا طيبًا**»(٣).

وهذا الحديث من الأصول المعتبرة المشتهرة الدالة على مشروعية التبرك به وبآثاره، وبكل ما هو منسوب إليه، فإنه ﷺ أخذ وَضُوءَهُ ثم جعله في إناء، ثم أمرهم أن يأخذوه معهم إجابة لطلبهم وتحقيقًا لمرادهم، فلا بد أنَّ هناك سرًّا قويًا مُتَمكِّنًا في نفوسهم دفعهم إلى طلب هذا الماء بخصوصه، والمدينة مملوءة

---

(١) رواه البخاري في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، ٥:٣٤١.

(٣) رواه النسائي. كذا في «المشكاة» برقم: ٧١٦.

بالمياه، بل وبلادهم مملوءة بالماء، فَلِمَ هذا التعب والتكلف في حمل قليل من الماء من بلد إلى بلد؛ مع بُعد المسافة وطول السفر وحرارة الشمس؟

نعم، كل ذلك لم يهمهم، لأنَّ المعنى الذي يحمله هذا الماء يهون عليهم كل مشقة، ألا وهو التبرك به وبآثاره، وبكل ما هو منسوب إليه، وهو لا يوجد في بلدهم ولا يتوافر على كل حال عندهم، بل ويتأكد تأييده لهم ﷺ ورضاه عن فعلهم بجوابه لهم لما قالوا: إنَّ الماء ينشف لشدة الحر؛ إذ قال لهم: «**مُدُّوهُ من الماء**»، فبين لهم أنَّ بركته التي حلت في الماء لا تزال باقية مهما زادوا فيه، فهي مستمرة متصلة.

التبرك بشعره ﷺ بعد موته:

عن عثمان بن عبد الله بن موهب، قال: أرسلني أهلي إلى أم سَلَمة بقدح من ماء، فجاءت بجلجل من فضة فيه شَعرٌ من شَعر النبي ﷺ، وكان إذا أصاب الإنسان عين أو شيء؛ بعث إليها مِخْضَبَهُ. قال: فاطلعت في الجلجل فرأيت شعرات حُمْرًا[1].

قال الإمام الحافظ ابن حجر في «الفتح»: «وقد بينه وكيع في «مصنَّفه» فقال: كان جلجلًا من فضة صيغ صوانًا لشعرات النبي ﷺ التي كانت عند أم سلمة. والجُلْجُل: هو شبه الجرس يتخذ من الفضة أو الصفر أو النحاس، وقد تنزع منه الحصاة التي تتحرك فيه فيوضع فيه ما يحتاج إلى صيانته»[2].

قال الإمام العيني: «وبيان ذلك على التحرير: أنَّ أم سَلَمة كان عندها شعرات من شعر النبي ﷺ حُمْر في شيء مثل الجلجل، وكان الناس عند مرضهم يتبركون بها، ويستشفون من بركتها، ويأخذون من شعره ويجعلونه في قدح من الماء، فيشربون الماء الذي فيه الشعر، فيحصل لهم الشفاء، وكان أهل عثمان أخذوا منها شيئًا وجعلوه في قدح من فضة فشربوا الماء الذي فيه، فحصل لهم الشفاء، ثم أرسلوا عثمان بذلك القدح إلى أم سلمة، فأخذته أم سلمة،

---

(١) رواه البخاري في (كتاب اللباس)، «باب ما يذكر في الشيب».
(٢) ابن حجر، «فتح الباري» ١٠: ٢٩٠.

ووضعته في الجلجل، فاطلع عثمان في الجلجل، فرأى فيه شعرات حُمْرًا.

قوله: «وكان إذا أصاب الإنسان. . . إلى آخره»: كلام عثمان بن عبد الله بن موهب: أي كان أهلي. كذا فسره الكرماني.

وقال بعضهم: وكان ـ أي الناس ـ إذا أصاب الإنسان: أي منهم.

والذي قاله الكرماني أصوب، يبين به أنَّ الإنسان إذا أصابه عين أو شيء من الأمراض بعث أهله إليها: أي إلى أم سلمة، مِخْضَبَة ـ بكسر الميم وسكون الخاء المعجمة وفتح الضاد المعجمة والباء الموحدة ـ وهي الإجّانة، ويجعل فيها ماء وشيء من الشعر المبارك، ويجلس فيها، فيحصل له الشفاء، ثم يرد الشعر إلى الجلجل»[١].

النبي ﷺ يَقْسِمُ شَعره بين الناس:

رَوىٰ مسلم من حديث أنس رضي الله عنه، أنَّ النبي ﷺ أتى منىً فأتى الجمرة فرماها، ثم أتى منزله بمنىً ونحر، ثم قال للحلاق: «خُذْ»، وأشار إلى جانبه الأيمن ثم الأيسر، ثم جعل يعطيه الناس.

وَروىٰ الترمذي من حديث أنس أيضًا، قال: لما رمى رسول الله ﷺ الجمرة، نحر نسكه ثم ناول الحالق شقه الأيمن فحلقه، فأعطاه أبا طلحة، ثم ناوله شقه الأيسر فحلقه، فقال: «**اقسمه بين الناس**».

ثم ظاهر رواية الترمذي: أنَّ الشعر الذي أمر أبا طلحة بقسمته بين الناس هو شعر الشق الأيسر، وهكذا رواية مسلم من طريق ابن عيينة، وأما رواية حفص بن غياث، وعبد الأعلى ففيهما: أنَّ الشِّقَ الذي قسمه بين الناس هو الأيمن، وكلا الروايتين عند مسلم.

توزيع شعره ﷺ شعرة شعرة:

وقد جاء في رواية حفص عند مسلم أيضًا بلفظ: «فبدأ بالشق الأيمن

(١) العيني؛ «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» ٢٢:٤٩.

فوزعه الشعرة والشعرتين بين الناس، ثم قَالَ بالأيسر فصنع به مثل ذلك».

وقال أبو بكر في روايته عن حفص قال للحلاق: «**ها**»، وأشار بيده إلى الجانب الأيمن هكذا، فقسم شعره بين من يليه، قال: ثم أشار إلى الحلاق وإلى الجانب الأيسر فحلقه، فأعطاه أم سُلَيم.

الناس يتهافتون على شعره ﷺ:

وفي رواية أحمد في «المسند» ما يقتضي أنه أرسل شعر الشق الأيمن مع أنس إلى أمه أم سليم ـ امرأة أبي طلحة ـ فإنه قال فيها: لما حلق رسول الله ﷺ رأسه بمنى أخذ شق رأسه الأيمن بيده، فلما فرغ ناولني فقال: «**يا أنس! انطلق بهذا إلى أم سليم**»، قال: «فلما رأى الناس ما خصنا به تنافسوا في الشق الآخر، هذا يأخذ الشيء، وهذا يأخذ الشيء».

تَحقِيقُ الكلام في الموضوع:

وقد اختلفت الروايات في هذا الموضوع كما ترى، ففي بعضها أنَّ الذي أعطاه لأبي طلحة هو الشق الأيمن، والذي قسمه بين الناس هو الأيسر، وفي بعضها العكس، وفي بعضها أنه أعطى الأيسر لأم سُلَيم.

وَيُجْمعُ بين هذه الروايات بما جاء عن صاحب «المُفْهِم»؛ إذ قال: «إنَّ قوله: لما حلق رسول الله ﷺ شق رأسه الأيمن أعطاه أبا طلحة» ليس مناقضًا لما في الرواية الثانية: أنه قسم شعر الجانب الأيمن بين الناس، وشعر الجانب الأيسر أعطاه أم سليم. ـ وهي امرأة أبي طلحة وهي أم أنس رضي الله عنهما ـ قال: ويحصل من مجموع هذه الروايات: أنَّ النبي ﷺ لما حلق الشق الأيمن ناوله أبا طلحة ليقسمه بين الناس، ففعل أبو طلحة، وناول شعر الشق الأيسر لأمّ سليم ليكون عند أبي طلحة، فصحت نسبة كل ذلك إلى من نسب إليه»، والله أعلم.

وقد رجّحَ المُحِبُّ الطبري في موضعِ إمكانَ جَمعها، ورجح في مكان تَعذُّره فقال: «والصحيح أنَّ الذي وزعه علَى الناس الشق الأيمن، وأعطى

الأيسر أبا طلحة وأم سليم، ولا تضاد بين الروايتين؛ لأنَّ أم سليم امرأة أبي طلحة، فأعطاه ﷺ لهما فنسب العطية تارة إليه وتارة إليها. انتهى.

وفيه التبرك بشعره ﷺ وغير ذلك من آثاره ـ بأبي وأمي ونفسي هو ـ، وقد روى أحمد في «مسنده» عن ابن سيرين أنه قال: فحدثنيه عَبِيدة السَّلمَاني ـ يريد هذا الحديث ـ، فقال: لأن يكون عندي شعرة منه أحب إليَّ من كل بيضاء وصفراء على وجه الأرض وفي بطنها.

وقد ذكر غير واحد أنَّ خالد بن الوليد رضي الله عنه كان في قلنسوته شعرات من شعره ﷺ، فلذلك كان لا يُقْدِم على وجه إلَّا فتح له، ويؤيد ذلك ما ذكره الملَّا في«السيرة» أنَّ خالدًا سأل أبا طلحة حين فرق شعره ﷺ بين الناس أن يعطيه شعر ناصيته، فأعطاه إياه، فكان مُقدَّمُ ناصيته مناسبًا لفتح كل ما أقدم عليه». انتهى(١).

التبرك بعرقه ﷺ:

عن ثمامة، عن أنس رضي الله عنه: أنَّ أم سُلَيم كانت تبسط للنبي ﷺ نطعًا فَيقِيلُ عندها على ذلك النطع، قال: فإذا نام النبي ﷺ أخذت من عرقه وشعره فجمعته في قارورة، ثم جمعته في سُكٍّ(٢) وهو نائم. قال: فلما حضر أنس بن مالك الوفاة، أوصى إليَّ أن يُجعَل في حنوطه من ذلك السُّكِّ، قال: فجعل في حنوطه(٣).

وفي رواية عند مسلم: دخل علينا النبي ﷺ فَقَالَ عندنا فعرق، وجاءت أمي بقارورة فجعلت تسلت العرق فيها، فاستيقظ النبي ﷺ فقال: «**يا أم سليم! ما هذا الذي تصنعين؟**»، قالت: هذا عرقك نجعله في طيبنا، وهو من أطيب الطيب.

وفي رواية إسحاق بن أبي طلحة: وعرق واستنقع عرقه على قطعة أديم

---

(١) العيني؛ «عمدة القاري» ٨: ٢٣٠، ٢٣١.
(٢) سُكّ: بضم المهملة وتشديد الكاف هو طيب مركب.
(٣) رواه البخاري في (كتاب الاستئذان)، «باب من زار قومًا فقال عندهم».

على الفراش، فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها فأفاق، فقال: «**ما تصنعين؟**» قالت: نرجو بركته لصبياننا، فقال: «**أصبت**».

وفي رواية أبي قلابة: «فكانت تجمع عرقه فتجعله في الطيب والقوارير فقال: «**ما هذا؟**» قالت: عرقك أدوف به طيبي».

ويستفاد من هذه الروايات: اطّلاع النبي ﷺ على فعل أم سليم وتصويبه، ولا معارضة بين قولها إنها كانت تجمعه لأجل طيبه وبين قولها للبركة، بل يحمل على أنها كانت تفعل ذلك للأمرين معًا». انتهى[1].

التبرك بِمَسِّ جلده ﷺ:

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيه، قال: كان أُسَيد بن حضير رضي الله عنه رجلًا ضاحكًا مليحًا، فبينما هو عند رسول الله ﷺ يُحدّث القوم ويضحكهم، فطعن رسول الله ﷺ بأصبعه في خاصرته، فقال: أوجعتني، قال ﷺ: «**اقتص**»، قال: يا رسول الله! إنَّ عليك قميصًا ولم يكن عليَّ قميص، قال: فرفع رسول الله ﷺ قميصه فاحتضنه، ثم جعل يقبل كشحه، يقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! أردت هذا.

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي فقال: صحيح[2].

وأخرج ابن إسحاق، عن حبان بن واسع، عن أشياخ من قومه: أنَّ رسول الله ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدح يعدل به القوم، فمر بسواد بن غَزِيّة رضي الله عنه حليف بني عدي بن النجار، وهو مُستنتلٌ من الصف ـ أي خارج ـ، فطعن في بطنه بالقدح وقال: «**استوِ يا سواد**»، فقال: يا رسول الله! أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، فقال: «**استقد**»، فاعتنقه، فقبل بطنه فقال: «**ما حملك على هذا يا**

---

(١) ابن حجر، «فتح الباري» ١١ : ٢.

(٢) وأخرج ابن عساكر عن أبي ليلى رضي الله عنه مثله، كما في «الكنز» ٧ : ٣٠١. قلت: والحديث عند أبي داود، والطبراني عن أسيد بن حضير نحوه، كما في «الكنز»، ٤ : ٤٣.

سواد؟»، قال: يا رسول الله! حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يَمسّ جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير.[١].

وأخرج عبد الرزاق عن الحسن أنَّ النبي ﷺ لقي رجلًا مُختَضِبًا بصفرة وفي يد النبي ﷺ جريدة، فقال النبي ﷺ: «**خط ورس**»، فطعن بالجريدة بطن الرجل وقال: «**ألم أنهك عن هذا؟**»، فَأَثّر في بطنه دمًا أدماه، فقال الرجل: القود يا رسول الله! فقال الناس: أمِنْ رسول الله ﷺ تقتص؟ فقال: ما لبشرة أحد فضل على بشرتي، فكشف النبي ﷺ عن بطنه، ثم قال: «**اقتص**»، فقبَّل الرجل بطن النبي ﷺ وقال: أدَعها لك أن تشفع لي يوم القيامة[٢].

وأخرج ابن سعد[٣] عن الحسن: أنَّ رسول الله ﷺ رأى سوادة بن عمرو هكذا، قال إسماعيل: ملتحفًا، فقال: خط خط ورس ورس، ثم طعن بعود أو سواك في بطنه فماد في بطنه فأثر في بطنه، فذكر نحوه.

وأخرج عبد الرزاق أيضًا[٤] عن الحسن، قال: كان رجل من الأنصار يقال له: سوادة بن عمرو رضي الله عنه يَتَخلّقُ[٥] كأنه عرجون، وكان النبي ﷺ إذا رآه نغض له، فجاء يومًا وهو مُتَخَلّقٌ فأهوى له النبي ﷺ بعود كان في يده فجرحه، فقال له: القصاص يا رسول الله! فأعطاه العود، وكان على النبي ﷺ قميصان، فجعل يرفعهما، فنهره الناس وكفَّ عنه، حتى إذا انتهى إلى المكان الذي جرحه رمى بالقضيب وعلق يقبله وقال: يا نبي الله! بل أدعها لك تشفع لي بها يوم القيامة.

خَبرُ زَاهر رضي الله عنه:

وكان ﷺ يقول: «**زاهر باديتنا ونحن حاضرته**»، وكان ﷺ يحبه، فمشى

---

(١) ابن كثير؛ «البداية والنهاية» ٤: ٢٧١.
(٢) «كنز العمال» ١٥: ٩١ قوله: أدعها لك، أي: أترك المقاصة.
(٣) ابن سعد؛ «الطبقات»٣: ٥١٦.
(٤) كما في «الكنز» ٧: ٣٠٢. وأخرج البغوي نحوه كما في «الإصابة» ٢: ٩٦.
(٥) أي يتطيب بالخلوق وهو طيب مركب من زعفران وغيره.

ﷺ يومًا إلى السوق فوجده قائمًا، فجاء من قبل ظهره وضمه بيده إلى صدره فأحسَّ زاهر بأنه رسول الله. قال: «فجعلت أمسح ظهري في صدره رجاء بركته».

وفي رواية الترمذي في «الشمائل»: فاحتضنه من خلفه ولا يبصره فقال: «أرسلني، من هذا؟» فالتفت فعرف النبي ﷺ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «**من يشتري العبد**»، فقال له زاهر: يا رسول الله! إذًا تجدني كاسدًا»، فقال ﷺ: «**أنت عند الله غالٍ**».

وفي رواية للترمذي أيضًا: «**لكن عند الله لست بكاسد**». أو قال: «**أنت عند الله غالٍ**»[١].

التبرك بدم النبي ﷺ

خَبرُ عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما:

عن عامر بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أنَّ أباه حَدّثهُ أنه أتى النبي ﷺ وهو يحتجم، فلما فرغ قال: «**يا عبد الله! اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد**». فلما برز عن رسول الله ﷺ عَمد إلى الدم فشربه، فلما رجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**يا عبد الله! ما صنعت بالدم؟**» قال: جعلته في أخفى مكان علمت أنه يخفى على الناس. قال: «**لعلك شربته؟**»، قال: نعم، فقال ﷺ: «**ولم شربت الدم؟ ويل للناس منك وويل لك من الناس**»[٢].

---

(١) القسطلاني؛ «المواهب اللدنية» ١:٢٩٧.

(٢) كذا في «الإصابة» ٢:٣١٠. وأخرجه الحاكم، ٣:٥٥٤. والطبراني نحوه، قال الهيثمي في المجمع ـ ٨:٢٧٠ ـ: رواه الطبراني والبزار باختصار، ورجال البزار رجال الصحيح غير هنيد بن القاسم وهو ثقة. انتهى.

وأخرج ابن عساكر نحوه كما في «الكنز» ٧:٥٧، مع ذكر قول أبي عاصم. وفي رواية: قال أبو سلمة: فيرون أن القوة التي كانت في ابن الزبير رضي الله عنهما من قوة دم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال أبو موسى: قال أبو عاصم: فكانوا يرون أنَّ القوة التي به من ذلك الدم.

وعند أبي نعيم في «الحِلية»[١] عن كيسان مولى عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، قال: دخل سلمان رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وإذا عبد الله بن الزبير معه طست يشرب ما فيها، فدخل عبد الله على رسول الله ﷺ فقال له: **«فرغت؟»** قال: نعم، قال سلمان: ما ذاك يا رسول الله؟ قال: **«أعطيته غسالة محاجمي يهريق ما فيها»**، قال سلمان: ذاك شربه والذي بعثك بالحق. قال: **«شربته؟»** قال: نعم، قال: **«لم؟»** قال: أحببت أن يكون دم رسول الله ﷺ في جوفي، فقال بيده على رأس ابن الزبير، وقال: **«ويل لك من الناس وويل للناس منك لا تمسّك النار إلَّا قسم اليمين»**[٢].

وفي رواية: أنَّ ابن الزبير لما شرب دم رسول الله ﷺ قال له ﷺ: **«فما حملك على ذلك؟»** قال: علمت أنَّ دمك لا تصيبه نار جهنم؛ فشربته لذلك، فقال: **«ويل لك من الناس»**.

وعند الدارقطني من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما نحوه وفيه: **«ولا تَمَسُّك النار»**. وفي كتاب «الجوهر المكنون في ذكر القبائل والبطون»: أنه لما شرب ـ أي عبد الله بن الزبير ـ دمه تضوع فمه مسكًا، وبقيت رائحته موجودة في فمه إلى أن صُلب رضي الله عنه[٣].

خَبَرُ سَفِينَةَ مَولىٰ النبي ﷺ:

وأخرج الطبراني عن سفينة رضي الله عنه، قال: احتجم النبي ﷺ ثم قال: **«خذ هذا الدم فادفنه من الدواب والطير والناس»**، فَتَغَيَّبْتُ فشربته، ثم ذكرت ذلك له فضحك[٤].

---

(١) أبو نعيم؛ «الحلية» ١:٣٣٠.

(٢) وأخرج ابن عساكر عن سلمان نحوه مختصرًا، ورجاله ثقات. كذا في «الكنز» ٧:٥٦. وروى نحوه الدارقطني في «سننه».

(٣) كذا في «المواهب» للحافظ القسطلاني ١:٢٨٤.

(٤) قال الهيثمي في «المجمع» ٨:٢٧٠: رجال الطبراني ثقات.

خَبرُ مالك بن سنان رضي الله عنه:

وفي «سنن سعيد بن منصور» من طريق عمرو بن السائب: أنه بلغه أنَّ مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري لما جرح النبي ﷺ في وجهه الشريف يوم أحد مَصَّ جرحه حتى أنقاه ولاح ـ أي ظهر ـ محل الجرح بعد المص أبيض، فقال له ﷺ: «**مُجَّهُ**»، فقال: ولا أمجه أبدًا، ثم ازْدَرَدَهُ ـ أي ابتلعه ـ فقال النبي ﷺ: «**من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فلينظر إلى هذا**»، فاستشهد بأحد.

رواه الطبراني أيضًا وفيه: قال ﷺ: «**من خالط دمي دمه لا تمسه النار**»(١).

وروى سعيد بن منصور أيضًا أنه ﷺ قال: «**من سره أن ينظر إلى رجل خالط دمي دمه، فلينظر إلى مالك بن سنان**».

حَجّامٌ آخر يشرب دَمَه ﷺ:

روى ابن حبان في «الضعفاء» عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: حَجَمَ النبيَّ ﷺ غلامٌ لبعض قريش، فلما فرغ من حجامته أخذ الدم فذهب به من وراء الحائط، فنظر يمينًا وشمالًا فلم ير أحدًا، فحسا دمه حتى فرغ، ثم أقبل فنظر في وجهه فقال: «**ويحك ما صنعت بالدم؟**»، قلت: غيبته من وراء الحائط، قال: «**أين غيبته؟**» قلت: يا رسول الله! نَفِستُ(٢) على دمك أن أهريقه في الأرض فهو في بطني، فقال: «**اذهب، فقد أحرزت نفسك من النار**»(٣).

خَبرُ بَركةَ خَادِمِ أم حبيبة رضي الله عنهما:

قال الحافظ ابن حجر: روى عبد الرزاق، عن ابن جريج، قال: أُخبِرتُ أنَّ النبي ﷺ كان يبول في قدح من عيدان ثم يوضع تحت سريره، فجاء فإذا القدح ليس فيه شيء، فقال لامرأة يقال لها: بركة، كانت تخدم أم حبيبة جاءت

---

(١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨: ٢٧٠: لم أر في إسناده من أجمع على ضعفه.

(٢) بكسر الفاء ضننت.

(٣) ذكره الحافظ القسطلاني في «المواهب اللدنية» ١: ٢٨٤.

معها من أرض الحبشة: «**أين البول الذي كان في القدح؟**» قالت: شربته، قال: «**صِحَّة يا أم يوسف**»، وكانت تُكنىٰ أم يوسف، فما مرضت قط حتى كان مرضها الذي ماتت فيه[١].

قُلْتُ: وقد رواه أبو داود، والنسائي مختصرًا، قال الحافظ السيوطي: «وقد أتمه ابن عبد البر في «الاستيعاب» وفيه: أنه سألها عن البول الذي كان في القدح، فقالت: شربته يا رسول الله، وذكر الحديث»[٢].

التبرك بالمكان الذي صَلّىٰ فيه النبي ﷺ:

عن نافع أنَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما حدثه أنَّ النبي ﷺ صلى حيث المسجد الصغير الذي دون المسجد الذي بشرف الروحاء، وقد كان عبد الله يُعلم المكان الذي صلى فيه النبي ﷺ يقول: «ثم عن يمينك حين تقوم في المسجد تصلى، وذلك المسجد على حافَة الطريق اليمنى وأنت ذاهب إلى مكة، بينه وبين المسجد الأكبر رمية بحجر أو نحو ذلك»[٣].

التبرك بموضع لَامَسَهُ فم النبي ﷺ:

رَوىٰ الإمام أحمد وغيره عن أنس رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ دخل على أم سُلَيم وفي البيت قِربةٌ معلقة، فشرب مِن فِيهَا ـ أي من فم القربة ـ وهو قائم، قال أنس: فقطعت أم سليم فم القربة فهو عندنا[٤].

والمعنى: أنَّ أم سُلَيم قطعت فم القربة الذي هو موضع شربه ﷺ، واحتفظت به في بيتها للتبرك بأثر النبي ﷺ.

التبرك بتقبيل يدِ مَن مَسَّ رسول الله ﷺ

عن يحيى بن الحارث الذماري، قال: لقيت واثلة بن الأسقع رضي الله

---

(١) ابن حجر؛ «التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الشرح الكبير» ٢: ٣٢.
(٢) السيوطي؛ «شرح سنن النسائي»، ١: ٣٢.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه الطبراني، وفيه البراء بن زيد تفرد عنه عبد الكريم الجزري ولم يضعفه أحمد، وبقية رجاله رجال الصحيح.

عنه فقلت: بايعْتَ بيدك هذه رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم، قلت: أعطني يدك أقبلْها، فأعطانيها فقبلتها[١].

وعند أبي نعيم في «الحلية»: عن يونس بن ميسرة، قال: دخلنا على يزيد بن الأسود عائدين، فدخل عليه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، فلما نظر إليه مد يده، فأخذ يده فمسح بها وجهه وصدره؛ لأنه بايع رسول الله ﷺ، فقال له: يا يزيد! كيف ظنك بربك؟ فقال: حسن. فقال: فأبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله تعالى يقول: أنا عند ظن عبدي بي؛ إنْ خيرًا فخير، وإن شرًا فشر**»[٢].

وأخرج البخاري في «الأدب المفرد» عن عبد الرحمن بن رزين، قال: مررنا بالرَّبذَة فقيل لنا: ههنا سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، فأتيته فسلمنا عليه فأخرج يديه فقال: بايعت بهاتين نبي الله ﷺ، فأخرج كَفًّا له ضخمة كأنها كَفُّ بعير، فقمنا إليها فقبلناها[٣].

وأخرج ابن سعد عن عبد الرحمن بن زيد العراقي نحوه[٤].

وأخرج البخاري أيضًا في «الأدب» عن ابن جدعان، قال ثابت لأنس رضي الله عنه: أمَسِسْتَ النبي ﷺ بيدك؟ قال: نعم، فقبلها[٥].

وأخرج البخاري أيضًا في «الأدب» عن صهيب، قال: رأيت عليًا رضي الله عنه يقبل يد العباس رضي الله عنه ورجْليه[٦].

وعن ثابت، قال: كنت إذا أتيت أنسًا يُخْبَرُ بمكاني، فأدخل عليه وآخذ يديه وأقبلهما وأقول: بأبي هاتين اليدين اللتين مَسّتا رسول الله ﷺ، وأقبل عينيه

---

(١) قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه عبد الملك القاري ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. «مجمع الزوائد» ٨: ٤٢.

(٢) أبو نعيم؛ «الحلية» ٩: ٣٠٦.

(٣) البخاري؛ «الأدب المفرد» ص١٤٤.

(٤) ابن سعد، «الطبقات» ٤: ٣٩.

(٥) البخاري؛ «الأدب المفرد» ص١٤٤.

(٦) البخاري؛ «الأدب المفرد» ص١٤٤.

وأقول: بأبي هاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ[١].

التَّبرك بِجُبَّتهِ ﷺ

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: أنها أخرجت جُبَّةَ طَيَالِسَةٍ كسروانية لها لِبْنة[٢] ديباج، وفرجيها مكفوفين بالديباج، فقالت: هذه جبة رسول الله ﷺ كانت عند عائشة حتى قبضت، فلما قبضت قبضتها، وكان النبي ﷺ يلبسها، فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها[٣].

التبرك بما مَسّتهُ يده ﷺ

عن صفية بنت مجزأة أنَّ أبا مَحذُورة كانت له قُصَّة في مُقَدّمِ رأسه إذا قعد أرسلها فتبلغ الأرض فقالوا له: ألا تحلقها؟ فقال: إن رسول الله ﷺ مسح عليها بيده فلم أكن لأحلقها حتى أموت[٤].

وعن محمد بن عبد الملك بن أبي محذورة، عن أبيه، عن جده، قال: قلت: يا رسول الله! علمني سنة الأذان، قال: فمسح مُقَدّم رأسي قال: «**تقول: الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر، ترفع بها صوتك**». الحديث.

وفي رواية: فكان أبو محذورة لا يجز ناصيته ولا يَفْرُقُها، لأنَّ النبي ﷺ مسح عليها[٥].

التَّبركُ بِقَدحِ النبي ﷺ ومسجدٍ صلَّى فيه

عن أبي بُردة، قال: قدمت المدينة فلقيني عبد الله بن سلام، فقال لي: انطلق إلى المنزل فأسقيك في قَدَح شرب فيه رسول الله ﷺ، وتصلي في مسجد

---

(١) ابن حجر؛ «المطالب العالية» ٤:١١١. وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أبي بكر المقدمي وهو ثقة. اهـ. «مجمع الزوائد» ٩:٣٢٥.

(٢) بكسر اللام وسكون الباء: رقعة في جيب القميص.

(٣) رواه مسلم في (كتاب اللباس والزينة)، ٣:١٤٠.

(٤) رواه الطبراني، وفيه أيوب بن ثابت المكي، قال أبو حاتم: لا يحمل حديثه. «مجمع الزوائد» ٥:١٦٥.

(٥) أخرجه: البيهقي، والدارقطني، وأحمد، وابن حبان، والنسائي بمعناه.

صَلّىٰ فيه النبي ﷺ، فانطلقت معه فأسقاني سويقًا، وأطعمني تمرًا، وصليت في مسجده[(١)].

التَّبرك بموضع قَدَمِ النبي ﷺ

جاء في الحديث عن أبي مجلز: أنَّ أبا موسى كان بين مكة والمدينة، فصلى العشاء ركعتين، ثم قام فصلى ركعة أوتر بها فقرأ فيها بمئة آية من النساء، ثم قال: ما ألوت أن أضع قدمي حيث وضع رسول الله ﷺ قدميه وأنا أقرأ بما قرأ به رسول الله ﷺ[(٢)].

التَّبركُ بِدَارٍ مُبَاركةٍ

عن محمد بن سوقة، عن أبيه، قال: لما بنى عمرو بن حريث داره أتيته لأستأجر منه بيتًا فقال: ما تصنع به؟ فقلت: أريد أن أجلس فيه وأشتري وأبيع، قال: أقلت ذلك؟ لأحدثك في هذه الدار بحديث: إنَّ هذه الدار مباركة على من سكن فيها، مباركة على من باع فيها واشترى، وذلك أني أتيت النبي ﷺ وعنده مال موضوع، فتناول بكفه منه دراهم فدفعها إليَّ وقال: «**هاك يا عمرو هذه الدراهم**» فأخذتها ثم مضيت بها إلى أمي فقلت: يا أمه، أمسكي هذه الدراهم حتى تنظر في أي شيء نضعها، فإنها دراهم أعطانيها رسول الله ﷺ، فأخذتها ثم مكثنا ما شاء الله حتى قدمنا الكوفة، فأردت شراء دار، فقالت لي أمي: يا بنيَّ! إذا اشتريت دارًا وهيأت مالها فأخبرني، ففعلت، ثم جئتها فدعوتها فجاءت والمال موضوع، فأخرجت شيئًا معها فطرحته في الدراهم ثم خلطتها بيدها، فقلت: يا أُمَّه! أي شيء هذه؟ قالت: يا بني! هذه الدراهم التي جئتني بها فزعمت أنَّ رسول الله ﷺ أعطاكها بيده. فأنا أعلم أنَّ هذه الدار مباركة لمن جلس فيها، مبارك لمن باع فيها واشترى[(٣)].

---

(١) رواه البخاري في (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة)، «باب ما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وحضّ على اتفاق أهل العلم».

(٢) رواه النسائي ٣:٢٤٣.

(٣) رواه الطبراني في «الكبير»، وأبو يعلى، اهـ. «مجمع الزوائد» ٤:١١١.

التبرك بمنبر رسول الله ﷺ[١]

قال القاضي عياض: رُئي ابن عمر رضي الله عنهما واضعًا يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر ثم وضعها على وجهه.

وعن ابن قسيط، والعتبي: «كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا خلا المسجد؛ جَسُّوا[٢] رمانة المنبر[٣] التي تلي القبر بميامنهم، ثم استقبلوا القبلة يدعون». اهـ[٤].

قال الملا علي القاري شارح الشفا: رواه ابن سعد[٥].

---

(١) **نصوص التبرُّك بالنبي ﷺ**: هذه النصوص تدل صراحة على انتقال بركة النبي ﷺ من ذاته إلى غيرها من الأعيان.
وتدل على اجتهاد الناس في تحصيل ذلك وحرصهم على طلبه في محله الذي انتقلت إليه؛ مِنْ يدٍ لامست يده، وقدحٍ شرب فيه، وقربةٍ لامست فمه، ودراهمَ مستها يده، وجبةٍ لبسها، وموضعٍ وقف فيه للصلاة ووطِئَتْه قدماه، وهذا كله مفصل في مواضعه، والشاهد فيه انتقال بركة ذاته الشريفة إلى غيرها من الأعيان بلا تفريق بين الذوات، وهذا يدخل فيه الأمكنة والأزمنة بلا إشكال، وأقرب دليل على ذلك حديث عتبان بن مالك الذي طلب من النبي ﷺ أن يصلي له في مكانه ليتخذه مصلى.
فالمحبون لبركة النبي ﷺ لا يرون لذلك معنى إلا طلب البركة من الله في المكان الذي صلى فيه المصطفى ﷺ وهو معنى التبرك بمكانه ﷺ.
وغيرهم ممن لا يحب بركة النبي ﷺ لهم في ذلك تأويلات فاسدة ضالة، والعياذ بالله تعالى من ذلك.
واستمع إلى العلامة المحدث الفقيه شيخ علماء زمانه الإمام النووي في شرح هذا الحديث، وهو يقول في «شرح مسلم»: وفي حديث عتبان هذا فوائد كثيرة منها: التبرك بالصالحين وآثارهم، والصلاة في المواضع التي صلوا بها وطلب التبريك منهم «شرح مسلم» ٥: ١٦١.
قال الإمام الحافظ ابن حجر في «فتح الباري شرح صحيح البخاري»: إنما استأذن النبي ﷺ لأنه دعي للصلاة ليتبرك صاحب البيت بمكان صلاته، فسأله ليصلي في البقعة التي يحب تخصيصها بذلك. «فتح الباري» ١: ٥١٨.
وانظر كذلك «عمدة القاري» للعيني، و«عون الباري» للشيخ صديق حسن خان.

(٢) جَسّوا: ـ بفتح الجيم وتشديد السين المهملة ـ، أي مسوا.

(٣) رمانة المنبر: أي العُقدة المشابهة للرمانة.

(٤) القاضي عياض، «الشفا» ٢: ٧٣.

(٥) القاري؛ «شرح الشفا» ٣: ٥١٨.

وَروىٰ الشيخ ابن تيمية عن الإمام أحمد أنه رَخَّصَ في التمسح بالمنبر والرمانة، وذكر أنَّ ابن عمر، وسعيد بن المسيب، ويحيى بن سعيد من فقهاء المدينة كانوا يفعلون ذلك. اهـ[١].

التبرك بقبره الشريف

لما حضرت الوفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال لابنه عبد الله: انطلق إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقل: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل: أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميرًا، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فَسلَّمَ واستأذن، ثم دخل عليها فوجدهاقاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر السلام ويستأذن أن يُدفَنَ مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرن به اليوم على نفسي. فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني. فأسنده رجل إليه. فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أذنت. قال: الحمد لله ما كان من شيء أهم إليَّ من ذلك، فإذا أنا قضيت فاحملوني، ثم سلِّم فقل: يستأذن عمر. فإن أذنَت لي فأدخلوني، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين[٢].

التبرك بالقبر النبوي

في مذهب حافظ الإسلام وإمام أئمة الإسلام الذهبي

قال الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي: «أخبرنا أحمد بن عبد المنعم غير مرة، أنا أبو جعفر الصيدلاني ـ كتابةً ـ، أنا أبو علي الحداد ـ حضورًا ـ، أنا أبو نعيم الحافظ، نا عبد الله بن جعفر، ثنا محمد بن عاصم، نا أبو أسامة، عن عبيد الله، عن نافع عن ابن عمر: (أنه كان يكره مسَّ قبر النبي ﷺ). قُلت: كره ذلك لأنه رآه إساءة أدب. وقد سئل أحمد بن حنبل عن مسّ القبر النبوي وتقبيله فلم يَرَ بذلك بأسًا، رواه عنه ولده عبد الله بن أحمد.

---

(١) ابن تيمية؛ «اقتضاء الصراط المستقيم» ص٣٦٧.

(٢) أخرجه بطوله البخاري في (كتاب الجنائز)، «باب ما جاء في قبر النبي ﷺ»، وفي (كتاب فضائل الصحابة)، «باب قصة البيعة».

فإن قيل: فهلًا فعل ذلك الصحابة؟ قيل: لأنهم عاينوه حيًّا، وتملوا به وقبلوا يده، وكادوا يقتتلون على وضوئه، واقتسموا شعره المطهر يوم الحج الأكبر، وكان إذا تنخم لا تكاد نخامته تقع إلَّا في يد رجل فيدلك بها وجهه، وأما نحن فلما لم يصح لنا مثل هذا النصيب الأوفر؛ ترامينا على قبره بالالتزام والتبجيل والاستلام والتقبيل، ألا ترى كيف فعل ثابت البناني، كان يُقَبِّلُ يد أنس بن مالك ويضعها على وجهه ويقول: يَدٌ مَسّت يد رسول الله ﷺ. وهذه الأمور لا يحركها من المسلم إلَّا فرط حبّه للنبي ﷺ؛ إذ هو مأمور بأن يحب الله ورسوله أشد من حبه لنفسه وولده والناس أجمعين، ومن أمواله ومن الجنة وحُورها، بل خَلْق من المؤمنين يحبون أبا بكر وعمر أكثر من حب أنفسهم.

حكى لنا جندار أنه كان بجبل البقاع فسمع رجلًا سب أبا بكر، فسل سيفه وضرب عنقه، ولو كان سمعه يسبه أو يسب أباه لما استباح دمه. ألا ترى الصحابة في فرط حبهم للنبي ﷺ قالوا: ألا نسجد لك؟ فقال: «لا». فلو أذن لهم لسجدوا له سجود إجلال وتوقير لا سجود عبادة كما قد سجد إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ ليوسف. وكذلك القول في سجود المسلم لقبر النبي ﷺ على سبيل التعظيم والتبجيل لا يُكَفَّرُ به أصلًا بل يكون عاصيًا، فليُعَرَّف أن هذا منهي عنه، وكذلك الصلاة إلى القبر»[١].

التبرك بآثار الصالحين والأنبياء السابقين عليهم السلام

عن نافع: أنَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أخبرنا أنَّ الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر أرض ثمود، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تَرِدها الناقة[٢].

قال النووي في «الشرح»: «وفي هذا الحديث من الفوائد التبرك بآثار

---

(١) الذهبي؛ «معجم الشيوخ» ١: ٧٣، ٧٤.

(٢) رواه مسلم في (كتاب الزهد)، «باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلَّا أن تكونوا باكين».

الصالحين»[١].

التبرك بالتابوت

ذكر الله تعالى في القرآن فضيلة التابوت فقال:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وخلاصة القصة: أنَّ هذا التابوت كان عند بني إسرائيل، وكانوا يستنصرون به ويتوسلون إلى الله تعالى بما فيه من آثار، وهذا هو التبرك بعينه الذي نريده ونقصده، وقد بَيَّنَ الله جل جلاله محتويات التابوت فقال:

﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾، وهذه البقية مما تركه آل موسى وهارون هي: عصا موسى، وشيء من ثيابه، وثياب هارون ونعلاه، وألواح من التوراة وطست، كما ذكره المفسرون والمؤرخون؛ كابن كثير، والقرطبي، والسيوطي، والطبري، فارجع إليهم، وهو يدل على معان كثيرة **منها**: التوسل بآثار الصالحين، **ومنها**: المحافظة عليها **ومنها**: التبرك بها.

التبرك بمسجد العَشَّار

عن صالح بن درهم، يقول: انطلقنا حاجِّين، فإذا رجل فقال لنا: إلى جنبكم قرية يقال لها: الأبلة، قلنا: نعم، قال: من يضمن لي منكم أن يصلي لي في مسجد العشَّار ركعتين أو أربعًا، ويقول: هذه لأبي هريرة، سمعت خليلي أبا القاسم ﷺ يقول: «**إن الله عز وجل يبعث من مسجد العشار يوم القيامة شهداء لا يقوم مع شهداء بدر غيرهم**».

رواه أبو داود وقال: «هذا المسجد مما يلي النهر». اهـ[٢].

قال العلامة المحدث الكبير الشيخ خليل أحمد السهارنفوري في كتابه

---

(١) النووي؛ «شرح مسلم» ١٨: ١١٢.

(٢) الخطيب التبريزي؛ «مشكاة المصابيح» ٣: ٥٤٣٤.

«بذل المجهود شرح سنن أبي داود»: «وفي الحديث دلالة على أن الطاعات البدنية توصل إلى الغير أجرها، وأن مآثر الأولياء والمقربين تزار ويتبرك بها»[١].

وقال العلامة المحدث الشيخ أبو الطيب صاحب عون المعبود: «مسجد العشار مسجد مشهور يُتبرك بالصلاة فيه»[٢].

نحن في بَرَكَةِ الرسول ﷺ

نسمع كثيرًا من الناس يقولون: نحن في بركة الرسول ﷺ، أو معنا بركته ﷺ.

وسئل عن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: «وأما قول القائل: نحن في بركة فلان، أو من وقت حلوله عندنا حلت البركة، فهذا الكلام صحيح باعتبار، باطل باعتبار.

فأما الصحيح: فأنْ يراد به أنه هدانا وعلمنا وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر، فببركة اتباعه وطاعته حصل لنا من الخير ما حصل، فهذا كلام صحيح، كما كان أهل المدينة لما قدم عليهم النبي ﷺ في بركته لما آمنوا به وأطاعوه، فببركة ذلك حصل لهم سعادة الدنيا والآخرة، بل كل مؤمن آمن بالرسول وأطاعه حصل له من بركة الرسول بسبب إيمانه وطاعته من خير الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله.

وأيضًا: إذا أريد بذلك أنه ببركة دعائه وصلاحه دفع الله الشر وحصل لنا رزق ونصر فهذا حق؛ كما قال النبي ﷺ: «**وهل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم**».

وقد يدفع العذاب عن الكفار والفجار لئلا يصيب من بينهم من المؤمنين ممن لا يستحق العذاب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ إلى قوله ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

---

(١) السهارنفوري؛ «بذل المجهود» ١٧: ٢٢٥.

(٢) العظيم آبادي؛ «عون المعبود» ١١: ٤٢٢.

فلولا الضعفاء المؤمنون الذين كانوا بمكة بين ظهراني الكفار؛ لعذب الله الكفار.

وكذلك قال النبي ﷺ: **«لولا ما في البيوت من النساء والذراري لأمرت بالصلاة فتقام، ثم انطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة معنا فَأُحرّقَ عليهم بيوتهم»**.

وكذلك ترك رجم الحامل حتى تضع جنينها، وقد قال المسيح عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، فبركات أولياء الله الصالحين باعتبار نفعهم للخلق بدعائهم إلى طاعة الله، وبدعائهم للخلق وبما ينزل الله من الرحمة ويدفع من العذاب بسببهم حقٌّ موجود، فمن أراد بالبركة هذا، وكان صادقًا فقوله حق.

وأما المعنى الباطل؛ فمثل أن يريد الإشراك بالخلق: مثل أن يكون رجل مقبور بمكان فيظن أنَّ الله يتولاهم لأجله، وإن لم يقوموا بطاعة الله ورسوله، فهذا جهل، فقد كان رسول الله ﷺ سيد ولد آدم مدفونًا بالمدينة عام الحَرّة، وقد أصاب أهل المدينة من القتل والنهب والخوف ما لا يعلمه إلَّا الله، وكان ذلك لأنهم بعد الخلفاء الراشدين أحدثوا أعمالًا أوجبت ذلك، وكان على عهد الخلفاء يدفع الله عنهم بإيمانهم وتقواهم؛ لأنَّ الخلفاء الراشدين كانوا يدعونهم إلى ذلك، وكان ببركة طاعتهم للخلفاء الراشدين، وببركة عمل الخلفاء معهم ينصرهم الله ويؤيدهم، وكذلك الخليل ﷺ مدفون بالشام وقد استولى النصارى على تلك البلاد قريبًا من مئة سنة، وكان أهلها في شر، فمن ظَنّ أنَّ الميت يدفع عن الحي مع كون الحي عاملًا بمعصية الله؛ فهو غالط.

وكذلك إذا ظنّ أنَّ بركة الشخص تعود على من أشرك به وخرج عن طاعة الله ورسوله، مثل أن يظن أن بركة السجود لغيره، وتقبيل الأرض عنده، ونحو ذلك يحصل له السعادة، وإن لم يعمل بطاعة الله ورسوله، وكذلك إذا اعتقد أنَّ ذلك الشخص يشفع له، ويدخله الجنة بمجرد محبته، وانتسابه إليه، فهذه الأمور ونحوها مما فيه مخالفة الكتاب والسُّنة، فهو من أحوال المشركين

وأهل البدع، باطل لا يجوز اعتقاده ولا اعتماده»[(١)].

الإمام أحمد يَتبرّك، والحافظ الذهبي يُؤَيّدُه

قال عبد الله بن أحمد: «رأيت أبي يأخذ شعرة من شعر النبي ﷺ فيضعها على فِيهِ يُقَبِّلُها، وأحسب أني رأيته يضعها على عينه، ويغمسها في الماء ويشربه يستشفي به.

ورأيته أخذ قصعة النبي ﷺ فغسلها في حُب الماء ثم شرب فيها. ورأيته يشرب من ماء زمزم يستشفي به ويمسح به يديه ووجهه».

قلت ـ أي الذهبي ـ: أين المتنطّع المنكر على أحمد، وقد ثبت أنَّ عبد الله سأل أباه عمن يلمَس رمَّانة منبر النبي ﷺ ويمَسّ الحجرة النبوية، فقال: لا أرى بذلك بأسًا.

أعاذنا الله وإياكم من رأي الخوارج ومن البدع»[(٢)].

الخلاصة

والحاصل من هذه الآثار والأحاديث: هو أنَّ التبرك به ﷺ وبآثاره وبكل ما هو منسوب إليه سنةٌ مرفوعة، وطريقة محمودة مشروعة، ويكفي في إثبات ذلك فعل خيار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وتأييد النبي ﷺ لذلك بل وأمره مرة وإشارته أخرى إلى فعل ذلك. وبالنصوص التي نقلناها؛ يظهر كذب من زعم أنَّ ذلك ما كان يعتني به ويهتم بفعله أحد من الصحابة إلَّا ابن عمر رضي الله عنهما، وأنَّ ابن عمر ما كان يوافقه على ذلك أحد من أصحاب الرسول ﷺ.

وهذا جهل أو كذب أو تلبيس، فقد كان كثير غيره يفعل ذلك ويهتم به ومنهم الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم، وأم سلمة، وخالد بن الوليد، وواثلة بن الأسقع، وسلمة بن الأكوع، وأنس بن مالك، وأم سليم، وأسيد بن

(١) ابن تيمية؛ «الفتاوى» ١١: ١١٣.
(٢) الذهبي؛ «سير أعلام النبلاء» ١١: ٢١٢.

حضير، وسواد بن غزية، وسواد بن عمرو، وعبد الله بن سلام، وأبو موسى، وعبد الله بن الزبير، وسفينة مولى النبي ﷺ، وبركة خادم أم حبيبة، ومالك بن سنان، وأسماء بنت أبي بكر، وأبو محذورة، ومالك بن أنس، وأشياخه من أهل المدينة كسعيد بن المسيب، ويحيى بن سعيد.

الباب الثالث

مباحث مختلفة

وفيها بيان الحياة البرزخية
ومشروعية الزيارة النبوية
وما يتعلق بها من الآثار
والمشاهد والمناسبات

الحياة البرزخية حياة حقيقية

الحياة البرزخية حياة حقيقية، وهذا ما دلت عليه الآيات البينات والأحاديث المشهورة الصحيحة.

وهذه الحياة الحقيقية لا تعارض وصفهم بالموت؛ كما جاء ذلك في كتاب الله العزيز إذ يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، ويقول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠]. **إنَّ معنى قولنا عن الحياة البرزخية بأنها حقيقية**؛ أي: ليست خيالية أو مثالية كما يتصورها بعض الملاحدة ممن لا تتسع عقولهم للإيمان إلَّا بالمشاهد المحسوس، دون الغيب الذي لا يطيق العقل البشري تصوره.

إنَّ وقفة تأمل قصيرة عند قولنا عن الحياة البرزخية بأنها حقيقية لا تُبقي من الإشكال أدنى ذرة حتى عند من يقصر فهمه وذوقه عن تعقل المعاني؛ فكلمة (حقيقية) ليست إلَّا لنفي الباطل وطرد الوهم، ونفي الخيال الذي قد يقع في ذهن الإنسان المتشكك المرتاب في أحوال عالم البرزخ وعالم الآخرة وغيرهما من العوالم الأخرى، كالنشر والبعث والحشر والحساب.

وهذا المعنى يدركه الإنسان العربي البسيط الذي يعرف أنَّ كلمة (حقيقي) تعني حقيقة؛ وهي ما يقابل الوهم والخيال والمثال. فحقيقية أي ليست بوهمية، وهذا هو المقصود بعينه، وهذا هو مفهومنا وتصورنا لهذه القضية، ولقد تضافرت الأحاديث والآثار التي تثبت أنَّ الميت يسمع ويحس ويعرف، سواء كان مؤمنًا أم كافرًا.

فمنها: حديث القليب، وهو ثابت في «الصحيحين» من وجوه متعددة عن أبي طلحة وعمر وابنه عبد الله رضي الله عنهم: أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلًا من صناديد قريش فقذفوا في طَوِيٍّ من أطواء بدر فناداهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسماهم: «**يا أبا جهل بن**

هشام! يا أمية بن خلف! يا عتبة بن ربيعة! يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًا»، فقال عمر: يا رسول الله! ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يجيبون**»(١).

ورواه الطبراني من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بإسناد صحيح، ومن حديث عبد الله بن سيدان نحوه وفيه: قالوا: يا رسول الله! وهل يسمعون؟ قال: «**يسمعون كما تسمعون، ولكن لا يجيبون**».

ومنها: ما رواه البزار، وصححه ابن حبان من طريق إسماعيل بن عبد الرحمن السدي، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن الميت ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين**»(٢).

وقال البخاري في «صحيحه»: «باب الميت يسمع خفق النعال»، ثم روى عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «**العبد إذا وضع في قبره، وَتُوُلِّيَ وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فأقعداه**» الحديث. وذكر الحديث أيضًا في «باب ما جاء في عذاب القبر»(٣).

وسماع الميت خَفْقَ النعال وارد في عدة أحاديث، **منها** الأحاديث الواردة في سؤال القبر وهي كثيرة منتشرة، وفيها التصريح بسؤال الملكين له وجوابه بما يطابق حاله من سعادة أو شقاء، **ومنها** ما شرعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأمته من السلام على أهل القبور ومخاطبتهم بلفظ: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين**».

قال ابن القيم: «وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل، ولولا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب المعدوم والجماد، والسلف مجمعون على هذا، وقد تواترت الآثار عنهم بأنَّ الميت يعرف زيارة الحي له ويستبشر به»، ثم ذكر جملة

---

(١) هكذا رواه الشيخان من حديث ابن عمر، والبخاري من حديث أنس عن أبي طلحة، ومسلم من حديث أنس عن عمر.

(٢) وأخرج ابن حبان أيضًا من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه في حديث طويل.

(٣) ورواه مسلم أيضًا.

منها في كتاب «الروح» فليراجَع.

قُلْتُ: وقد روى عبد الرزاق في هذا الباب حديثًا عن زيد بن أسلم، قال: مرَّ أبو هريرة وصاحب له على قبر، فقال أبو هريرة رضي الله عنه: سلِّم، فقال الرجل: أسلِّم على القبر؟ فقال أبو هريرة: إن كان رآك في الدنيا يومًا قط؛ إنه ليعرفك الآن[١].

وهذا الذي قلناه هو عقيدة السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، وهم أهل السُّنة والجماعة، فلا أدري كيف يغفل هؤلاء الذين يدّعون أنهم على مذهب السلف عن هذه الحقيقة.

وقد أفاض الشيخ ابن القيم في كتاب «الروح» بما يشفي ويكفي، وننقل هنا فتوى عظيمة لشيخ الإسلام الإمام ابن تيمية في هذا الموضوع كما جاء في «الفتاوى الكبرى».

سئل الشيخ عن الأحياء إذا زاروا الأموات هل يعلمون بزيارتهم؟ وهل يعلمون بالميت إذا مات من قرابتهم أو غيره؟

فأجاب: «الحمد لله، نعم قد جاءت الآثار بتلاقيهم وتساؤلهم وعرض أعمال الأحياء على الأموات؛ كما روى ابن المبارك عن أبي أيوب الأنصاري، قال: «إذا قبضت نفس المؤمن، تلقاها الرَّحَمَةُ من عباد الله كما يتلقون البشير في الدنيا فيقبلون عليه ويسألونه، فيقول بعضهم لبعض: أنظروا أخاكم يستريح فإنه كان في كرب شديد، قال: فيقبلون عليه ويسألونه: ما فعل فلان؟ وما فعلت فلانة؛ هل تزوجت؟»، الحديث.

وأما عِلْمُ الميت بالحي إذا زاره وسَلَّمَ عليه؛ ففي حديث ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام»**.

قال ابن المبارك: ثبت ذلك عن النبي ﷺ وصححه عبد الحق صاحب الأحكام»[٢]. اهـ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» ٣:٥٧٧.

وجاء في موضع آخر أيضًا: سئل الشيخ ابن تيمية: هل الميت يسمع كلام زائره ويرى شخصه؟ وهل تعاد روحه إلى جسده في ذلك الوقت، أم تكون ترفرف على قبره في ذلك الوقت وغيره؟ وهل تجمع روحه مع أرواح أهله وأقاربه الذين ماتوا قبله؟

فأجاب: «الحمد لله رب العالمين، نعم! يسمع الميت في الجملة كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**يسمع قرع نعالهم حين يولون عنه**»[١]».

ثم ساق أحاديث متعددة في هذا المعنى، ثم قال: «فهذه النصوص وأمثالها تبين أنَّ الميت يسمع في الجملة كلام الحي، ولا يجب أن يكون السمع له دائمًا، بل قد يسمع في حال دون حال، كما قد يعرض للحي فإنه قد يسمع أحيانًا خطاب من يخاطبه، وقد لا يسمع لعارض يعرض له، وهذا السمع سمع إدراك ليس يترتب عليه جزاء، ولا هو السمع المنفي بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠]؛ فإنَّ المراد بذلك سمع القبول والامتثال، فإنَّ الله جعل الكافر كالميت الذي لا يستجيب لمن دعاه وكالبهائم التي تسمع الصوت ولا تفقه المعنى، فالميت وإن سمع الكلام وفقه المعنى، لكنه لا يمكنه إجابة الداعي ولا امتثال ما أمر به ونهي عنه، فلا ينتفع بالأمر والنهي، وكذلك الكافر لا ينتفع بالأمر والنهي وإن سمع الخطاب وفهم المعنى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وأما رؤية الميت فقد روي في ذلك آثار عن عائشة وغيرها.

وأما قول القائل: هل تعاد روحه إلى بدنه ذلك الوقت، أم تكون ترفرف على قبره في ذلك الوقت وغيره؟ فإنَّ روحه تعاد إلى البدن في ذلك الوقت؛ كما جاء في الحديث، وتعاد أيضًا في غير ذلك.

ومع ذلك فتتصل بالبدن متى شاء الله؛ وذلك في اللحظة بمنزلة نزول الملك وظهور الشعاع في الأرض وانتباه النائم.

وهذا جاء في عدة آثار أنَّ الأرواح تكون في أفنية القبور، قال مجاهد:

---

(١) ابن تيمية؛ «مجموع الفتاوى» ٢٤: ٣٣١.

(٢) انظر «صحيح البخاري» (كتاب الجنائز)، «باب الميت يسمع خفق النعال»، والخفق والقرع: هو صوت النعال عند دوسها على الأرض.

الأرواح تكون في أفنية القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لا تفارقه، فهذا يكون أحيانًا، وقال مالك بن أنس: بلغني أنَّ الأرواح مرسلة تذهب حيث شاءت والله أعلم». اهـ[١].

وقال الشيخ ابن تيمية في موضع آخر: «أما ما أخبر الله به من حياة الشهيد ورزْقِهِ، وما جاء في الحديث الصحيح من دخول أرواحهم الجنة، فذهبت طوائف إلى أنَّ ذلك مختص بهم دون الصدّيقين وغيرهم، والصحيح الذي عليه الأئمة وجماهير أهل السُّنة أنَّ الحياة والرزق ودخول الأرواح الجنة ليس مختصًا بالشهيد؛ كما دلت على ذلك النصوص الثابتة، ويختص الشهيد بالذكر لكون الظان يظن أنه يموت فينكل عن الجهاد، فأخبر بذلك ليزول المانع من الإقدام على الجهاد والشهادة، كما نهى عن قتل الأولاد خشية الإملاق؛ لأنه هو الواقع، وإن كان قتلهم لا يجوز مع عدم خشية الإملاق». اهـ[٢].

لا تُؤذِ المَيت لئلا يُؤذِيكَ:

رأى رسول الله ﷺ رجلًا قد اتكأ على قبر فقال له: «**لا تؤذ صاحب القبر**»[٣].

وأخرجه الطحاوي في «معاني الآثار»[٤] من حديث ابن عمرو بن حزم بلفظ: رآني رسول الله ﷺ على قبر، فقال: «**انزل عن القبر لا تؤذ صاحب القبر ولا يؤذيك**». اهـ[٥].

معنى الحياة البرزخية:

وينبغي أن نُبيّنَ للناس معنى تلك الحياة وأنها حياة برزخية، وأنها ليست كحياتنا هذه، بل هي حياة خاصة لائقة بهم وبالعالم الذي هم فيه، لكن لا بد

---

(١) ابن تيمية؛ «مجموع الفتاوى» ٢٤: ٣٦٢.

(٢) ابن تيمية؛ «مجموع الفتاوى» ٢٤: ٣٣٢.

(٣) ذكره المجد ابن تيمية في «المنتقى» ٢: ١٠٤، وعزاه لأحمد في «المسند» وكذا الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٣: ١٧٨، وقال: إسناده صحيح.

(٤) الطحاوي؛ «معاني الآثار» ١: ٢٩٦.

(٥) وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٣: ٦١.

أن نبين لهم أيضًا أنها ليست كحياتنا؛ لأنَّ حياتنا أقل وأحقر وأضيق وأضعف.

فالإنسان فيها بين عبادة وعادة وطاعة ومعصية وواجبات مختلفة لنفسه وأهله ولربه، وإنه تارة يكون طاهرًا وتارة يكون على ضد ذلك، وتارة يكون في المسجد وتارة يكون في الحمام وإنه لا يدري بم يختم له!، فقد يكون بينه وبين الجنة ذراع؛ ثم ينقلب الأمر رأسًا على عقب فيصير من أهل النار وبالعكس، **أما في البرزخ**: فإنه إن كان من أهل الإيمان، فإنه قد جاوز قنطرة الامتحان التي لا يثبت عندها إلَّا أهل السعادة، ثم إنه قد انقطع عنه التكليف، وأصبح روحًا مشرقة طاهرة مفكرة سياحة سباحة جوالة في ملكوت الله وملكه سبحانه وتعالى، لا هَمّ ولا حزن ولا بأس ولا قلق؛ لأنه لا دنيا ولا عقار ولا ذهب ولا فضة، فلا حسد ولا بغي ولا حقد.

وإن كان غير ذلك، ففي عكس ذلك.

خصائص الأنبياء البرزخية

وللأنبياء عليهم الصلاة والسلام في البرزخ خصائص انفردوا بها دون غيرهم من البشر، ولو شاركهم غيرهم في بعضها؛ فهو على وجه الإلحاق النسبي، وتبقى الخصوصية للأنبياء من جهتين:

الأولى: من جهة الأصالة.

الثانية: من جهة الكمال.

وهذه بعض تلك الخصائص:

كمال حياتهم عليهم الصلاة والسلام

ذكرنا فيما تَقدّم أنَّ الحياة البرزخية حياة حقيقية، وأنَّ الميت يسمع ويحس ويعرف سواء أكان مؤمنًا أم كافرًا، وأنَّ الحياة والرزق ودخول الأرواح الجنة ليست مختصّة بالشهيد كما دلت على ذلك النصوص الثابتة، وهذا هو الصحيح الذي عليه الأئمة وجماهير أهل السُّنة، **ومن هنا** فإنَّ القول بحياة الأنبياء من فضول القول، وهو أمر ظاهر كالشمس لا يحتاج إلى إثبات، بل إنَّ الصواب هو أن نقرر بأنَّ حياتهم أكمل وأجل وأتم وأعظم، وهكذا حياة الناس على ظهر الأرض في الدنيا،

فإنها درجات ومقامات ومراتب متفاوتة؛ فمنهم أموات في صورة أحياء، قال فيهم المولى جل شأنه: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ومنهم الذين قال فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢].

ومنهم من قال فيهم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المؤمنون: ١٠].

ومنهم من قال فيهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٦ ـ ١٨].

وهكذا الحياة البرزخية درجات ومراتب ومقامات متفاوتة ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ٧٢].

أما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فإنَّ حياتهم ورزقهم ومعرفتهم وسماعهم وإدراكهم وشعورهم وإحساسهم أكمل وأتم وأرفع من غيرهم، والدليل هو قوله تعالى في حق الشهداء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وإذا كانت الحياة معناها هو بقاء الروح فلا تفنى ولا تبلى، فلا مزية للشهيد تستحق أن تذكر وتشهر؛ إذ أرواح جميع بني آدم باقية لا تفنى ولا تبلى، وهو الصواب الذي عليه المحققون من أهل العلم كما حققه الشيخ ابن القيم في كتاب «الروح»، فلا بد من وجود مزية ظاهرة يزيد بها الشهداء على من سواهم وإلَّا كان ذكر حياتهم عبثًا لا فائدة منه، خصوصًا وأنَّ الله تعالى نهى أن نقول عنهم: «أموات»: فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٤].

وحينئذ نقول: إنه لا بد من أن تكون حياتهم أكمل من حياة غيرهم وأشرف، وهذا ما يؤيده ظاهر النصوص، فأرواحهم مرزوقة ترد أنهار الجنة وتأكل ثمارها؛ كما قال تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، ثم إحساسهم بذلك الطعام والشراب والنعيم إحساس كامل بشعور تام وتلذذ تام

وتمتع حقيقي؛ كما جاء في الحديث: «**فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا**»(١).

وأرواحهم لها تَصرف أكبر من غيرها وأوسع، فهي تتجول وتسرح في الجنة حيث تشاء، ثم تأوي إلى قناديل تحت العرش. كذا في «الصحيح».

وهم يسمعون الكلام ويفهمون الخطاب، فقد جاء في «الصحيح»(٢) أنَّ الله تعالى يقول لهم: «ما تشتهون؟» فيقولون: كذا وكذا، ويعود السؤال ويعود الجواب، ثم يطلبون أن يعودوا إلى الدنيا للجهاد، ثم يطلبون أن يبلغ الله عنهم رسالة منهم إلى إخوانهم بالدنيا فيها بيان ما أكرمهم الله به، فيقول الله: «أنا أُبلِّغُ عنكم».

فإذا ثبت هذا في حق الشهداء؛ ثبت في حق الأنبياء من وجهين:

الأول: أن هذه رتبة شريفة أعطيت للشهيد كرامة له، ولا رتبة أعلى من رتبة الأنبياء، ولا شك أنَّ حال الأنبياء أعلى وأكمل من حال جميع الشهداء فيستحيل أن يحصل كَمالٌ للشهداء ولا يحصل للأنبياء، لا سيما هذا الكمال الذي يوجب زيادة القربى والزلفى، والنعيم والأنس بالعلي الأعلى.

الثاني: أنَّ هذه الرتبة حصلت للشهداء أجرًا على جهادهم وبذلهم أنفسهم لله تعالى، والنبي ﷺ هو الذي سَنَّ لنا ذلك ودعانا إليه، وهدانا له بإذن الله تعالى وتوفيقه، وقد قال ﷺ: «**من سَنَّ سُنَّةً حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة**».

وقال ﷺ: «**من دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**».

والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة مشهورة، فكل أجر حصل للشهيد حصل للنبي ﷺ لسعيه مثله، والحياة البرزخية الخاصة بالشهيد هي زيادة إكرام له بهذا الأجر في مقابلة عمله تحت لواء نبيه ﷺ، واستشهاده في سبيل الله وسبيله،

---

(١) قال ابن كثير: رواه أحمد.

(٢) أخرجه مسلم، (كتاب الإمارة) حديث (١٢١).

فيحصل للنبي ﷺ مثله من الحياة، بل وأعظم منه لفضله عليه.

إنَّ حياة الأنبياء البرزخية الحقيقية ـ وخصوصًا نبينا ﷺ ـ هي أرفع وأكمل من أن يتصور جاهل أو أحمق أننا نعني بها أن يعيشوا كما نعيش؛ فيأكلون ويشربون محتاجين إلى الأكل والشرب، ويبولون ويتغوطون مضطرين إلى ذلك، ويخرجون من قبورهم لحضور مجالس الذكر ومجامع القرآن ولمشاركة الأمة في أفراحها وأحزانها وأعيادها ومواسمها، ثم يرجعون إلى قبورهم تحت الأرض في تلك الحفرة الضيقة وفوقهم التراب، وليس في هذا أدنى كرامة أو منقبة، بل هو عين الإهانة التي لا يرضاها الإنسان لتابع أو خادم له، فضلًا عن أن يَمُنَّ الله تعالى بذلك على خير خلقه وأجل عبيده، حاشا وكلا، وألف حاشا وكلا.

إنَّ الحياة البرزخية الحقيقية هي: الشعور التام، والإدراك الكامل، والمعرفة الصادقة، إنها حياة طيبة صالحة؛ دعاءٌ وتسبيحٌ وتهليلٌ وتحميدٌ وصلاةٌ.

صَلاةُ الأنبياء في قُبورِهم وَعِباداتٌ أُخرى

ومن ثمرات تلك الحياة البرزخية: صلاتهم في قبورهم صلاة حقيقية ليست خيالية ولا مثالية، وقد جاءت أحاديث في هذا الموضوع؛ **فمنها**:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون**»[1].

قال الإمام الحافظ البيهقي في الجزء الخاص بهذه المسألة:

وفي رواية عن أنس رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إن الأنبياء لا يتركون في قبورهم بعد أربعين ليلة، ولكنهم يصلون بين يدي الله تعالى حتى ينفخ في الصور**».

قال البيهقي: «إن صح بهذا اللفظ، فالمراد به ـ والله أعلم ـ لا يُتْرَكُون يُصَلُّون إلَّا هذا المقدار، ثم يكونون مُصَلِّينَ بين يدي الله تعالى»، قال البيهقي: «ولحياة الأنبياء بعد موتهم شواهد من الأحاديث الصحيحة».

---

(١) رواه أبو يعلى والبزار، ورجال أبي يعلى ثقات. كذا في «مجمع الزوائد» ٨: ٢١١.

ثم ذكر البيهقي بأسانيده حديث: **«مررت على موسى وهو قائم يصلي في قبره»**.

وحديث: **«قد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلي، فإذا رجل ضَرْبٌ جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلي أقرب الناس به شبهًا عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم - يعني نفسه -، فحانت الصلاة فأممتهم، فلما فرغت من الصلاة قال قائل: يا محمد! هذا مالك صاحب النار فَسَلِّم عليه، فالتفت إليه فبدأني بالسلام»**(١).

وقوله: «ضَرْبٌ»، أي خفيف اللحم.

وقال البيهقي في «دلائل النبوة»: وفي الحديث الصحيح عن سليمان التيمي، وثابت البناني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«أتيت على موسى ليلة أُسريَ بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره»**.

قُلْتُ: وهو صحيح(٢).

وقد ثبت بما لا يقبل الشك: أنَّ السبب في تخفيف الصلاة علينا من خمسين إلى خمس صلوات هو موسى عليه السلام، وهو ميت قد أدّىٰ رسالة ربه وانتقل إلى جواره في الرفيق الأعلى، ولكنه هو السبب في إيصال أعظم خير إلى الأمة المحمدية؛ حينما طلب من نبينا محمد ﷺ مراجعة ربه وقال له: «سلْ ربك التخفيف فإنَّ أمتك لا تطيق ذلك»، فهل هذه المراجعة حقيقية أو خيالية؟ وهل في اليقظة أو في المنام؟ وهل هي صحيحة أم مكذوبة؟ وهل موسى مات أم لا يزال حيًّا حتى وقت تلك المراجعة؟

أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ النبي ﷺ مَرّ على ثَنيةٍ فقال: **«ما هذه؟»** قالوا: ثنية كذا وكذا، قال: **«كأني أنظر إلى يونس على ناقة خطامها ليف وعليه جبة من صوف وهو يقول: لبيك اللهم لبيك»**. اهـ(٣).

وفي حديث آخر: **«أراني ليلة عند الكعبة، فرأيت رجلاً آدم كأحسن ما أنت رَاءٍ من أدم الرجال، له لمة كأحسن ما أنت رَاءٍ من اللمم، قد رجلها فهي تقطر**

---

(١) أخرجه مسلم عن أنس، وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف».

(٢) أخرجه مسلم عن أنس.

(٣) السيوطي؛ «الدر المنثور» ٤: ٢٣٤.

ماء متكئًا على رجلين ـ أو على عواتق رجلين ـ يطوف بالبيت، فسألت من هذا؟ فقيل: هذا المسيح ابن مريم».

وفي حديث آخر: «أنَّ رسول الله ﷺ مر بوادي الأزرق فقال: **كأني أنظر إلى موسى هابطًا من الثنية، وله جؤار إلى الله بالتلبية ثم أتى على ثنية هَرْشَى فقال: كأني أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء جعدة، عليه جبة من صوف، خطام ناقته خُلبة وهو يلبي**».

وفي حديث آخر: «**كأني أنظر إلى موسى واضعًا أصبعيه في أذنيه**».

وهذه الأحاديث كلها في «الصحيح»، وكذلك صلاتهم قيامًا وإمامة النبي ﷺ بهم، ولا يقال: إنَّ ذلك رؤيا منام، وإنَّ قوله: «**أراني**» فيه إشارة إلى النوم؛ لأنَّ الإسراء وما اتفق فيه كان يقظة على الصحيح الذي عليه جمهور السلف والخلف، ولو قيل بأنه نوم؛ فرؤيا الأنبياء حق.

بَقاءُ أجسادهم عليهم الصلاة والسلام

جاء في الحديث عن أوس بن أوس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ من أفضل أيامكم يوم الجمعة؛ فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإنَّ صلاتكم معروضة عليَّ**»، قالوا: وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرِمْتَ؟ ـ يقولون: بَلِيتَ ـ، فقال: «**إنَّ الله حَرَم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»[1].

واعلم أنَّ حديث: «**إنَّ الله حَرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**» ورد من طرق كثيرة جمعها الحافظ المنذري في جزء مخصوص، وقال في «الترغيب والترهيب»: رواه ابن ماجه بإسناد جيد، ورواه أحمد، وأبو داود، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم وصححه، وقال ابن القيم في «كتاب الروح» نقلًا عن أبي عبد الله القرطبي: «صح عن النبي ﷺ أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وأنه ﷺ

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد في «مسنده»، وابن أبي عاصم في «الصلاة» له، وأبو داود والنسائي وابن ماجه في سننهم، والطبراني في «معجمه»، وابن خزيمة وابن حبان والحاكم في صحاحهم، والبيهقي في «حياة الأنبياء» و«شعب الإيمان» وغيرهما من تصانيفه.

اجتمع مع الأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس، وفي السماء، خصوصًا موسى وقد أخبر: «**ما من مسلم يُسلِّمُ عليه إلَّا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام**»».

إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأنَّ موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غُيِّبوا عنا؛ بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء، وذلك كالحال في الملائكة، فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم، وقد نقل كلام القرطبي وأقره أيضًا الشيخ محمد السفاريني الحنبلي في «شرح عقيدة أهل السُّنة» حيث قال ما نصه:

«قال أبو عبد الله القرطبي: قال شيخنا أحمد بن عمر القرطبي صاحب «المُفْهِم في شرح مسلم»: والذي يزيح هذا الإشكال، أنَّ الموت ليس بعدم محض، وإنما هو انتقال من حال إلى حال؛ ويدل على ذلك أنَّ الشهداء بعد موتهم وقتلهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين».

وهذه صفة الأحياء في الدنيا، وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى. وذكر القرطبي أنَّ أجساد الشهداء لا تبلى، وقد صح عن جابر أنَّ أباه، وَعَمْرو بن الجموح رضي الله تعالى عنهم وهما ممن استشهد بأحد ودفنا في قبر واحد، حفر السيل قبرهما فوجدا لم يتغيرا، وكان أحدهما قد جرح فوضع يده على جرحه فدفن وهو كذلك، فأميطت يده عن جرحه ثم أرسلت فرجعت كما كانت، وكان بين ذلك وبين أحد ست وأربعون سنة.

ولما أجرى معاوية العين التي استنبطها بالمدينة وذلك بعد أُحُدٍ بنحو من خمسين سنة، ونقل الموتى، أصابت المسحاة قدم حمزة رضي الله عنه فسال منه الدم، وَوُجِدَ عبد الله بن حرام كأنما دفن بالأمس.

وَروىٰ أهل المدينة كافة أنَّ جدار النبي ﷺ لما انهدم أيام الوليد بدت لهم قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان قد قتل شهيدًا.

وقد ذكر الشيخ ابن تيمية أنه لما حصل الهدم؛ بدت لهم قدم بساق وركبة، ففزع من ذلك عمر بن عبد العزيز فأتاه عروة، فقال: هذه ساق عمر وركبته، فسُرِّي عن عمر بن عبد العزيز. اهـ[1].

وقد أَلَّفَ في هذا الموضوع الإمام الحجة أبو بكر بن الحسين البيهقي

(١) ابن تيمية؛ «اقتضاء الصراط المستقيم» ص٣٦٥.

رسالة خاصة جمع فيها جملة من الأحاديث التي تدل على حياة الأنبياء وبقاء أجسادهم، وكذلك أَلَّفَ الحافظ جلال الدين السيوطي رسالة خاصة بذلك.

حَياةٌ خَاصّةٌ بنبينا محمد ﷺ

وقد ثبت لنبينا محمد ﷺ حياة برزخية أكمل وأعظم من غيرها تَحدّث عنها بنفسه، تثبت اتصاله بالأمة المحمدية ومعرفته بأحوالها واطّلاعه على أعمالها، وسماعه لكلامهم وردّه لسلامهم، والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

فمنها: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إنّ لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام**»(١).

ومنها: عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**حياتي خير لكم تُحَدِّثُونَ وَيُحَدَثُ لكم، ووفاتي خير لكم تعرض عَليَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم**».

قال الحافظ أبو زرعة العراقي في (كتاب الجنائز) من «طرح التثريب في شرح التقريب»: إسناده جيد(٢).

وقال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٩ : ٢٤ : «رواه البزار ورجاله

---

(١) قال المنذري: رواه النسائي، وابن حبان في صحيحه. اهـ. «الترغيب والترهيب» ٢ : ٤٩٨.

قلت: ورواه إسماعيل القاضي وغيره من طرق مختلفة بأسانيد صحيحة لا ريب فيها إلى سفيان الثوري عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله بن مسعود، وصرَّح الثوري بالسماع فقال: حدثني عبد الله بن السائب، هكذا في كتاب القاضي إسماعيل. وعبد الله بن السائب وزاذان روى لهما مسلم، ووثقهما ابن معين فالإسناد إذن صحيح.

(٢) كذا قال الحافظ أبو زرعة العراقي في «طرح التثريب»، وظنّ بعضهم أنّ هذا مخالفٌ لما جاء في «تخريج أحاديث الإحياء» للعراقي حيث قال: رواه البزار من حديث ابن مسعود، ورجاله رجال الصحيح إلّا أنَّ عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي روّاد، وإن أخرج له «مسلم» ووثقه ابن معين والنسائي، قد ضعّفه كثيرون. انتهىٰ كلام العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء».

فظنّ البعض أنّ بينهما تعارضًا، وأنّ هذا منقوضٌ بذاك. والحق أنه لا تعارض ولا تناقض، إذ إنَّ الذي في «تخريج أحاديث الإحياء» هو كلام الحافظ العراقي، والذي في «طرح التثريب» هو كلام ولده الحافظ أبي زرعة العراقي. فالناظر لم يفرق بين =

رجال الصحيح»، وصححه الحافظ السيوطي في «المعجزات» و«الخصائص»، وكذا القسطلاني شارح البخاري، ونص المناوي في «فيض القدير» ٣:٤٠١ بأنه صحيح، وكذا الزرقاني في «شرح المواهب» للقسطلاني، وكذا الشهاب الخفاجي في «شرح الشفا» ١:١٠٢.

وكذا الملا علي القاري في «شرح الشفا» ١:١٠٢، وقال: رواه أيضًا الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» بسند صحيح.

وذكره ابن حجر في «المطالب العالية» ٤:٢٢، وجاء هذا الحديث من طريق آخر مرسلًا عن بكر بن عبد الله المزني، ورواه الحافظ إسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم»، قال فيه الشيخ الألباني: مرسل صحيح.

وصححه الحافظ ابن عبد الهادي مع تعنته وتشدده في كتابه «الصارم المنكي».

فالحديث صحيح لا مطعن فيه، وهو يدل على أنَّ النبي ﷺ يعلم أعمالنا بعرضها عليه، ويستغفر الله لنا على ما فعلنا من سيِّءٍ وقبيح، وإذا كان كذلك؛ فإنه يجوز لنا أن نتوسل به إلى الله ونتشفع به لديه؛ لأنه يعلم بذلك فيشفع فينا ويدعو لنا، وهو الشفيع المشفع صلى الله عليه وآله وسلم، وزاده تشريفًا وتكريمًا، وقد أخبر الله في القرآن أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم شهيد على أمته، وذلك يقتضي أن تُعرضَ أعمالهم عليه ليشهد على ما رأى وعلم. قال ابن المبارك: أخبرنا رجل من الأنصار عن المنهال بن عمرو أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: ليس من يوم إلَّا يعرض فيه على النبي ﷺ أمته غدوة وعشيًّا، فيعرفهم بأسمائهم وأعمالهم فلذلك يشهد عليهم، يقول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

ومنها: عن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله

= الأب والابن، وظنّ أنّ الكلام مخرجه واحد، ونحن اعتمدنا كلام الحافظ أبي زرعة العراقي الذي في «طرح التثريب».

هذا وقد صنّف العلّامة المحدث الشيخ أبو الفضل عبد الله الغماري رسالة خاصة في هذا الموضوع سمّاها: «نهاية الآمال في صحة وشرح حديث عرض الأعمال».

صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّ الله وَكّلَ بقبري ملكًا أعطاه الله أسماء الخلائق، فلا يصلي عليَّ أحد إلى يوم القيامة إلا أبلغني باسمه واسم أبيه؛ هذا فلان ابن فلان قد صلى عليك**». رواه البزار وأبو الشيخ ابن حبان، ولفظه: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لله تبارك وتعالى مَلَكًا أعطاه أسماع الخلائق فهو قائم على قبري إذا مت، فليس أحد يصلي عليَّ صلاة إلَّا قال: يا محمد! صلى عليك فلان ابن فلان قال: فيصلي الرب تبارك وتعالى على ذلك الرجل بكل واحدة عشرًا**»(١).

ومنها: عن عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أيمن، عن عبادة بن نسيّ، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أكثروا الصلاة عليَّ يوم الجمعة فإنه مشهود تشهده الملائكة، وإن أحدًا لن يصلي عليَّ إلَّا عُرضت عليَّ صلاته حتى يفرغ منها**»، قال: قلت: وبعد الموت؟ قال: «**وبعد الموت، إنَّ الله حَرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء فنبي الله حي يرزق**»(٢).

ومنها: عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**ما من أحد يُسَلِّمُ عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام**»(٣).

قال الشيخ ابن تيمية: «هذا الحديث على شرط مسلم، وقال: وفي «مسند» ابن أبي شيبة عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلّى عليَّ سمعته، ومن صلى عليَّ نائيًا بُلّغْتُهُ**». رواه الدارقطني بمعناه.

وفي النسائي وغيره عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**إنَّ الله وَكَّلَ بقبري ملائكة يبلغوني عن أمتي السلام**».

إلى أحاديث أُخَر في هذا الباب متعددة». اهـ(٤).

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» بنحوه. اهـ. «الترغيب والترهيب» ٢:٥٠٠.

(٢) رواه ابن ماجه في «السنن» ١:٥٢٤، وفي «الزوائد»: هذا حديث صحيح، إلا أنه منقطع في موضعين؛ لأن عبادة روايته عن أبي الدرداء مرسلة، قاله العلائي. وزيد بن أيمن عن عبادة: مرسلة، قاله البخاري اهـ.

(٣) رواه أحمد وأبو داود. اهـ. «الترغيب والترهيب» ٢:٤٩٩.

(٤) ابن تيمية؛ «اقتضاء الصراط المستقيم» ص٣٢٤.

النَّبيُّ ﷺ يُجيب من نَاداهُ

النبي ﷺ يجيب من ناداه قائلًا: يا محمد!

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أبي يعلى في ذكر عيسى: «ولئن قام على قبري فقال: يا محمد! لأجيبنه»(١).

إرسَالُ السّلام بالبريد إلى النبي ﷺ

عن يزيد بن أبي سعيد المهري، قال: لما ودعت عمر بن عبد العزيز قال: إنَّ لي إليك حاجة، قلت: يا أمير المؤمنين! كيف ترى حاجتك عندي؟ قال: إني أراك إذا أتيت المدينة سترى قبر النبي ﷺ، فأقرئه مني السلام.

وعن حاتم بن وردان، قال: كان عمر بن عبد العزيز يُوَجّهُ البريد قاصدًا من الشام إلى المدينة ليقرئ عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم السلام(٢).

وذكر الخفاجي، والملا علي القاري في «شرح الشفا» أنه رواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي في «الشعب»، وقال الخفاجي: «كان من دأب السلف أنهم يرسلون السلام إلى رسول الله ﷺ، وكان ابن عمر يفعله ويرسل له صلى الله عليه وسلم السلام ولأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ورسول الله ﷺ، وإن كان يبلغه سلام من سلّم عليه وإن كان بعيدًا عنه، لكن في هذا فضيلة خطابه عنده ورده عليه السلام بنفسه». اهـ(٣).

صَوتٌ وسَلامٌ وَاذانٌ تُسمَعُ من القبر النبوي

رَوىٰ الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله الدارمي في كتابه «السنن» الذي يعتبر من كتب الأصول الحديثية الستة، قال: أخبرنا مروان بن محمد، عن سعيد بن عبد العزيز، قال: لما كان أيام الحرة لم يُؤَذّن في مسجد النبي ﷺ ثلاثًا، ولم يقم ولم يبرح سعيد بن المسيب من المسجد، وكان لا يَعرفُ وقت الصلاة إلَّا بهمهمة يسمعها من قبر النبي ﷺ فذكر معناه». اهـ(٤).

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» ٤: ٢٣، بعنوان: حياته ﷺ في قبره.

(٢) القاضي عياض؛ «الشفا» في باب الزيارة، ٢: ٨٣. وذكره الفيروزآبادي في «الصّلات والبشر» ص١٢٩.

(٣) الخفاجي؛ «نسيم الرياض» ٣: ٥١٦.

(٤) الدارمي؛ «السنن» ١: ٤٣، ونقله الشيخ محمد بن عبد الوهاب في «أحكام تمني =

وقال إبراهيم بن شيبان: حججت فجئت المدينة، فتقدمت إلى قبر النبي ﷺ، فسلمت عليه فسمعت من داخل الحجرة: وعليك السلام.

تأييد ابن تيمية لهذه الوقائع

ذكر الشيخ ابن تيمية هذه الوقائع في معرض كلامه عن اتخاذ القبر مسجدًا أو وثنًا يُعبَد، ثم قال: «ولا يدخل في هذا الباب ما يروى من أنَّ قومًا سمعوا رد السلام من قبر النبي ﷺ، أو قبور غيره من الصالحين، وأنَّ سعيد بن المسيب كان يسمع الأذان من القبر ليالي الحرة ونحو ذلك». اهـ[1].

ثم قال في موضع آخر: «وكذلك ما يذكر من الكرامات وخوارق العادات التي توجد عند قبور الأنبياء والصالحين؛ مثل نزول الأنوار والملائكة عندها، وتوقي الشياطين والبهائم لها، واندفاع النار عنها وعمن جاورها، وشفاعة بعضهم في جيرانه من الموتى، واستحباب الاندفان عند بعضهم، وحصول الأنس والسكينة عندها، ونزول العذاب بمن استهان بها؛ فجنس هذا حق ليس مما نحن فيه، وما في قبور الأنبياء والصالحين من كرامة الله ورحمته، وما لها عند الله من الحرمة والكرامة فوق ما يتوهمه أكثر الخلق، لكن ليس هذا موضع تفصيل ذلك». اهـ[2].

ثُبُوت بعض هذه الكرامات لغير الأنبياء عليهم السلام

وقد رَوىٰ أهل العلم شيئًا من هذه الكرامات لبعض السلف الصالح رضي الله عنهم حصلت لهم بعد وفاتهم، ونقلها عنهم الثقات عن الثقات الذين رأوها بأعينهم. وسننقل هنا بعض ذلك عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله؛ قال في كتابه «أحكام تمني الموت» ضمن مجموعة مؤلفاته التي نشرتها جامعة الإمام محمد بن سعود:

الصلاة في القبر:

ولأحمد عن عفان، عن حماد، عن ثابت أنه قال: اللهم إن كنت أعطيت أحدًا الصلاة في قبره، فأعطني الصلاة في قبري.

= الموت» من مجموعة مؤلفاته، ٣: ٤٧. ونقل هذه الرواية الإمام مجد الدين الفيروزآبادي صاحب «القاموس» في «الصلات والبشر» ص١٢٩.

(١) ابن تيمية؛ «اقتضاء الصراط المستقيم» ص٣٧٣.

(٢) ابن تيمية؛ «اقتضاء الصراط المستقيم» ص٣٧٤.

ولأبي نعيم، عن جبير، قال: أنا ـ والله الذي لا إله إلَّا هو ـ أدخلت ثابتًا البناني في لحده، ومعي حميد الطويل، فلما سوينا عليه اللَّبِن، سقطت لبنة، فإذا أنا به يصلي في قبره.

قراءة القرآن:

وله ولابن جرير، عن إبراهيم بن المهلبي، قال: حدثني الذين كانوا يمرون بالجص بالأسحار، قالوا: كنا إذا مررنا بجَبَّانة قبر ثابت البناني سمعنا قراءة القرآن.

وللترمذي وحَسَّنه عن ابن عباس، قال: ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خباءه على قبر، وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: **«هي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر»**.

وللنسائي والحاكم عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: **«نمت فرأيتني في الجنة»** ـ ولفظ النسائي: دخلت الجنة ـ **«فسمعت صوت قارئ يقرأ، فقلت: من هذا؟ قالوا: حارثة بن النعمان، فقال رسول الله ﷺ: كذاك البر، كذاك البر، كذاك البر»**، وكان أبر الناس بأمه.

ولابن أبي الدنيا، عن الحسن، قال: بلغني أنَّ المؤمن إذا مات ولم يحفظ القرآن، أمر حفظته أن يعلّموه القرآن في قبره حتى يبعثه الله يوم القيامة مع أهله. وله عن يزيد الرقاشي نحوه، ورَوىٰ السِّلفي معناه من «مراسيل عطية العوفي».

تزاور أهل القبور:

ولابن أبي شيبة، عن ابن سيرين قال: كان[1] يحب حُسْنَ الكفن، ويقول: إنهم يتزاورون في أكفانهم، ومعناه في «مسند» ابن أبي أسامة، عن جابر مرفوعًا وفيه: ويتباهون ويتزاورون في قبورهم.

ولمسلم من حديثه: **«إذا ولي أحدكم أخاه فليحسن كفنه»**.

وللترمذي، وابن ماجه، ومحمد بن يحيى الهمداني في «صحيحه» عن أبي قتادة مرفوعًا: **«إذا ولي أحدكم أخاه فليحسن كفنه، فإنهم يتزاورون في قبورهم»**.

---

(١) بياض بالأصل.

رسالة من الدنيا إلى البرزخ مع ميت:

وأخرج ابن أبي الدنيا بسند لا بأس به عن راشد بن سعد: أنَّ رجلًا توفيت امرأته فرأى نساء في المنام، ولم ير امرأته معهن، فسألهن عنها، فقلن: إنكم قصرتم في كفنها، فهي تستحي أن تخرج معنا، فأتىٰ الرجل النبي ﷺ فأخبره، قال النبي ﷺ: «**انظر هل إلى ثقةٍ من سبيل؟**» فأتى رجلًا من الأنصار قد حضرته الوفاة، فأخبره، فقال الأنصاري: إن كان أحد يبلغ الموتى بلغت، فتوفي الأنصاري، فجاء بثوبين مزودين بالزعفران، فجعلهما في كفن الأنصاري، فلما كان الليل رأى النسوة، ومعهن امرأته، وعليها الثوبان الأصفران.

وَروىٰ ابن الجوزي عن محمد بن يوسف الفريابي قصة المرأة التي رأت أمها في المنام تشكو إليها الكفن، فقصوا على محمد وسألوه، وفيه: أنَّ أمها قالت لها: اشتروا لي كفنًا، وابعثوه مع فلانة، قال الفريابي؛ فذكرت الحديث: أنهم يتزاورون في أكفانهم، فقلت: اشتروا لها كفنًا، فماتت المرأة في اليوم الذي ذكرت، ووضعوه معها.

النور على القبور:

ولابن أبي الدنيا، عن أبي غالب ـ صاحب أبي أمامة ـ أنَّ فتى بالشام حضره الموت، فقال لعمه: أرأيت لو أن الله تعالى دفعني إلى والدتي ما كانت صانعة بي؟ قال: إذًا والله كانت تدخلك الجنة، قال: فواللَّهِ اللَّهُ أرحم بي من والدتي، فقبض الفتى فدخلت القبر مع عمه، فقلنا باللبن، فسويناه عليه، فسقطت منها لبنة، فوثب عمه فتأخر، فقلت: ما شأنك؟ فقال: مُلِئَ قبره نورًا، وفسح له مدَّ بصره.

ولأبي داود وغيره عن عائشة، قالت: لما مات النجاشي، كنا نحدث: أنه لا يزال يرى على قبره نور.

وفي «تاريخ ابن عساكر» عن عبد الرحمن بن عمارة، قال: حضرت جنازة الأحنف بن قيس، فكنت فيمن نزل قبره، فلما سويته رأيته قد فسح له مدَّ بصري، فأخبرت بذلك أصحابي، فلم يروا ما رأيت.

وعن إبراهيم الحنفي، قال: لما صلب ماهان الحنفي على بابه، كنا نرى الضوء عنده في الليل.

انظر: «أحكام تمني الموت» المصحح على النسخة المصورة، ٨٦/٧٧١، بالمكتبة السعودية بالرياض، تحقيق الشيخ عبد الرحمن السدحان والشيخ عبد الله الجبرين، «مجلد الفقه» (القسم الثاني).

وقد ذكروا في أول المجموعة توثيق هذه النسخ وتصحيح نسبتها إلى الشيخ، وقد قامت جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض بنشر هذه المجموعة كاملة بعد تحقيقها تحت إشرافها بمناسبة أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

لا تُشَدُّ الرحال

يُخْطِئُ كثير من الناس في فهم حديث: **«لا تشد الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»**.

فيستدلون به على تحريم شد الرحل لزيارة النبي ﷺ، ويعتبرون أنَّ السفر بذلك سفر معصية. وهذا الاستدلال مردود؛ لأنه مبني على فهم باطل، فالحديث كما سترى في باب، والاستدلال في باب آخر.

وبيان ذلك هو: أنَّ قوله ﷺ: **«لا تشد الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد»** جاء على الأسلوب المعروف عند اللغويين بأسلوب الاستثناء، وهذا يقتضي وجود مستثنى ومستثنى منه، فالمستثنى هو ما كان بعد «إلّا»، والمستثنى منه هو ما كان قبلها، وهو إما مذكور أو مقدّر، وهذا مقرر ومعروف في أبسط كتب النحو.

وإذا نظرنا إلى هذا الحديث: وجدنا أنه قد جاء فيه التصريح بذكر المستثنى وهو قوله: **«إلى ثلاثة مساجد»**، وهو ما بعد **«إلّا»**، ولم يأت ذكر المستثنى منه، وهو ما قبل **«إلّا»**، فلا بد إذًا من تقديره.

فإن فرضنا أنَّ المستثنى منه (قبر) كان اللفظ المنسوب لرسول الله ﷺ: لا تشد الرحال إلى قبر إلّا إلى ثلاثة مساجد. وهذا السياق ظاهر في عدم الانتظام وغير لائق بالبلاغة النبوية، فالمستثنى غير داخل ضمن المستثنى منه، والأصل أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، ولا يطمئن قلب عالم يتحرج من نسبة كلام للمصطفى ﷺ لم يقله إلى نسبة هذه اللفظة (قبر) ـ وهي لا تتفق مع الأصل في الاستثناء ـ إلى رسول الله ﷺ، فلا تصلح أن تكون هي المستثنى منه، فلنفرض أنه لفظ (مكان) فيكون السياق المنسوب لرسول الله ﷺ على هذا

الفرض: لا تشد الرحال إلى مكان إلّا إلى ثلاثة مساجد. ومعنى هذا ألا تسافر إلى تجارة أو علم أو خير وهذا ضرب من الهوس ظاهر البطلان.

فالحديث اشتمل على ذكر المستثنى وليس فيه ذكر المستثنى منه، ولذلك فلا بد من تقديره باتفاق أهل اللغة، وتقديره لا يحتمل إلا ثلاثة وجوه لا رابع لها.

الوجه الأول: أن يكون تقديره بلفظ (قبر) فيكون اللفظ المقدر: لا تشد الرحال إلى قبر إلّا إلى ثلاثة مساجد.

وهذا التقدير مبني على رأي من يستدل بالحديث على منع السفر للزيارة، وأنت ترى أنه تقدير بارد ممجوج لا يستسيغه من عنده أدنى إلمام بالعربية، وهو لا تليق نسبته إلى أفصح من نطق بالضاد صلوات الله وسلامه عليه، فحاشا أن يرضى مثل هذا الأسلوب الساقط.

الوجه الثاني: أن يكون تقدير المستثنى منه في الحديث بلفظ عام وهو لفظ (مكان) وهذا باطل كما تقدم بلا خلاف، ولا قائل به.

الوجه الثالث: أن يكون تقدير المستثنى منه في الحديث بلفظ (مسجد) فيكون سياق الحديث: لا تشد الرحال إلى مسجد إلّا إلى ثلاثة مساجد. فنرى أن الكلام قد انتظم وجرى على الأسلوب اللغوي الفصيح، واختفى التهافت الواضح في الصورتين المتقدمتين وأشرقت فيه روح النبوة، ويطمئن القلب التقي إلى نسبته لرسول الله ﷺ، هذا بفرض أنه لا توجد رواية أخرى مصرحة بالمستثنى منه، فإذا وجدت هذه الرواية فلا يحل لمن له دين أن يعدل عنها إلى محض فرض لا يستند إلى فصيح اللغة.

وقد وجدنا بحمد الله في السنة النبوية من طريق الروايات المعتبرة ما فيه التصريح بالمستثنى منه، فمنه: ما أخرجه الإمام أحمد من طريق شهر بن حوشب، قال: سمعت أبا سعيد وذكرت عنده الصلاة في الطور فقال: قال رسول الله ﷺ: «**لا ينبغي للمطي أن يشد رحاله إلى مسجد تبتغى فيه الصلاة غير المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي**».

قال الحافظ ابن حجر: وَشَهر حَسنُ الحديث، وإن كان فيه بعض ضعف[١].

(١) ابن حجر، «فتح الباري» ٣: ٦٥.

ومنه ما جاء عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: **«أنا خاتم الأنبياء ومسجدي خاتم مساجد الأنبياء، أحق المساجد أن يزار وتشد إليه الرواحل: المسجد الحرام ومسجدي، صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام»**[١].

فكلامه ﷺ في المساجد ليبين للأمة أنَّ ما عدا هذه المساجد الثلاثة متساو في الفضل، فلا فائدة في التعب بالسفر إلى غيرها، أما هي فلها مزيد فضل، ولا دخل للمقابر في هذا الحديث، فإقحامها في هذا الحديث؛ يعتبر ضربًا من الكذب على رسول الله ﷺ، هذا مع أنَّ الزيارة مطلوبة، بل وكثير من العلماء يذكرونها في كتب المناسك على أنها من المستحبات، ويؤيد هذا أحاديث كثيرة، نذكر جملة منها:

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، قال: **«من زار قبري وجبت له شفاعتي»**[٢].

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من جاءني زائرًا لا يعلم له حاجة إلا زيارتي كان حقًا عليَّ أن أكون له شفيعًا يوم القيامة»**[٣].

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، قال: **«من حج فزار قبري في مماتي كان كمن زارني في حياتي»**[٤].

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من زار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي»**[٥].

---

(١) رواه البزار وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف. اهـ. «مجمع الزوائد» ٤:٤.

(٢) رواه البزار، وفيه عبد الله بن إبراهيم الغفاري وهو ضعيف. ونقله الشيخ ابن تيمية، وقال: إنه ضعيف. اهـ. «الفتاوى» ٢٧:٣٠، ولم يحكم بوضعه أو كذبه في هذا الموضع، فإن ثبت غير هذا عنه في موضع آخر فمعناه أنه متردد في الحكم عليه، أو أنه اختلف رأيه فيه ولم نعلم المتقدم من المتأخر فلا يوثق بواحدة حينئذ.

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» و«الكبير»، وفيه مسلمة بن سالم وهو ضعيف. اهـ. «مجمع الزوائد» ٤:٢. وقال الحافظ العراقي: صححه ابن السكن. اهـ. «المغني» ١:٢٦٥.

(٤) رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، وفيه حفص بن أبي داود القارئ، وثقه أحمد، وضعفه جماعة من الأئمة.

(٥) قال الهيثمي: رواه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط»، وفيه عائشة بنت يونس، ولم أجد من ترجمها. اهـ. كذا في «مجمع الزوائد» ٤:٢.

والحاصل: أنَّ أحاديث الزيارة لها طرق كثيرة يقوي بعضها بعضًا، كما نقله المناوي عن الحافظ الذهبي في «فيض القدير» (٦: ١٤٠)، خصوصًا وأنَّ بعض العلماء صححها أو نقل تصحيحها كالسبكي، وابن السكن، والعراقي والقاضي عياض في «الشفا»، والملا علي القاري شارحه، والخفاجي كذلك في «نسيم الرياض» (٣: ٥١١)، وكلهم من حفاظ الحديث وأئمته المعتمدين، ويكفي أنَّ الأئمة الأربعة رضي الله عنهم وغيرهم من فحول العلماء وأركان الدين قالوا بمشروعية زيارة النبي ﷺ، كما نقله عنهم أصحابهم في كتب فقههم المعتمدة، وهذا كاف منهم في تصحيح أحاديث الزيارة وقبولها، لأنَّ الحديث الضعيف يتأيد بالعمل والفتوى، كما هو معروف من قواعد الأصوليين والمحدثين.

زيارة القبر هي زيارة المسجد في اعتبار الشيخ ابن تيمية

للشيخ ابن تيمية رأي نفيس جاء ضمن كلامه على الزيارة، فبعد أن تكلم على بدعية شد الرحل للقبر النبوي المحمدي وحده دون المسجد، رجع فقال:

«وهذا المعترض وأمثاله جعلوا السفر إلى قبور الأنبياء نوعًا من القربة، ثم لما رأوا ما ذكره العلماء من استحباب زيارة قبر نبينا ظنوا أن سائر القبور يسافر إليها كما يسافر إليه فضلوا من وجوه:

أحدها: أنَّ السفر إليه إنما هو سفر إلى مسجده، وهو مستحب بالنص والإجماع.

الثاني: أنَّ هذا السفر هو للمسجد في حياة الرسول ـ ﷺ ـ وبعد دفنه وقبل دخول الحجرة وبعد دخول الحجرة فيه، فهو سفر إلى المسجد سواء كان القبر هناك أو لم يكن، فلا يجوز أن يشبه به السفر إلى قبر مجرد. . .

ثم قال: **السادس**: أنَّ السفر إلى مسجده ـ الذي يسمى السفر لزيارة قبره ـ هو ما أجمع عليه المسلمون جيلًا بعد جيل، وأما السفر إلى سائر القبور فلا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، بل ولا عن أتباع التابعين.

ثم قال: والمقصود أنَّ المسلمين ما زالوا يسافرون إلى مسجده ولا يسافرون إلى قبور الأنبياء؛ كقبر موسى وقبر الخليل عليهما السلام، ولم يعرف عن أحد من الصحابة أنه سافر إلى قبر الخليل مع كثرة مجيئهم إلى الشام وبيت المقدس، فكيف يجعل السفر إلى مسجد الرسول الذي يسميه بعض الناس زيارة

لقبره مثل السفر إلى قبور الأنبياء؟».

فيستفاد من كلام الشيخ ابن تيمية فائدة مهمة جدًّا وهي: أنه لا يتصور أبدًا أن يشد الزائر رحله قاصدًا زيارة القبر وحده، ثم لا يدخل إلى المسجد ويصلي فيه ليستفيد من بركاته ومضاعفة صلاته وروضة الجنة التي فيه، ويقابله أنه لا يعقل أبدًا أن يشد الزائر رحله قاصدًا زيارة المسجد وحده ثم لا يتوجه إلى الزيارة ولا يقف بالقبر الشريف للسلام على النبي ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما.

ولذلك ترى الشيخ يشير في عبارته إلى هذا المعنى بقوله مثلًا: «فكيف يجعل السفر إلى مسجد الرسول الذي يسميه بعض الناس زيارة لقبره مثل السفر إلى قبور الأنبياء؟».

وبقوله: «إن السفر إليه إنما هو سفر إلى مسجده».

وبقوله: «إن السفر إلى مسجده الذي يسمى السفر لزيارة قبره هو ما أجمع عليه المسلمون».

فهذا الرأي الجيد النفيس يحل مشكلة كبرى فرقت بيننا معشر المسلمين، وبسببها كَفَّرَ بعضنا بعضًا وأخرجه عن دائرة الإسلام، ولو سلك من ادعى أنه متبع للسلف مسلك ابن تيمية إمام السلف في عصره، والتمس للناس العذر في مقاصدهم وحسن الظن بهم، لسلم جمع غفير من دخول النار وفازوا بالجنة دار القرار!

وهذا هو الحق الذي ندين الله به ونعتقده بكل صدق سواء صرّحنا به أو لم نصرّح؛ فلو قال الواحد منا: أنا مسافر لزيارة النبي ﷺ أو قبره، فهو قاصد في الجملة مسجده الشريف، ولو قال: أنا مسافر لزيارة المسجد، فهو قاصد في الجملة القبر. غاية ما في الأمر أنه فاته التصريح بكل ما يقصده وينويه للارتباط الوثيق بين المسجد والقبر الذي هو في الحقيقة عبارة عن قصد النبي ذاته ﷺ؛ لأن المسافر لزيارة القبر إنما هو مسافر في الحقيقة إلى النبي نفسه ﷺ.

أما القبر حقيقة فلا يقصده ولا يتوجه إليه مسافر، ونحن إنما نتوجه إليه ﷺ ونشد رحالنا لزيارته هو ونتقرب إلى الله بتلك الزيارة، ولذلك فالواجب على المسلمين الزائرين أن يصححوا ألفاظهم ابتعادًا عن الشبهة، ويقولوا: نحن نزور رسول الله ونشد الرحل إلى رسول الله ﷺ، ومن هنا قال مالك: أكره للرجل أن

يقول: زرت قبر الرسول ﷺ.

وفسره العلماء من أئمة المالكية بأن ذلك من الأدب في التعبير اللفظي، ولو كان المسافر لزيارة القبر لا يقصد إلا زيارة القبر فقط لَمَا رأيت هذا الازدحام الشديد على الروضة الشريفة، ولما رأيت الناس يتسابقون ويتدافعون عند فتح أبواب المسجد النبوي حتى ليكاد يقتل بعضهم بعضًا، وهؤلاء الذين يحرصون على الصلاة في المسجد والمسابقة إلى الروضة هم الذين جاءوا لزيارة محمد بن عبد الله ﷺ، وشدوا رحلهم إليه ﷺ.

تحقيق مفيد

تحقيق العلامة الشيخ عطية محمد سالم صاحب تكملة «أضواء البيان»

وقد ذكر هذه المسألة العلامة الشيخ عطية محمد سالم القاضي بالمدينة المنورة في كتابه الذي تمم به التفسير المشهور المسمى بـ «أضواء البيان» للعلامة المفسر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي؛ فقال:

«وأعتقد أنَّ هذه المسألة لولا نزاع معاصري شيخ الإسلام معه في غيرها لما كان لها محل ولا مجال، ولكنهم وجدوها حَسَاسَةً ولها مِسَاسٌ بالعاطفة ومحبة رسول الله ﷺ، فأثاروها وحكموا عليه بالالتزام ـ أي بلازم كلامه ـ حينما قال:

«لا يكون شد الرحال لمجرد الزيارة، بل تكون للمسجد من أجل الزيارة عملًا بنص الحديث»، فتقوّلوا عليه ما لم يقله صراحة، ولو حمل كلامه على النفي بدلًا من النهي لكان موافقًا؛ أي: لا يتأتى ذلك. لأنه رحمه الله لم يمنع زيارته ﷺ ولا السلام عليه، بل يجعلها من الفضائل والقربات، وإنما يلتزم بنص الحديث في جعل شد الرحال إلى المسجد ولكل شيء ومنه السلام على رسول الله ﷺ كما صرح بذلك في كتبه»[1].

ثم نقل من نصوص كلام ابن تيمية ما نقلناه عنه، ثم قال:

«فدل كلامه رحمه الله أنَّ زيارة القبر والصلاة في المسجد مرتبطان، ومن

---

(١) عطية محمد سالم؛ «تكملة أضواء البيان» ٨:٥٨٦.

ادّعىٰ انفكاكهما عمليًا فقد خالف الواقع، وإذا ثبتت الرابطة بينهما انتفى الخلاف وزال موجب النزاع والحمد لله رب العالمين».

وصرح ـ أي ابن تيمية ـ في موضع آخر في قصر الصلاة في السفر لزيارة قبور الصالحين عن أصحاب أحمد أربعة أقوال؛ الثالث منها: تقصر إلى قبر نبينا عليه الصلاة والسلام[1].

ثم قال الشيخ عطية: «وهذا غاية في التصريح منه رحمه الله أنه لا انفكاك من حيث الواقع بين الزيارة والصلاة في المسجد عند عامة العلماء».

ثم قال ـ أي ابن تيمية ـ في حق الجاهل: «وأما من لم يعرف هذا، فقد لا يقصد إلَّا السفر إلى القبر، ثم إنه لا بد أن يصلي في مسجده فيثاب على ذلك، وما فعله وهو منهي عنه ولم يعلم أنه منهي عنه لا يعاقب، فيحصل له أجر ولا يكون عليه وزر»[2].

وبه يظهر لك أنَّ قاصد القبر على كل حال ليس بمحروم من الأجر والثواب، فهل يقال في حقه: إنه مبتدع أو ضال أو مشرك؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

رأي الإمام الحافظ الذهبي في شَدِّ الرَّحلِ لزيارة النبي ﷺ

عن حسن بن حسن بن علي أنه رأى رجلًا وقف على البيت الذي فيه قبر النبي ﷺ يدعو له ويصلي عليه، فقال للرجل: لا تفعل؛ فإنَّ رسول الله ﷺ قال: **«لا تتخذوا بيتي[3] عيدًا، ولا تجعلوا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليَّ حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغني»**.

«هذا مرسل، وما استدل حَسنٌ في فتواه بطائل من الدلالة، فمن وقف عند الحجرة المقدسة ذليلًا مسلّمًا مصليًا على نبيه، فيا طوبى له فقد أحسن الزيارة، وأجمل في التذلل والحب، وقد أتى بعبادة زائدة على من صلى عليه في أرضه أو في صلاته؛ إذ الزائر له أجر الزيارة وأجر الصلاة عليه، والمُصَلّي عليه في سائر البلاد له أجر الصلاة فقط، فمن صَلّىٰ عليه واحدة صلى الله عليه عشرًا ولكن من زاره ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وأساء أدب الزيارة أو سجد للقبر أو

(١) عطية محمد سالم؛ «تكملة أضواء البيان» ٨: ٥٩٠.
(٢) عطية محمد سالم؛ «تكملة أضواء البيان» ٨: ٥٩٠.
(٣) هذا لفظ الذهبي، والمشهور «لا تجعلوا قبري عيدًا».

فعل ما لا يشرع، فهذا فعل حسنًا وسيئًا، فيُعَلَّم برفق والله غفور رحيم، فوالله ما يحصل الانزعاج لمسلم والصياح وتقبيل الجدران وكثرة البكاء إلَّا وهو محب لله ولرسوله ﷺ، فحبه المعيار والفارق بين أهل الجنة وأهل النار، فزيارة قبره من أفضل القرب، وشد الرحال إلى قبور الأنبياء والأولياء لئن سلَّمنا أنه غير مأذون فيه لعموم قوله صلوات الله عليه: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد»**، فشد الرحال إلى نبينا ﷺ مستلزم لشد الرحل إلى مسجده وذلك مشروع بلا نزاع؛ إذ لا وصول إلى حجرته إلا بعد الدخول إلى مسجده، فليبدأ بتحية المسجد ثم بتحية صاحب المسجد رزقنا الله وإياكم ذلك آمين»[١].

الإمام مالك والزيارة

الإمام مالك هو من أشد الناس تعظيمًا للجناب النبوي وهو الذي كان لا يمشي في المدينة المنورة منتعلًا ولا راكبًا، ولا يقضي فيها حاجته احترامًا وتعظيمًا وتكريمًا لتراب المدينة الذي مشى عليه رسول الله ﷺ، وها هو يخاطب أمير المؤمنين المهدي لما جاء إلى المدينة في هذا الموضوع ويقول له: إنك تدخل الآن المدينة فتمر بقوم عن يمينك ويسارك وهم أولاد المهاجرين والأنصار فسلِّمْ عليهم؛ فإنه ما على وجه الأرض قوم خير من أهل المدينة، ولا خير من المدينة. فقال له: ومن أين قلت ذلك يا أبا عبد الله؟ قال: لأنه لا يعرف قبر نبي اليوم على وجه الأرض غير قبر محمد ﷺ، وَمَنْ قبر محمد عندهم فينبغي أن يُعْلَمَ فضلهم[٢].

ومن شدة تعظيمه للمدينة أنه كره أن يقال: زرنا قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكأنه أراد أن يقول القائل: زرنا النبي ﷺ مباشرة دون لفظ القبر؛ لأن القبر مهجور بدليل قوله ﷺ: **«صلوا في بيوتكم ولا تجعلوها قبورًا»**.

قال الحافظ ابن حجر: «إنه إنما كره اللفظ أدبًا لا أصل الزيارة فإنها من أفضل الأعمال وأجل القربات الموصلة إلى ذي الجلال، وإن مشروعيتها محل إجماع بلا نزاع[٣].

---

(١) الذهبي؛ «سير أعلام النبلاء» ٤: ٤٨٣ - ٤٨٥.
(٢) القاضي عياض؛ «ترتيب المدارك».
(٣) ابن حجر؛ «فتح الباري» ٣: ٦٦.

وقال الإمام أبو عمران: إنما كره مالك أن يقال: طواف الزيارة، وزرنا قبر النبي ﷺ لاستعمال الناس ذلك بينهم بعضهم لبعض، فكره تسوية النبي ﷺ مع الناس ـ أي عمومهم ـ بهذا اللفظ، وأحب أن يخص بأن يقال: سلمنا على النبي ﷺ.

وأيضًا فإن الزيارة مباحة بين الناس، وواجب شد الرِحال إلى قبره ﷺ؛ يريد بالوجوب هنا وجوب ندب وترغيب وتأكيد لا وجوب فرض. والأولى عندي أن منعه وكراهة مالك له لإضافته إلى قبر النبي ﷺ وأنه لو قال: زرت النبي ﷺ، لم يكرهه لقوله ﷺ: **«اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد بعدي، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**.

فحمى إضافة هذا اللفظ إلى القبر والتَّشبه بفعل أولئك قطعًا للذريعة وحسمًا للباب[1].

قُلْتُ: ولو كان المقصود كراهية الزيارة لقال مالك: أكره للرجل أن يزور قبر النبي ﷺ، لكن ظاهر قوله: «أكره للرجل أن يقول إلخ» على أن المقصود هو كراهة التعبير بهذا اللفظ فقط.

استحباب زيارة النبي ﷺ عند الحنابلة وغيرهم

زيارة النبي ﷺ مشروعة وقد ذكرها كثير من علماء الأمة وأئمة السلف، وتخصيص الحنابلة بالذكر المقصود منه رَدُّ فِرية من زعم أن أئمة الحنابلة لا يقولون بذلك، فاقتضى الأمر تخصيصهم بالذكر لرد هذه الفرية، وإلَّا فإن كتب فقه المذاهب الإسلامية جميعها مشحونة ومملوءة بهذه المسألة، فانظر إن شئت كتب الفقه الحنفي، وانظر إن شئت كتب الفقه المالكي، وكتب الفقه الشافعي والحنبلي، وكتب الفقه الزيدي والإباضي والجعفري، فإنك تجدهم قد عقدوا بابًا مخصوصًا في الزيارة بعد أبواب المناسك.

كلام الأئمة في مشروعية زيارة سيدنا رسول الله ﷺ وشدِّ الرَّحل إلى قبره

١ ـ القاضي عياض:

نذكر هنا كلام القاضي عياض في مشروعية الزيارة النبوية عند السلف، في

---

(١) القاضي عياض، «الشفا»، ٢: ٧١ ـ ٧٢.

شرحه للحديث الذي رواه مسلم، عن ابن عمر عن النبي ﷺ، قال: «**إنَّ الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها**». وفي رواية أبي هريرة: «**ليأرز إلى المدينة...**» الحديث.

قال القاضي عياض: «وقوله ﷺ: «**ليأرز إلى المدينة**» معناه: أنَّ الإيمان أولًا وآخرًا بهذه الصفة، لأنه في أول الإسلام كان كل من خلص إيمانه وصح إسلامه أتى المدينة إما مهاجرًا مستوطنًا، وإما متشوقًا إلى رؤية رسول الله ﷺ ومتعلمًا منه ومتقربًا، ثم بعده هكذا في زمن الخلفاء كذلك، ولأخذ سيرة العدل منهم والاقتداء بجمهور الصحابة رضوان الله عليهم فيها، ثم من بعدهم من العلماء الذين كانوا سرج الوقت وأئمة الهدى لأخذ السنن المنتشرة بها عنهم، فكان كل ثابت الإيمان منشرح الصدر به يرحل إليها، ثم بعد ذلك في كل وقت إلى زماننا لزيارة قبر النبي ﷺ والتبرك بمشاهده وآثاره وآثار أصحابه الكرام، فلا يأتيها إلا مؤمن».

هذا كلام القاضي عياض، والله أعلم بالصواب. اهـ[1].

٢ ـ الإمام النووي:

عقد الإمام الحافظ شرف الدين النووي صاحب «شرح صحيح مسلم» في كتابه المعروف في المناسك المسمى بـ«الإيضاح» فصلًا خاصًا عن الزيارة النبوية، قال فيه: «إذا انصرف الحجاج والمعتمرون من مكة فليتوجهوا إلى مدينة رسول الله ﷺ لزيارة تربته ﷺ، فإنها من أهم القربات وأنجح المساعي»[2].

٣ ـ الإمام ابن حجر الهيتمي:

قال الحافظ ابن حجر الهيتمي في «حاشيته» على «الإيضاح» للنووي معلقًا على قوله: «وقد روى البزار والدارقطني بإسنادهما عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من زار قبري وجبت له شفاعتي**».

قال: رواه أيضًا ابن خزيمة في «صحيحه»، وصححه جماعة كعبد الحق

---

(١) النووي؛ «شرح مسلم» ٢: ١٧٧.

(٢) وانظر كلامه أيضًا في «شرح صحيح مسلم» ٩: ١٠٦، عند الكلام على حديث: «لا تشد الرحال».

والتقي السبكي، ولا ينافي ذلك قول الذهبي: طرقه كلها لينة، يقوي بعضها بعضًا.

ورواه الدارقطني أيضًا والطبراني وابن السبكي وصححه بلفظ: «**من جاءني زائرًا لا تحمله حاجة إلا زيارتي كان حقًا عليَّ أن أكون له شفيعًا يوم القيامة**».

وفي رواية: «**كان له حقًا على الله عز وجل أن أكون له شفيعًا يوم القيامة**».

والمراد بقوله ﷺ: «**لا تحمله حاجة إلَّا زيارتي**»: اجتناب قصد ما لا تعلق له بالزيارة، أما ما يتعلق بها من نحو قصد الاعتكاف في المسجد النبوي، وكثرة العبادة فيه، وزيارة الصحابة وغير ذلك مما يندب للزائر فعله، فلا يضر قصده في حصول الشفاعة له، فقد قال أصحابنا وغيرهم: يسن أن ينوي مع التقرب بالزيارة التقرب بشد الرحل للمسجد النبوي والصلاة فيه كما ذكره المصنف.

ثم الحديث يشمل زيارته ﷺ حيًّا وميتًا، ويشمل الذَّكر والأنثى، الآتي من قرب أو بعد، فيستدل به على فضيلة شد الرحال لذلك، وندب السفر للزيارة؛ إذ للوسائل حكم المقاصد.

وقد أخرج أبو داود بسند صحيح: «**ما من أحد يسلم عليَّ إلا ردَّ الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام**».

فتأمل هذه الفضيلة العظيمة وهي رده ﷺ على المسلِّم عليه، إذ هو ﷺ حي في قبره كسائر الأنبياء لما ورد مرفوعًا: «**الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون**»، ومعنى رد روحه الشريفة: رد القوة النطقية في ذلك الحين للرد عليه». اهـ[1].

٤ ـ الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني:

قال ابن حجر في «شرحه» على «البخاري» عند قوله: «**لا تشد الرحال إلَّا إلى ثلاثة مساجد**»: «قوله: (إلا إلى ثلاثة مساجد) المستثنى منه محذوف، فإما أن يقدر عامًّا فيصير: لا تشد الرحال إلى مكان في أي أمر كان إلا إلى الثلاثة، أو أخص من ذلك. لا سبيل إلى الأول، لإفضائه إلى سد باب السفر للتجارة وصلة الرحم وطلب العلم وغيرها، فتعين الثاني، والأَوْلى أن يقدر ما هو أكثر مناسبة وهو: لا تشد الرحال إلى مسجد للصلاة فيه إلَّا إلى الثلاثة، فيبطل بذلك قول من منع شد الرحال

(١) «الإيضاح» ص: ٤٨٨.

إلى زيارة القبر الشريف وغيره من قبور الصالحين»، والله أعلم.

وقال السبكي الكبير: «وقد التبس ذلك على بعضهم فزعم أن شد الرحال إلى الزيارة لمن في غير الثلاثة داخل في المنع، وهو خطأ؛ لأنَّ الاستثناء إنما يكون من جنس المستثنى منه، فمعنى الحديث: لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد أو إلى مكان من الأمكنة لأجل ذلك المكان إلَّا إلى الثلاثة المذكورة. وشد الرحال إلى زيارة أو طلب علم ليس إلى المكان بل إلى من في ذلك المكان، والله أعلم»[١].

٥ ـ الإمام الشيخ الكرماني شارح البخاري:

قال الشيخ الكرماني في «شرحه» على «البخاري» عند قوله: «**إلا إلى ثلاثة مساجد**»: «والاستثناء مفرغ، فإن قلت: فتقدير الكلام لا تشد الرحال إلى موضع أو مكان فيلزم أن لا يجوز السفر إلى مكان غير المستثنى، حتى لا يجوزَ السفر لزيارة إبراهيم الخليل عليه السلام ونحوه؛ لأن المستثنى منه في المفرغ لا بد أن يقدر أعم العام.

قلت: المراد بأعم العام ما يناسب المستثنى نوعًا ووصفًا؛ كما إذا قلت: ما رأيت إلا زيدًا، كان تقديره: ما رأيت رجلًا أو أحدًا إلا زيدًا، لا ما رأيت شيئًا أو حيوانًا إلا زيدًا، فههنا تقديره: لا تشد إلى مسجد إلا إلى ثلاثة، وقد وقع في هذه المسألة في عصرنا مناظرات كثيرة في البلاد الشامية، وصنف فيها رسائل من الطرفين لسنا الآن لبيانها». اهـ[٢].

٦ ـ الشيخ بدر الدين العيني:

قال الشيخ العيني في «شرح البخاري»:

«وحكى الرافعي عن القاضي ابن كج أنه قال: إذا نذر أن يزور قبر النبي ﷺ فعندي أنه يلزمه الوفاء وجهًا واحدًا، قال: ولو نذر أن يزور قبر غيره ففيه وجهان عندي. وقال القاضي عياض، وأبو محمد الجويني من الشافعية: إنه يحرم شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة لمقتضى النهي. وقال النووي: وهو

---

(١) ابن حجر؛ «فتح الباري» ٣:٦٦.
(٢) الكرماني؛ «شرح البخاري» ٧:١٢.

غلط، والصحيح عند أصحابنا ـ وهو الذي اختاره إمام الحرمين والمحققون ـ أنه لا يحرم ولا يكره، وقال الخطابي: (لا تشد) لفظه خبر، ومعناه: الإيجاب فيما نذره الإنسان من الصلاة في البقاع التي يتبرك بها؛ أي لا يلزم الوفاء بشيء من ذلك حتى يشد الرحل له ويقطع المسافة إليه غير هذه الثلاثة التي هي مساجد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فأما إذا نذر الصلاة في غيرها من البقاع فإن له الخيار في أن يأتيها أو يصليها في موضعه ولا يرحل إليها.

وقال شيخنا زين الدين: من أحسن محامل هذا الحديث أن المراد منه حكم المساجد فقط، وأنه لا يشد الرحل إلى مسجد من المساجد غير هذه الثلاثة، فأما قصد غير المساجد من الرحلة في طلب العلم وفي التجارة والتنزه وزيارة الصالحين والمشاهد وزيارة الإخوان ونحو ذلك، فليس داخلًا في النهي، وقد ورد ذلك مصرحًا به في بعض طرق الحديث في مسند أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا عبد الحميد، حدثني شهر، سمعت أبا سعيد الخدري رضي الله عنه وذكر عنده الصلاة في الطور فقال: قال رسول الله ﷺ: **«لا ينبغي للمطي أن يشد رحاله إلى مسجد يبتغى فيه الصلاة غير المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا»**. وإسناده حسن، وشهر بن حوشب وثقه جماعة من الأئمة». اهـ[1].

٧ ـ الشيخ أبو محمد ابن قدامة إمام الحنابلة صاحب كتاب «المغني»:

قال الشيخ أبو محمد موفق الدين عبد الله بن قدامة:

«ويستحب زيارة قبر النبي ﷺ؛ لما روى الدارقطني بإسناده عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي»**.

وفي رواية: **«من زار قبري وجبت له شفاعتي»**.

رواه باللفظ الأول سعيد، حدثنا حفص بن سليمان، عن ليث، عن مجاهد عن ابن عمر، وقال أحمد في رواية عبد الله عن يزيد بن قسيط، عن أبي هريرة أنَّ النبي ﷺ قال: **«ما من أحد يسلم عليَّ عند قبري إلَّا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام»**.

وإذا حج الذي لم يحج قط ـ يعني من غير طريق الشام ـ لا يأخذ على

---

(١) العيني؛ «عمدة القاري» ٧: ٢٥٤.

طريق المدينة، لأني أخاف أن يحدث به حدث، فينبغي أن يقصد مكة من أقصر الطرق ولا يتشاغل بغيره، ويروى عن العتبي، قال: كنت جالسًا عند قبر النبي فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله! سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]. وقد جئتك مستغفرًا لذنبي مستشفعًا بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بِالْقَاعِ أَعْظُمُهُ فَطَابَ مِنْ طِيبِهِنَّ الْقَاعُ وَالْأَكَمُ
نَفْسِي الْفِدَاءُ لِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ فِيهِ الْعَفَافُ وَفِيهِ الْجُودُ وَالْكَرَمُ

ثم انصرف الأعرابي فحملتني عيني فنمت فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: «يا عتبي! الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له»[1]. اهـ.

٨ ـ الشيخ أبو الفرج ابن قدامة إمام الحنابلة وصاحب «الشرح الكبير»:

قال الشيخ شمس الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن قدامة الحنبلي في كتابه «الشرح الكبير»:

«**مسألة**: فإذا فرغ من الحج استحب زيارة قبر النبي ﷺ وقبر صاحِبَيْه رضي الله عنهما.

ثم ذكر الشيخ ابن قدامة صيغة تقال عند السلام على النبي ﷺ وفيها أنه يقول: «اللهم إنك قلت وقولك الحق: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، وقد أتيتك مستغفرًا من ذنوبي، مستشفعًا بك إلى ربي، فأسألك يا رب أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته، اللهم اجعله أوّل الشافعين وأنجح السائلين وأكرم الأولين والآخرين برحمتك يا أرحم الراحمين.

ثم قال: ولا يستحب التمسح بحائط قبر النبي ﷺ ولا تقبيله، قال أحمد رحمه الله: ما أعرف هذا، قال الأثرم: رأيت أهل العلم من أهل المدينة لا يمسون قبر النبي ﷺ، يقومون من ناحية فيسلمون، قال أبو عبد الله: وهكذا كان ابن عمر رضي الله عنهما يفعل، قال: أما المنبر فقد جاء فيه ما رواه إبراهيم بن عبد الله بن عبد القارئ أنه نظر إلى ابن عمر وهو يضع يده على مقعد النبي ﷺ

---

(١) ابن قدامة؛ «المغني» ٣: ٥٥٦.

من المنبر ثم يضعها على وجهه»[١]. اهـ.

٩ ـ الشيخ منصور بن يونس البهوتي الحنبلي:

قال الشيخ منصور بن يونس البهُوتي في كتابه «كشاف القناع عن متن الإقناع»:

«**فصل**: وإذا فرغ من الحج استحب له زيارة قبر النبي ﷺ، وقبرَيْ صاحبَيْه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ لحديث الدارقطني عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي**».

وفي رواية: «**من زار قبري وجبت له شفاعتي**». رواه باللفظ الأول سعيد.

تنبيه: قال ابن نصر الله: لازم استحباب زيارة قبره ﷺ استحباب شد الرحال إليها؛ لأن زيارته للحاج بعد حجه لا تمكن بدون شد الرحال، فهذا كالتصريح باستحباب شد الرحل لزيارته ﷺ». اهـ[٢].

١٠ ـ شيخ الإسلام تقي الدين محمد الفتوحي الحنبلي:

قال الشيخ الفتوحي:

«وسن زيارة قبر النبي ﷺ وقبر صاحبيه رضي الله تعالى عنهما، فيسلم عليه مستقبلًا له، ثم يستقبل القبلة، ويجعل الحجرة عن يساره ويدعو، ويحرم الطواف بها، ويكره التمسح ورفع الصوت عندها»[٣].

١١ ـ الشيخ مرعي بن يوسف الحنبلي:

قال الشيخ مرعي بن يوسف في كتابه «دليل الطالب»: «وسن زيارة قبر النبي ﷺ وقبر صاحبيه رضوان الله عليهما، وتستحب الصلاة في مسجده ﷺ وهي بألف صلاة، وفي المسجد الحرام بمائة ألف، وفي المسجد الأقصى بخمسمائة»[٤].

١٢ ـ الإمام شيخ الإسلام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي صاحب «القاموس»:

قال في كتابه «الصلات والبشر»: «اعلم أنَّ الصلاة على النبي ﷺ عند قبره آكد، فيستحب إعمال المطي لإدراك الفوز بهذا الشرف العظيم والمنصب

---

(١) ابن قدامة؛ «الشرح الكبير» ٣: ٤٩٥.
(٢) البهوتي؛ «كشاف القناع»، ٢: ٥٩٨.
(٣) الفتوحي، «منتهى الإرادات»، ٢: ١٧١.
(٤) مرعي الحنبلي؛ «دليل الطالب» ص٨٨.

الكريم، قال القاضي ابن كج ـ هو القاضي يوسف بن أحمد بن كج ـ فيما حكاه الرافعي: إذا نذر أن يزور قبر النبي ﷺ فعندي أنه يلزمه الوفاء وجهًا واحدًا، ولو نذر أن يزور قبر غيره ففيه وجهان عندي. وقد علم أنه لا يلزمه بالنذر إلا العبادات.

وممن صرح باستحبابها وكونها سُنَّةً من أصحابنا الرافعي في أواخر باب أعمال الحج، والغزالي في «الإحياء»، والبغوي في «التهذيب»، والشيخ عز الدين ابن عبد السلام في «مناسكه»، وأبو عمرو بن الصلاح، وأبو زكريا النووي رحمهم الله تعالى.

ومن الحنابلة: الشيخ موفق الدين، والإمام أبو الفرج البغدادي وغيرهما.

ومن الحنفية: صاحب «المختار» في «شرح المختار» له، عقد لها فصلًا وعدها من أفضل المندوبات المستحبات.

وأما المالكية: فقد حكى القاضي عياض منهم الإجماع على ذلك، وفي كتاب «تهذيب المطالب» لعبد الحق الصقلي عن الشيخ أبي عمران المالكي أن زيارة قبر النبي ﷺ واجبة، قال عبد الحق: يعني من السنن الواجبة، وفي كلام العبدي المالكي في «شرح الرسالة»: أن المشي إلى المدينة لزيارة قبر الرسول ﷺ أفضل من الكعبة ومن بيت المقدس، وأكثر عبارات الفقهاء أصحاب المذاهب تقتضي استحباب السفر للزيارة؛ لأنهم استحبوا للحاج بعد الفراغ من الحج الزيارة، ومن ضرورتها: السفر، وأما نفس الزيارة فالأدلة عليها كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

ولا شك أنه ﷺ حي، وأنَّ أعمال أمته معروضة عليه»[١]. اهـ. ثم ذكر الشيخ جملة من أحاديث الزيارة.

١٣ ـ الإمام الشيخ محمد بن عَلَّان الصديقي الشافعي شارح «الأذكار»:

قال معلقًا على قول النووي: (فإن زيارته أفضل القربات وأنجح المساعي): «وكيف لا، وقد وعد الزائر بوجوب شفاعته ﷺ، وهي لا تجب إلا لأهل الإيمان، ففي ذلك التبشير بالموت على الإيمان مع ما ينضم إلى ذلك من

(١) الفيروزآبادي؛ «الصلات والبشر» ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

سماعه ﷺ سلام الزائر من غير واسطة. أخرج أبو الشيخ: «**من صلى عليَّ عند قبري سمعته، ومن صلى عليَّ بعيدًا أعلمته**». قال الحافظ: وينظر في سنده، وأخرج أبو داود وغيره عن أبي هريرة عنه ﷺ أنه قال: «**ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام**».

قال الحافظ: حديث حسن أخرجه أحمد، والبيهقي وغيرهما. وأنبئت عن الشيخ السبكي في «شفاء السقام» قال: اعتمد جماعة من الأئمة على هذا الحديث في استحباب زيارة قبره ﷺ وهو اعتماد صحيح؛ لأن الزائر إذا سلم عليه وقع الرد عليه من قرب وتلك فضيلة مطلوبة. اهـ.

أقول: ورده عليه كذلك بنفسه، ولو لم يكن للزائر من القِرى إلا هذا الخطاب لكان فيه الغنى، كيف وفيه الشفاعة العظمى ومضاعفة الصلاة في ذلك الحرم الأسنى؟! وقد أورد جملة من الأحاديث في ذلك التقي السبكي في شفاء السقام، وابن حجر الهيتمي في الجوهر المنظم، وتلميذه الفاكهي في حسن الاستشارة في آداب الزيارة»[1]. اهـ.

الزيارة النبوية السَّلَفِية

ومعلوم أنَّ المقصود بالزيارة هو الزيارة الشرعية، وهي التي بينت السُّنَّة النبوية آدابها وما ينبغي أن يفعله الزائر.

قال الشيخ ابن تيمية مبينًا الفرق بين زيارة أهل التوحيد وبين زيارة أهل الشرك: «فزيارة أهل التوحيد لقبور المسلمين تتضمن السلام عليهم والدعاء لهم، وهو مثل الصلاة على جنائزهم، وزيارة أهل الشرك تتضمن أنهم يشبهون المخلوق بالخالق، ينذرون له ويسجدون له ويدعونه ويحبونه مثل ما يحبون الخالق، فيكونون قد جعلوه لله ندًّا وسوّوه برب العالمين، وقد نهى الله أن يشرك به الملائكة والأنبياء وغيرهم؛ فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ

---

(١) ابن علان؛ «الفتوحات الربانية على الأذكار النووية» ٥: ٣١.

أَرْبَابًاۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠]. وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧]. قالت طائفة من السلف: كان أقوام يدعون الأنبياء كالمسيح وعُزَير، ويدعون الملائكة فأخبرهم تعالى أن هؤلاء عبيده يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه بالأعمال»[1]. اهـ.

قُلْتُ: وهل زيارتنا لنبينا ﷺ إلَّا على هذا المنهج وبهذا الطريق السوي والصراط المستقيم؟

فالله يشهد، وملائكته وحملة عرشه وأهل السمٰوات والأرض، أننا في زيارتنا لسيدنا ومولانا رسول الله ﷺ لا نعتقد إلَّا أنه ﷺ بَشَرٌ يُوحىٰ إليه، من خيار عبيد الله يرجو رحمة ربه ويخاف عذابه ويتقرب إليه بالأعمال، بل هو أشد الناس حرصًا على ذلك، فهو أتقانا لله وأخوفنا من الله وأعلمنا بالله وأعرفنا به، لا نشبهه بالخالق، ولا ننذر له، ولا نسجد له، ولا ندعوه ولا نجعله لله ندًّا، ولا نسوّيه برب العالمين، ونحبه كما أمر أكثر من النفس والمال والولد.

الشيخ ابن القيم والزيارة النبوية

وقد ذكر الشيخ ابن القيم في قصيدته المعروفة بـ«النونية» كيف تكون الزيارة، وما هي الآداب المطلوبة فيها، وكيف ينبغي أن يكون شعور الزائر وهو واقف أمام المواجهة الشريفة، وماذا ينبغي أن يحس به تجاه صاحب القبر ﷺ، وذكر في آخر تلك الأبيات أن الزيارة بهذا الإحساس والشعور وبتلك الكيفية هي من أفضل الأعمال، فقال:

فَإِذَا أَتَيْنَا الْمَسْجِدَ النَّبَوِيَّ صَلْـ ـلَيْنَا التَّحِيَّةَ أَوَّلًا ثِنْتَانِ
بِتَمَامِ أَرْكَانٍ لَهَا وَخُشُوعِهَا وَحُضُورِ قَلْبٍ فِعْلُ ذِي الْإِحْسَانِ
ثُمَّ انْثَنَيْنَا لِلزِّيَارَةِ نَقْصِدُ الْـ ـقَبْرَ الشَّرِيفَ وَلَوْ عَلَى الْأَجْفَانِ
فَنَقُومُ دُونَ الْقَبْرِ وَقْفَةَ خَاضِعٍ مُتَذَلِّلٍ فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ

---

(١) ابن تيمية؛ «الجواب الباهر في زوار المقابر» ص٢١.

فَكَأَنَّهُ فِي الْقَبْرِ حَيٌّ نَاطِقٌ فَالْوَاقِفُونَ نَوَاكِسُ الْأَذْقَانِ
مَلَكَتْهُمُ تِلْكَ الْمَهَابَةُ فَاعْتَرَتْ تِلْكَ الْقَوَائِمَ كَثْرَةُ الرَّجَفَانِ
وَتَفَجَّرَتْ تِلْكَ الْعُيُونُ بِمَائِهَا وَلَطَالَمَا غَاضَتْ على الْأَزْمَانِ
وَأَتَى الْمُسَلِّمُ بِالسَّلَامِ بِهَيْبَةٍ وَوَقَارِ ذِي عِلْمٍ وَذِي إِيمَانِ
لَمْ يَرْفَعِ الْأَصْوَاتَ حَوْلَ ضَرِيحِهِ كَلَّا وَلَمْ يَسْجُدْ عَلَى الْأَذْقَانِ
كَلَّا وَلَمْ يُرَ طَائِفًا بِالْقَبْرِ أُسْـ ـبُوعًا كَأَنَّ الْقَبْرَ بَيْتٌ ثَانِ
ثُمَّ انْثَنَى بِدُعَائِهِ مُتَوَجِّهًا لِلَّهِ نَحْوَ الْبَيْتِ ذِي الْأَرْكَانِ
هٰذِي زِيَارَةُ مَنْ غَدَا مُتَمَسِّكًا بِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ
مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ هَاتِيكَ الزِّيَا رَةُ وَهْيَ يَوْمَ الْحَشْرِ فِي الْمِيزَانِ(١)

وتدبر قوله رحمه الله: (من أفضل الأعمال هاتيك الزيارة) فقد أعمى الله بصيرة بعض من القراء عن قراءتها فأنكرها.

القبر النبوي الشريف

إنَّ بعض الناس ـ أصلحهم الله وهداهم إلى الصراط المستقيم ـ ينظر إلى القبر النبوي المكرم من الزاوية القبرية فقط، ولهذا فإنه لا غرابة في كل ما يقع في ذهنه من تصورات فاسدة، ولا غرابة في كل ما يقع في قلبه من ظنون سيئة بالمسلمين والزائرين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والقاصدين إليه والداعين عند قبره، فتراه يقول: لا تشد الرحال إلى قبره ﷺ، ولا يجوز الدعاء عند قبره، بل قد يصل به العنت إلى أن يقول: إنَّ الدعاء عند قبره شرك أو كفر، وإنَّ استقبال القبر بدعة أو ضلال، وإن إكثار الوقوف والتردد على القبر شرك أو بدعة، وإنَّ من قال: إنَّ القبر أفضل البقاع وبما فيها الكعبة، فقد أشرك أو ضل. وهذا التكفير والتضليل هكذا بالكيل الجزاف دون تبصر أو تعقل؛ مخالف لما عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

ونحن حينما نتكلم على القبر، أو على زيارة القبر، أو على تفضيل القبر أو شد الرحال إلى القبر، أو دعاء الله وسؤاله أمام القبر، فإنَّ المقصود الذي لا يختلف فيه اثنان ولا ينتطح فيه عنزان؛ إنما هو ساكن القبر وصاحبه، ألا وهو

---

(١) انظر «النونية» المشهورة لابن القيم رحمه الله.

سيد المرسلين وأكرم الأولين والآخرين وأفضل مخلوقات الله أجمعين النبي الأعظم والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وما هي قيمة القبر بدونه، بل ما هي قيمة المسجد بدونه، بل ما هي قيمة المدينة بدونه، بل ما هي قيمة المسلمين كلهم بدونه، فإنهم لولاه ولولا رسالته ﷺ والإيمان به ومحبته والإقرار بالشهادة التي لا تصح إلا به ما كانوا ولا قاموا ولا فازوا ولا نجوا.

ومن هنا فإنَّ ابن عقيل الحنبلي لما سئل عن المفاضلة بين الحجرة والكعبة قال: إن أردت مجرد الحجرة فالكعبة أفضل، وإن أردت وهو ﷺ فيها؛ فلا والله لا العرش وحملته ولا جنة عدن ولا الأفلاك الدائرة؛ لأنَّ بالحجرة جسدًا لو وُزِنَ بالكونَيْنِ لرجح[1].

هذا هو المقصود بالقبر وبتفضيله وزيارته وشد الرحال إليه.

ومن هناك أيضًا قال العلماء: إنه لا ينبغي أن يقول: زرت القبر، إنما زرت النبي ﷺ[2]، وهذا ما قرره العلماء في تفسير قول الإمام مالك رحمه الله: أكره للرجل أن يقول: زرنا قبر النبي ﷺ؛ وذلك لأنه إنما يزور من يسمعه ويراه ويحس به ويعرفه ويرد عليه، فالقضية ليست قضية قبر، بل هي أكبر من ذلك وأجل وأرفع من أن ينظر إليها من الزاوية القبرية، فإذا نظرنا إلى القبر فقط دون النظر إلى من فيه، وجدنا الأرواح الطاهرة التي تحف به من كل جانب، ووجدنا جسرًا ملكيًا متصلًا ممتدًا من الملأ الأعلى إلى قبر محمد ﷺ مواكب متصلة لا تنقطع أعدادها وأمدادها لا يحصيها إلَّا الحق جل جلاله.

رَوىٰ الدارمي في «سننه»: حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني خالد ـ هو ابن يزيد ـ عن سعيد ـ هو ابن أبي هلال ـ عن نبيه بن وهب: أنَّ كعبًا دخل على عائشة فذكروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال كعب: ما من يوم يطلع إلَّا نزل سبعون ألفًا من الملائكة حتى يحفوا بقبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم يضربون بأجنحتهم ويصلون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك، حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفًا من الملائكة يزفونه[3].

---

(١) ابن القيم؛ «بدائع الفوائد» ٣:١٦٨. (٢) انظر «الشفا» للقاضي عياض.

(٣) الدارمي؛ «السنن»، ١:٤٣.

قُلْتُ: وروى هذا الأثر أيضًا الحافظ إسماعيل القاضي بسنده، وهو جيد في المتابعات والشواهد والمناقب وفضائل الأعمال.

وإذا نظرنا إلى ما حول القبر من الروضة التي هي قطعة من الجنة، والمنبر الذي نال الشرف الأعلى بالحبيب ﷺ وسيكون يوم القيامة على حوضه العظيم، وإلى الجذع الذي حنَّ إليه حنين الثكلى وسيكون يوم القيامة في جنة الخلد وسط أشجارها، وقد قيل: إنه دفن في موضعه بالمسجد، فلا أظن أنَّ عاقلًا حريصًا على الخير يتوقف عن الدعاء في هذه المواضع.

القبر النبوي.. والدعاء

ذكر العلماء رضي الله عنهم أنه يستحب لمن زار النبي ﷺ أن يقف للدعاء مستقبلًا للقبر الشريف، فيسأل الله تعالى ما يشاء من الخير والفضل ولا يلزمه أن يتوجه إلى القبلة، ولا يكون في وقوفه ذلك مبتدعًا أو ضالًا أو مشركًا، وقد نص العلماء على هذا الأمر، بل قد ذهب بعضهم إلى القول بالاستحباب.

والأصل في هذا الباب هو ما جاء عن الإمام مالك بن أنس لما ناظره أبو جعفر المنصور في المسجد النبوي، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين! لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله تعالى أدّب قومًا فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات: ٢]. ومدح قومًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٣]. وذم قومًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ [الحجرات: ٤]. وإن حرمته ميتًا كحرمته حيًّا، فاستكان لها أبو جعفر وقال: يا أبا عبد الله! أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: ٦٤].

وهذه القصة رواها القاضي عياض بسنده في كتابه المعروف بـ«الشفا في التعريف بحقوق المصطفى» في باب من أبواب الزيارة، وقد صرح كثير من العلماء بهذا.

قال الشيخ ابن تيمية: «قال ابن وهب فيما يرويه عن مالك: إذا سلم على النبي ﷺ يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة ويدنو ويسلم ويدعو ولا يمس القبر بيده»[(١)].

(١) ابن تيمية؛ «اقتضاء الصراط المستقيم»، ص٣٩٣.

وصرح النووي رحمه الله كذلك في كتابه المعروف بـ«الأذكار» في أبواب الزيارة، وكذلك في «الإيضاح» في (باب الزيارة)، وكذلك في «المجموع»[١].

قال الخفاجي شارح «الشفا»: «قال السبكي: صرح أصحابنا بأنه يستحب أن يأتي القبر ويستقبله ويستدبر القبلة ثم يسلم على النبي ﷺ ثم على الشيخين ثم يرجع إلى موقفه الأول ويقف فيدعو»[٢].

راي الشيخ ابن تيمية

قال الشيخ ابن تيمية بعد نقل أقوال العلماء في هذا الموضوع: «فاتفقوا في استقبال القبلة وتنازعوا في تولية القبر ظهره وقت الدعاء».

هذه خلاصة ما يراه الشيخ ابن تيمية في هذا الموضوع، وهو يدل دلالة واضحة على أنَّ من وقف أمام القبر يدعو الله تعالى ويسأله من فضله كما شُرع؛ هو على أساس متين معتبر مؤيد بأقوال أئمة من السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، ولو تأمل المُنْصِفُ العاقل قول الشيخ ابن تيمية: «وتنازعوا في تولية القبر ظهره وقت الدعاء»، لفهم منه ما يطمئن قلبه ويقر عينه ويبشره وهو أنَّ هؤلاء الذين يقفون بعد السلام على الرسول ﷺ للدعاء عند قبره ما زالوا على التوحيد، ومن أهل الإيمان؛ وأنَّ هذه المسألة مُتَنَازعٌ فيها بين السلف والكلام مختلف بينهم بين الاستحباب وغيره، فهل يصل الحال إلى القول بالشرك والضلال؟ سبحانك هذا بهتان عظيم!

تحليل كلام الشيخ ابن تيمية:

والمفهوم من كلام الشيخ ابن تيمية هو: أنَّ المنهي عنه حقيقة هو تحري الدعاء عند القبور، أو قصد القبور للدعاء عندها ورجاء الإجابة بالدعاء هناك، أو يستشعر أنَّ الدعاء عند القبر أجوب من غيره، أما أن يدعو الله تعالى في طريقه ويتفق أن يمر بالقبور فيدعو عندها، أو أن يزور قبرًا فَيُسلِّمَ على صاحبه ثم يدعو في مكانه ذلك، فلا يلزمه أن يتحول إلى القبلة، ولا يقال في حقه: إنه مشرك أو مبتدع.

وإليك نصوص كلام الشيخ في هذا الموضوع. قال في «اقتضاء الصراط

---

(١) النووي؛ «المجموع» ٨: ٢٧٢.
(٢) الخفاجي؛ «شرح الشفا» ٣: ٣٩٨.

المستقيم»[١]: «فمما يدخل في هذا: قصد القبور للدعاء عندها أو لها، فإنَّ الدعاء عند القبور وغيرها من الأماكن ينقسم إلى نوعين:

أحدهما: أن يحصل الدعاء في البقعة بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها، كمن يدعو الله تعالى في طريقه ويتفق أن يمر بالقبور، أو من يزورها فيسلم عليها ويسأل الله العافية له وللموتى كما جاءت به السُّنة، فهذا ونحوه لا بأس به.

الثاني: أن يَتَحرّىٰ الدعاء عندها بحيث يستشعر أنَّ الدعاء هناك أجوب منه في غيره، فهذا النوع منهي عنه؛ إما نهي تحريم أو تنزيه، وهو إلى التحريم أقرب، والفرق بين البابين ظاهر.

ولو تَحرّىٰ الدعاء عند صنم أو صليب أو كنيسة يرجو الإجابة بالدعاء في تلك البقعة؛ لكان هذا من العظائم، بل لو قصد بيتًا أو حانوتًا في السوق، أو بعض عواميد الطرقات يدعو عندها يرجو الإجابة بالدعاء عندها؛ لكان هذا من المنكرات المحرمة؛ إذ ليس للدعاء عندها فضل.

فقصد القبور للدعاء عندها من هذا الباب، بل هو أشد من بعضه؛ لأنَّ النبي ﷺ نهى عن اتخاذها مساجد، وعن اتخاذها عيدًا، وعن الصلاة عندها بخلاف كثير من هذه المواضع».

ثم قال: «إنَّ قصد القبور للدعاء عندها ورجاء الإجابة بالدعاء هناك رجاءً أكثر من رجائها بالدعاء في غير ذلك الموطن؛ أَمرٌ لم يشرعه الله ولا رسوله ﷺ، ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أئمة المسلمين، ولا ذكره أحد من العلماء الصالحين المتقدمين»[٢].

ثم قال: «ومن تأمل كتب الآثار وعرف حال السلف؛ تيقن قطعًا أنَّ القوم ما كانوا يستغيثون عند القبور ولا يتحرون الدعاء عندها أصلًا، بل كانوا ينهون عن ذلك من يفعله من جهالهم كما ذكرنا بعضه»[٣]. اهـ.

(١) ابن تيمية؛ «اقتضاء الصراط المستقيم» ص٣٣٦.
(٢) ابن تيمية؛ «اقتضاء الصراط المستقيم» ص٣٣٨.
(٣) ابن تيمية؛ «اقتضاء الصراط المستقيم» ص٣٣٩.

رأي الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الدعاء عند القبر
«الدعاء عند القبر ليس بدعة ولا شركًا»

سئل الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن قولهم في الاستسقاء: (لا بأس بالتوسل بالصالحين) وقول أحمد: (يتوسل بالنبي ﷺ خاصة)، مع قولهم: (إنه لا يستغاث بمخلوق).

فقال: «فالفرق ظاهر جدًّا، وليس الكلام مما نحن فيه، فكون بعضهم يرخص بالتوسل بالصالحين وبعضهم يخصه بالنبي ﷺ، وأكثر العلماء ينهى عن ذلك ويكرهه، فهذه المسألة من مسائل الفقه، وإن كان الصواب عندنا قول الجمهور: إنه مكروه، فلا ننكر على من فعله، ولا إنكار في مسائل الاجتهاد، لكن إنكارنا على من دعا لمخلوق أعظم مما يدعو الله تعالى ويقصد القبر يتضرع عند ضريح الشيخ عبد القادر أو غيره، يطلب فيه تفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإعطاء الرغبات، فأين هذا ممن يدعو الله مخلصًا له الدين لا يدعو مع الله أحدًا، ولكن يقول في دعائه: أسألك بنبيك أو بالمرسلين أو بعبادك الصالحين، أو يقصد قبر معروف أو غيره يدعو عنده لكن لا يدعو إلَّا الله مخلصًا له الدين، فأين هذا مما نحن فيه؟!»[1].

القبر النبوي
والتبرك بالتمسُّح به، أو الشُّبّاك وتَقْبِيله

اعلم أنه ينبغي للزائر أن لا يُقَبِّلَ القبر الشريف، ولا يمسحه بيديه، ولا يلصق بطنه وظهره بجداره، أو بالحاجز المستور بالكسوة أو الشباك؛ فإنَّ كل ذلك مكروه، لما فيه من استعمال خلاف الأدب في حضرته ﷺ، وقصد التبرك لا ينفي الكراهة؛ لأنه جَهلٌ بما يليق من الأدب، ولا اغترار بما يفعله أكثر العوام، فإنَّ الصواب الذي قاله العلماء وأطبقوا عليه خلافه كما صرح به النووي في «إيضاحه».

---

(١) ابن عبد الوهاب؛ فتاوى الشيخ الإمام ابن عبد الوهاب في مجموع المؤلفات، (القسم الثالث)، ص٦٨ (نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله).

وأطال ابن حجر في «المنح» و«الجوهر» في ترجيحه، قال في «الإحياء»: «مس المشاهد وتقبيلها عادة اليهود والنصارى». اهـ.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله ما معناه: «اتبع طرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين.

وقال النووي: ومن خطر بباله أنَّ المسح باليد ونحوه أبلغ في البركة، فهو من جهالته وغفلته؛ لأنَّ البركة إنما هي فيما وافق الشرع، وكيف ينبغي الفضل في مخالفة الصواب؟!». اهـ[1].

رأي الإمام أحمد بن حنبل

وقد جاءت روايات عن الإمام أحمد في هذا الموضوع؛ بعضها يفيد جواز ذلك وبعضها يفيد التوقف في الحكم، وبعضها يفيد التفريق بين المنبر النبوي وبين القبر، وذلك بجواز الأول والتوقف في الثاني أو الإباحة. ومهما كان ذلك الاختلاف؛ فإنه لا يصل الحال بالحكم على فاعله بالكفر أو الضلال أو الخروج عن الملة أو الابتداع في الدين، غاية ما في الأمر أنه فعل ما هو مُختلَفٌ فيه، أو ما هو مكروه، والمقصود هو ألَّا يتخذ ذلك عادة حتى يغتر به العوام ويظنونه من مستلزمات الزيارة وآدابها، وإليك كلام الإمام أحمد:

قال في «خلاصة الوفا» ما نصه: وفي كتاب «العلل والسؤالات» لعبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: سألت أبي عن الرجل يمس قبر النبي ﷺ يتبرك بمسه وتقبيله، ويفعل بالمنبر مثل ذلك رجاء ثواب الله تعالى، فقال: لا بأس به.

قال أبو بكر الأثرم: قلت لأبي عبد الله ـ يعني أحمد بن حنبل ـ: قبر النبي ﷺ يمس ويتمسح به؟ فقال: ما أعرف هذا، قلت له: فالمنبر؟ فقال: أما المنبر فنعم، قد جاء فيه، قال أبو عبد الله: شيء يَرْوُونه عن ابن أبي فُديك، عن ابن أبي ذئب، عن ابن عمر «أنه مسح على المنبر» قال: ويروُونه عن سعيد بن المسيب في الرمانة، قلت: ويروُون عن يحيى بن سعيد: أنه حين أراد الخروج إلى العراق جاء إلى المنبر فمسحه ودعا فرأيته استحسنه، ثم قال: لعله عند

(١) النووي؛ «المجموع» ٨: ٢٧٥.

الضرورة لا شيء فيه، قيل لأبي عبد الله: إنهم يلصقون بطونهم بجدار القبر، وقلت له: رأيت أهل العلم من أهل المدينة لا يمسونه ويقومون ناحية فيسلمون، فقال أبو عبد الله: نعم، وهكذا كان ابن عمر يفعل، ثم قال أبو عبد الله: بأبي هو وأمي ﷺ.

قال الشيخ ابن تيمية: فقد رخّص أحمد وغيره في التمسح بالمنبر والرمانة التي هي موضع مقعد النبي ﷺ ويده، ولم يرخصوا في التمسح بقبره، وقد حكى بعض أصحابنا رواية في مسح قبره؛ لأنَّ أحمد شيّع بعض الموتى فوضع يده على قبره يدعو له، والفرق بين الموضعين ظاهر»[١]. اهـ.

القبر النبوي مَحفُوظٌ من الشِّرك والوَثَنية

وقد حفظ الله تعالى هذا القبر الشريف بالحبيب الأعظم والنبي الأكرم، فلا يقع عنده شرك ولا شيء من أنواع العبادة التي لا يجوز صرفها إلَّا لله، ولا يقع في ذهن أحد أنه وثن يعبد، أو قِبلَةٌ يتوجه إليها بالعبادة، وذلك ببركة دعوة رسول الله ﷺ حيث دعا بذلك، فاستجاب الله دعاءه وحقق مطلوبه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«وفي «موطأ» مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**.

وقد استجاب الله دعوته فلم يُتخذْ ـ ولله الحمد ـ وثنًا كما اتخذ قبر غيره، بل ولا يَتمكَّنُ أحد من الدخول إلى حجرته بعد أن بنيت الحجرة، وقبل ذلك ما كانوا يُمَكّنُونَ أحدًا من أن يدخل إليه ليدعو عنده، ولا يُصَلّىٰ عنده ولا غير ذلك مما يفعل عند قبر غيره، لكن من الجهال من يصلي إلى حجرته أو يرفع صوته أو يتكلم بكلام منهي عنه، وهذا إنما يفعل خارجًا عن حجرته لا عند قبره، وإلَّا فهو ولله الحمد استجاب الله دعوته فلم يمكن أحد قط أن يدخل إلى قبره فيصلي عنده، أو يدعو أو يشرك به كما فعل بغيره اتخذ قبره وثنًا، فإنه في حياة عائشة رضي الله عنها ما كان أحد يدخل إلَّا لأجلها، ولم تكن تُمَكِّنْ أحدًا أن يفعل

(١) ابن تيمية؛ «اقتضاء الصراط المستقيم» ص٣٦٧، ونقله ابن مفلح عن الإمام أحمد في «الفروع» ٣: ٥٢٤.

عند قبره شيئًا مما نُهي عنه، وبعدها كانت مغلقة إلى أن أدخلت في المسجد فسدّ بابها وبني عليها حائط آخر، كل ذلك صيانة له أن يتخذ بيته عيدًا وقبره وثنًا، وإلَّا فمعلوم أنَّ أهل المدينة كلهم مسلمون ولا يأتي إلى ما هناك إلَّا مسلم، وكلهم معظمون للرسول ﷺ وقبور آحاد أمته في البلاد معظمة، فما فعلوا ذلك ليستهان بالقبر المكرم، بل فعلوه لئلا يتخذ وثنًا يعبد، ولا يتخذ بيته عيدًا، ولئلا يفعل به كما فعل أهل الكتاب بقبور أنبيائهم، والقبر المكرم في الحجرة إنما عليه بطحاء؛ وهو الرمل الغليظ ليس عليه حجارة ولا خشب، ولا هو مُطَينٌ كما فعل بقبور غيره، وهو ﷺ إنما نهى عن ذلك سدًّا للذريعة؛ كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها؛ لئلا يفضي ذلك إلى الشرك، ودعا الله عز وجل أن لا يُتخذ قبره وثنًا يُعبد، فاستجاب الله دعاءه ﷺ، فلم يكن مثل الذين اتخذت قبورهم مساجد، فإنَّ أحدًا لا يدخل عند قبره البتة، فإنَّ من كان قبله من الأنبياء إذا ابتدع أُممُهم بدعة بعث الله نبيًّا ينهى عنها، وهو ﷺ خاتم الأنبياء لا نبي بعده فعصم الله أمته أن تجتمع على ضلالة، وعصم قبره المكرم أن يتخذ وثنًا، فإنَّ ذلك والعياذ بالله لو فُعِلَ لم يكن بعده نبي ينهى عن ذلك، وكان الذين يفعلون ذلك قد غلبوا الأمة وهو ﷺ قد أخبر أنه لا تزال طائفة من أمته ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى يوم القيامة، فلم يكن لأهل البدع سبيل أن يفعلوا بقبره المكرم كما فعل بقبور غيره ﷺ»[(١)] . اهـ.

التَّرَدُّدُ على الآثار النبوية والمشاهد الدينية والتبرك بزيارتها

كتب في هذا الموضوع الشيخ ابن تيمية كلامًا نفيسًا جدًا، ونحن ننقل منه هذه الفوائد المهمة.

فأما مقامات الأنبياء والصالحين وهي الأمكنة التي قاموا فيها أو أقاموا أو عبدوا الله سبحانه وتعالى فيها لكنهم لم يتخذوها مساجد، فالذي بلغني في ذلك قولان عن العلماء المشهورين:

أحدهما: النهي عن ذلك وكراهته، وأنه لا يستحب قصد بقعة للعبادة إلَّا أن يكون قصدها للعبادة مما جاء به الشرع، مثل أن يكون النبي ﷺ قصدها للعبادة؛ كما قصد الصلاة في مقام إبراهيم، وكما كان يَتحرّىٰ الصلاة عند

---

(١) ابن تيمية؛ «الجواب الباهر في زوار المقابر» ص١٣.

الأسطوانة، وكما يقصد المساجد للصلاة ويقصد الصف الأول ونحو ذلك.

والقول الثاني: أنه لا بأس باليسير من ذلك كما نقل عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أنه كان يتحرى قصد المواضع التي سلكها النبي ﷺ، وإن كان النبي ﷺ قد سلكها اتفاقًا لا قصدًا».

قال السندي الخواتيمي: سألنا أبا عبد الله عن الرجل يأتي هذه المشاهد ويذهب إليها، ترى ذلك؟ قال: أما على حديث ابن أم مكتوم أنه سأل النبي ﷺ أن يصلي في بيته حتى يتخذ ذلك مُصَلّىٰ، وعلى ما كان يفعله ابن عمر يتتبع مواضع النبي ﷺ وأثره؛ فليس بذلك بأس أن يأتي الرجل المشاهد، إلا أن الناس قد أفرطوا في هذا جدًّا وأكثروا فيه.

وكذلك نقل عنه أحمد بن القاسم: أنه سئل عن الرجل يأتي هذه المشاهد التي بالمدينة المنورة وغيرها يذهب إليها؟ فقال: أما على حديث ابن أم مكتوم: «أنه سأل النبي ﷺ: أن يأتيه فيصلي في بيته حتى يتخذه مسجدًا»، وعلى ما كان يفعل ابن عمر؛ كان يتتبع مواضع سير النبي ﷺ حتى رُئيَ أنه يصب في موضع ماء، فسئل عن ذلك، فقال: «كان النبي ﷺ يصب ههنا ماء». قال: أما على هذا فلا بأس. قال: وَرَخّصَ فيه، ثم قال: ولكن قد أفرط الناس جدًا وأكثروا في هذا المعنى، فذكر قبر الحسين وما يفعل الناس عنده رواهما الخلال في كتاب الأدب.

قال الشيخ ابن تيمية: فقد فصَّل أبو عبد الله في المشاهد ـ وهي الأمكنة التي فيها آثار الأنبياء والصالحين من غير أن تكون مساجد لهم كمواضع بالمدينة ـ بين القليل الذي لا يتخذونه عيدًا والكثير الذي يتخذونه عيدًا كما تقدم.

وهذا التفصيل جمع فيه بين الآثار وأقوال الصحابة؛ فإنه قد رَوىٰ البخاري في «صحيحه» عن موسى بن عقبة، قال: رأيت سالم بن عبد الله يَتحرّىٰ أماكن من الطريق ويصلي فيها، وَيحدِّثُ أنَّ أباه كان يصلي فيها وأنه رأى النبي ﷺ يصلي في تلك الأمكنة، قال موسى: وحدثني نافع أنَّ ابن عمر رضي الله عنهما كان يصلي في تلك الأمكنة.

فهذا ما رَخّصَ فيه أحمد رضي الله عنه.

وأما ما كرهه فروى سعيد بن منصور في «سننه»: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المعرور بن سويد، عن عمر رضي الله عنه، قال: خرجنا معه في حجة حجها فقرأ بنا في الفجر بـ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ

ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: ١]، و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ [قريش: ١] في الثانية، فلما رجع من حَجّتِهِ رأى الناس ابتدروا المسجد فقال: ما هذا؟ قالوا: مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ، فقال: «هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم، اتخذوا آثار أنبيائهم بيعًا، من عرضت له منكم الصلاة فيه فليصل ومن لم تعرض له الصلاة فليمض».

فقد كره عمر رضي الله عنه اتخاذ مصلى النبي ﷺ عيدًا، وبيّن أن أهل الكتاب إنما هلكوا بمثل هذا.

قال الشيخ ابن تيمية: «قد اختلف العلماء رضي الله عنهم في إتيان تلك المشاهد.

فقال محمد بن وضاح: كان مالك وغيره من علماء المدينة يكرهون إتيان تلك المساجد وتلك الآثار التي بالمدينة ما عدا قباء وأُحُدًا، ودخل سفيان الثوري بيت المقدس وَصلّىٰ فيه، ولم يتتبع تلك الآثار ولا الصلاة فيها.

فهؤلاء كرهوها مطلقًا لحديث عمر رضي الله عنه هذا، ولأن ذلك يشبه الصلاة عند المقابر؛ إذ هو ذريعة إلى اتخاذها أعيادًا وإلى التشبه بأهل الكتاب، ولأن ما فعله ابن عمر لم يوافقه عليه أحد من الصحابة، فلم ينقل عن الخلفاء الراشدين ولا عن غيرهم من المهاجرين والأنصار؛ أنَّ أحدًا منهم كان يتحرى قصد الأمكنة التي نزلها النبي ﷺ»[1].

ثم قال: «واستحب آخرون من العلماء المتأخرين إتيانها، وذكر طائفة من المصنفين من أصحابنا وغيرهم في المناسك استحباب زيارة هذه المشاهد وعدوا منها مواضع وسموها.

وأما أحمد: فَرخّص منها فيما جاء به الأثر من ذلك، إلَّا إذا اتخذت عيدًا؛ مثل أن تنتاب لذلك ويجتمع عندها في وقت معلوم، كما يرخص في

---

(١) في هذا غاية الإنصاف من مؤلف المفاهيم حيث نقل كلام العلماء بأمانة في هذا الموضوع وبين قول من يجيز وقول من لا يجيز، ويبقى بعد ذلك الترجيح والنظر حسب الاجتهاد، ولكن بعض المنتقدين أغمضوا عيونهم عن هذا الإنصاف، وهذه النقول، وصاروا يبدلون الكلام عن مواضعه ليوهموا الناس أن المؤلف أهملها وتجاهلها لغرض تأييد رأيه الذي جرى عليه هو وجمهور الأمة من المتبركين بسيد المرسلين ﷺ وآثاره ومشاهده، وهذا مع الأسف الشديد انحياز عن سنن الحق يجافي الأمانة العلمية.

صلاة النساء في المساجد جماعات وإن كانت بيوتهن خيرًا لهن إلَّا إذا تبرجن، وجمع بذلك بين الآثار واحتج بحديث ابن أم مكتوم»[١]. اهـ.

والحاصل الظاهر من كلام الإمام أحمد: أنه يجيز التردد على الآثار والمشاهد والأماكن المنسوبة إلى الأنبياء والصالحين، ويرى أنّ تَتَبُّع ذلك والاعتناء به له أصل في السنة النبوية، وهو ليس ببدعة ولا ضلالة، فضلًا عن أن يكون شركًا أو كفرًا، لكنه انتقد الإفراط في ذلك والاشتغال به بصورة زائدة؛ هذه خلاصة رأيه رضي الله عنه.

أما الشيخ ابن تيمية فقد فهم من كلام أحمد التفصيل في هذا الأمر بين القليل والكثير، وفهم أنَّ الكثير من ذلك هو المكروه عند أحمد، وحكم عليه بأنه مكروه فقط، ولم يزد على القول بالكراهة شيئًا، وقد بين ابن تيمية القدر الكثير الذي يصير به هذا التردد والتتبع للآثار النبوية مكروهًا، وهو أن تتخذ تلك الأماكن والآثار عيدًا يجتمعون عندها ويحتفلون بها في أوقات مخصوصة.

ويفهم من كلام الشيخ ابن تيمية أيضًا: أنَّ الآثار والمشاهد التي ثبت أن الأنبياء اتخذوها مساجد أو صلوا فيها، فإنها خارجة عن هذا التفصيل، وينبني عليه أن الأماكن والآثار التي ثبت أنَّ الأنبياء صلوا فيها لها ميزة على غيرها وأنها تقصد للعبادة والصلاة، وهذا صريح كلامه حين قال في أول المبحث: «لكنهم لم يتخذوها مساجد»، وحين قال: «فقد فصّل أبو عبد الله في المشاهد ـ وهي الأمكنة التي فيها آثار الأنبياء والصالحين من غير أن تكون مساجد لهم كمواضع بالمدينة ـ بين القليل الذي لا يتخذونه عيدًا والكثير الذي يتخذونه عيدًا كما تقدم»[٢]. اهـ.

معنى العيد المنهي عنه في الحديث:

وقد حدد الشيخ ابن تيمية معنى العيد المنهي عنه في الحديث بقوله ﷺ: **«لا تتخذوا قبري عيدًا»**.

فقال: وفي الجملة، هذا الذي يفعل عند هذه القبور هو بعينه الذي نهى عنه رسول الله ﷺ بقوله: **«لا تتخذوا قبري عيدًا»**.

---

(١) ابن تيمية؛ «اقتضاء الصراط المستقيم» ص٣٨٧.

(٢) ابن تيمية؛ «اقتضاء الصراط المستقيم» ص٣٨٥.

فإنَّ اعتياد قصد المكان المعين في وقت معين عائدًا بعَودِ السَّنة أو الشهر أو الأسبوع هو بعينه معنى العيد، ثم ينهى عن دِق ذلك وجِله، وهذا هو الذي تقدم عن الإمام أحمد إنكاره؛ قال: وقد أفرط الناس في هذا جدًّا وأكثروا، وذكر ما يفعل عند قبر الحسين.

وقال في موضع آخر: «فأما اتخاذ قبورهم أعيادًا فهو مما حرمه الله ورسوله ﷺ، واعتياد قصد هذه القبور في وقت معين، والاجتماع العام عندها في وقت معين هو اتخاذها عيدًا كما تقدم، ولا أعلم بين المسلمين من أهل العلم في ذلك خلافًا، ولا يغتر بكثرة العادات الفاسدة؛ فإن هذا من التشبه بأهل الكتابين الذي أخبرنا النبي ﷺ أنه كائن في هذه الأمة»[١].

عَقِيدةُ المُؤَلِّف

وهذا الذي ذكره الشيخ ابن تيمية هو عين ما نعتقده في هذا الموضوع بفضل الله سبحانه وتعالى، وهو ما ندعو إليه ونَحُثُ الناس عليه في كل مجال وفي كل مناسبة. إننا ننهاهم أن يتخذوا قبر النبي ﷺ أو الآثار والمشاهد عيدًا، وننهاهم أن يَخُصّوها بشيء من أنواع العبادات التي لا يجوز صرفها إلَّا لله سبحانه وتعالى، وننهاهم أن يخصصوا لها يومًا يجتمعون فيه ويحتفلون به. **هذا ما نعتقده وندين الله به.** لا من اليوم ولا من الأمس؛ بل خلف عن سلف وأبناء عن آباء، بفضل الله سبحانه وتعالى.

فالواجب علينا أن نلاحظ بعين الاعتبار هذه الأقوال والتحليلات العلمية الدقيقة التي تدل على حسن الفهم في تذوق العلم، وأن لا نبادر إلى تكفير المسلمين، أو الحكم عليهم بالضلال والبدعة لمجرد تتبعهم للآثار النبوية واهتمامهم بالمقامات والمشاهد والأماكن المنسوبة إلى الأنبياء والصالحين، وأن نُحسِنَ الظن بهم، وأن نعلم أنَّ المقصود الأصلي هو الله سبحانه وتعالى. وهذه كلها أسباب ووسائل تزيد في النفس الإيمان والاعتبار والادِّكار والارتباط بأصحابها وتاريخهم، وهم القدوة الحسنة للبشر مع ما في ذلك من التعرض للنفحات والبركات المتنزلة في أماكن الخير ومواطن الهدى؛ لأنَّ الأماكن التي

(١) ابن تيمية؛ «اقتضاء الصراط المستقيم» ص٣٧٧.

كانت معمورة بأهل الخير والصلاح لا تزال هي محل الرضا والرضوان، والأماكن التي كانت معمورة بأهل الشر والفساد، هي محل السخط والغضب، ولذلك أمر ﷺ أصحابه أن لا يدخلوا ديار ثمود إلَّا وهم باكون، وأن لا يشربوا من مائها، بل أمرهم أن يهريقوا ما أخذوه، وأن لا يأكلوا ما طبخوه به، وكذلك أمرهم بالإسراع في المشي إذا دخلوا وادي محسر المعروف بوادي النار.

وقد فصلنا هذا الموضوع بعينه في مبحث خاص بالتبرك بالآثار النبوية.

الاعتناء بالآثار والمشاهد

المحافظة على الآثار النبوية أصل عظيم وتراث كريم وتاريخ؛ إنه تاريخ الأمة الذي تفخر به، والذي يظهر به شرفها وشرف رجالها وأئمتها الذين بنوا مجدها وأقاموا عزها وصنعوا منها أمة قائدة رائدة في كل مجال، ولذلك فإنَّ إهمال هذه الآثار إهدار لشواهد الحضارة الإسلامية الواقعية، ومَسخٌ لأصول طبيعية باقية من تراثنا الإسلامي، وجناية على أعز ما تملكه الأمة في هذا المجال، إنه هو وصمة في الجبين، وقذاة في العين يعكر صفو الرؤية ويشوه الصورة، ويفوت علينا خيرًا عظيمًا لا يُعوَّض ولا يدرَك؛ لأنه ستتغير معالمها وتنطمس رسومها، ثم لا يبقى منها شيء، ثم لا يبقى من يعرف منها شيئًا.

فإن قيل: إنَّ بعض الناس يتخذها عيدًا ويشرك بالله عندها؛ بعبادتها دون الله أو بالطواف حولها، وربط الحبال وإلقاء الأوراق أو الذبح لها.

فنقول: إنَّ ذلك كله لا نرضاه ولا نوافق عليه، بل وننهى عنه ونحذر الناس منه، وهو من الجهل الذي يجب محاربته؛ لأنَّ هؤلاء يؤمنون بالله ويقرون له بالتوحيد ويشهدون أنه لا إله إلَّا هو، ولكنهم يخطئون العمل ويجهلون الصواب، فالواجب تعليمهم وإرشادهم، ولكن ذلك كله لا يدعو إلى إهمالها أو إزالتها ومحوها من الوجود، والاعتذار بتلك الحجج اعتذار بارد وتعليل عليل ليس بمقبول عند العلماء والعقلاء؛ إذ يمكن إزالة تلك العوارض إذا وجدت بالمنع والمراقبة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والخلق الحسن، مع بقاء آثارنا والمحافظة عليها والاعتناء بها حفظًا لأصالة الأمة ووفاء للتاريخ، وأداء للأمانة التي في أعناقنا، والتي هي جزء أصيل من تاريخها المجيد

وتاريخ نبينا محمد ﷺ، والمفكرون اليوم يحافظون على آثار بائدة لأمم ملعونة مسخوطة معذبة ممن سبقنا؛ كقوم ثمود وعاد، فهل يصح أن نحافظ على تلك الآثار ونعتني بها ونجاهد في سبيل بقائها، ونضيع آثار أشرف خلق الله الذي تشرفت به البلاد والعباد، وأعز الله به الأمة ورفعها وجعل لها المكانة العالية والرتبة السامية التي ما نالها نائل ولا وصل إليها واصل إلا بسبب الانتماء إلى الحظ السعيد والمجد التليد محمد بن عبد الله ﷺ.

اعتناء القرآن بآثار الأنبياء السابقين

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز قصة تابوت بني إسرائيل الذي جعله علامة صحةِ مُلكِ طالوت عليهم فقال:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: ٢٤٨].

هذا التابوت شأنه عظيم ومقامه كريم، وكان عندهم يقدمونه بين أيديهم في حروبهم، فيحصل لهم النصر ببركة التوسل إلى الله تعالى به وبما فيه، فلا يقاتلون أحدًا من أعدائهم إلَّا ويكون معهم هذا التابوت، وقد أخبر الله تعالى في الآية عن محتوياته بأنه فيه سكينة إلهية، وآثار نبوية وهي التي قال عنها: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، وهذه البقية من تركة آل هارون هي: عصا موسى، وعصا هارون وثيابه، والنعلان ولوحان من التوراة[١]. وفيه أيضًا طست من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء[٢]. انتهى.

وبسبب هذه الآثار العظيمة المنسوبة إلى أولئك المصطَفَين الأخيار من عباد الله عظم الله قدر هذا التابوت، ورفع شأنه وحفظه ورعاه برعايته الخاصة لما غُلبوا بسبب معاصيهم ومخالفتهم؛ إذ لم تتحقق أهليتهم للاحتفاظ به، فعاقبهم الله تعالى بأخذه وسلبه منهم، ثم حفظه الله تعالى ثم رده إليهم ليكون علامة على صحة ملك طالوت عليهم، وقد رده إليهم بالتعزيز والتكريم والتقدير إذ جاءت به الملائكة تحمله إليهم.

---

(١) ابن كثير؛ «تفسير القرآن العظيم» ١:٣١٣.

(٢) ابن كثير؛ «البداية والنهاية» ٢:٨.

فأي عناية أعظم من هذه العناية بالآثار والاهتمام بها والمحافظة عليها وتنبيه العقول والأفهام إلى أهمية ذلك الأمر وجلالته وقيمته التاريخية والدينية والحضارية؟!

عناية المصطفى صلى الله عليه وسلم بآثار الأنبياء السابقين وإرشاده إلى الاهتمام بها

وعناية النبي صلى الله عليه وسلم بالآثار المباركة السابقة التي هي مواطن الرحمات ومنازل البركات ومهابط الوحي وموالد الأنبياء، عنايته صلى الله عليه وسلم بذلك ظاهرة ومشهورة، ولنا في ذلك رسالة خاصة ستظهر إن شاء الله تعالىٰ في وقت لاحق، ونكتفي هنا بذكر هذا النَّص:

رَوىٰ مالك في «الموطأ» عن محمد بن عمرو بن حَلحلة الديلي، عن محمد ابن عمران الأنصاري، عن أبيه أنه قال: عَدل إليَّ عبد الله بن عمر وأنا نازل تحت شجرة بطريق مكة، فقال: ما أنزلكَ تحت هذه الشجرة؟ فقلت: أنزلني ظلها، فقال: هل غير ذلك؟ فقلت: لا، ما أنزلني غير ذلك، فقال عبد الله بن عمر: قال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلم: **«إذا كنت بين الأخشبين من مِنىً ـ ونفخ بيده نحو المشرق ـ فإنَّ هنالك واديًا يقال له: السُّرَرُ، به سَرحةٌ سُرَّ تحتها سبعون نبيًّا»** قال مالك: **«سُرَّ ـ يعني قطعت سُرَرُهم حين ولدوا ـ»**[1].

قال الزُّرقاني: (به سَرحةٌ سُرَّ تحتها سبعون نبيًّا) أي: ولدوا تحتها فقطع سُرّهم ـ بالضم ـ وهو ما تقطعه القَابِلةُ من سُرّة الصّبي كما في «النهاية» وغيرها، فقول السيوطي: أي: قُطعت سُرّتهم إذ ولدوا تحتها مَجازٌ، سمّىٰ السُرّ سُرّة لعلاقة المجاورة.

وقال مالك: **«بُشِّروا تحتها بما يَسُرّهم»**.

قال ابن حبيب: «فهو من السرور، أي: تنبؤا تحتها واحدًا بعد واحد،

---

(١) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (كتاب الحج، باب جامع الحج، ١: ٤٢٤) وابن حبان في «صحيحه» (الإحسان ٨: ٤٧ حـ ٦٢١١)، والنسائي (كتاب الحج)، «باب ما ذكر في منى»، ٥: ٢٤٩ حـ٢٩٩٥ وأحمد في «المسند» ٢: ١٣٨ حـ٦٢٣٣، والبيهقي في «السنن الكبرى» (كتاب الحج)، «باب النزول بمنى»، ٥: ١٣٩ حـ٩٦١٠.

فَسَّرُوا بذلك وبه أقول، وفيه التّبرك بمواضع النبيين»[١].

وقال ابن عبد البر: «وفي هذا الحديث دَليلٌ على التّبرك بمواضع الأنبياء والصالحين ومقاماتهم ومساكنهم، وإلى هذا قصد عبد الله بن عمر بحديثه هذا، والله أعلم؟»[٢].

محافظة الخلفاء الراشدين على خاتم النبي ﷺ

روى الإمام البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: **«اتخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاتمًا من وَرِق، وكان في يده، ثم كان بعد في يد أبي بكر، ثم كان بعد في يد عمر، ثم كان بعد في يد عثمان، حتى وقع بعد في بئر أريس، نَقْشه: محمد رسول الله»**[٣].

قال الحافظ ابن حجر: «جاء في رواية النسائي: **«أنه التمس فلم يوجد»**. وجاء في رواية ابن سعد: **«أنه كان في يد عثمان ست سنين»**». اهـ[٤].

قال العيني: «وبئر أريس حديقة بقرب مسجد قباء»[٥]. اهـ.

قُلْتُ: وهذه البئر صارت معروفة اليوم ببئر الخاتم؛ وهو خاتم رسول الله ﷺ الذي سقط فيها أيام خلافة عثمان، وقد اجتهد ثلاثة أيام في استخراجه بكل ما وجد سبيلًا فلم يلقه[٦].

محافظة الخلفاء الراشدين على حَرْبةٍ كانت عند النبي ﷺ

روى الإمام البخاري بسنده إلى الزبير رضي الله تعالى عنه، قال: **«لقيت يوم بدر عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مُدَجَّج[٧] لا يرى منه إلَّا عيناه، وهو**

---

(١) شرح الزرقاني على «الموطأ» ٢: ٣٩٩.

(٢) «التمهيد» لابن عبد البر، ١٣: ٦٧.

(٣) رواه البخاري في «الصحيح»، في (كتاب اللباس)، «باب نقش الخاتم».

(٤) ابن حجر؛ «فتح الباري» ١٠: ٣١٣.

(٥) العيني؛ «عمدة القاري» ٢٢: ٣١.

(٦) انظر «المغانم المطابة في معالم طابة»، للفيروزآبادي، ٢: ٦١٢.

(٧) مدجج: بجيمين الأولىٰ ثقيلة ومفتوحة وقد تكسر، أي مغطىٰ بالسلاح ولا يظهر منه شيء.

يُكنىٰ أبا ذات الكرش، فقال: أنا أبو ذات الكرش. فحملت عليه بالعَنَزةِ[(١)] فطعنته في عينه فمات. قال هشام: فَأُخْبِرتُ أنَّ الزبير قال: لقد وضعت رجلي عليه ثم تمطأت فكان الجهد أنْ نزعتها وقد انثنى طرفاها، قال عروة: فسأله إياها رسول الله ﷺ فأعطاه، فلما قبض رسول الله ﷺ أخذها ثم طلبها أبو بكر فأعطاه، فلما قبض أبو بكر سألها إياه عمر، فأعطاه إياها، فلما قبض عمر أخذها، ثم طلبها عثمان منه فأعطاه إياها، فلما قتل عثمان وقعت عند آل عليّ[(٢)] فطلبها عبد الله بن الزبير فكانت عنده حتى قتل»[(٣)].

وحاصل القصة هو: أنَّ الزبير طعن عبيدة بن سعيد بن العاص يوم بدر في عينه بالعَنَزةِ فقتله، ثم طلب النبي ﷺ منه تلك العنزة فأعطاه، فلما قبض ﷺ أخذها الزبير، ثم طلبها أبو بكر من الزبير عارية فأعطاه وبقيت عنده إلى أن مات، ثم رجعت إلى الزبير صاحبها الأول، ثم طلبها عمر من الزبير فأعطاه وبقيت عنده مدة حياته، ثم رجعت إلى الزبير صاحبها الأول، ثم طلبها عثمان منه فأعطاه إياها، فلما قتل عثمان وقعت عند عليّ فطلبها عبد الله بن الزبير فكانت عنده حتى قتل[(٤)].

ونحن نتساءل: لماذا هذا الحرص العظيم والاهتمام بهذه الحربة والحراب كثيرة، ولعل هناك ما هو أحسن منها وأجود، وممن هذا الحرص؟ إنه من الخلفاء الأربعة الراشدين المهتدين أئمة الدين وأركان التوحيد وأمناء الدين!

محافظة عمر بن الخطاب على مِيزَابِ العباس لأنه وضعه ﷺ

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: كان للعباس ميزاب على طريق عمر رضي الله عنه، فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة وقد كان ذُبح للعباس فرخان، فلما وافى الميزاب صب فيه من دم الفرخين فأصاب عمر، فأمر عمر بقلعه، ثم رجع فطرح ثيابه ولبس غيرها، ثم جاء فصلى بالناس، فأتاه العباس

(١) العنزة: بفتح النون، هي كالحربة، وقال بعضهم: هي شبه العكاز.
(٢) عند آل علي: أي عند علي نفسه ثم عند أولاده.
(٣) رواه البخاري في (كتاب المغازي)، «باب شهود الملائكة بدرًا».
(٤) انظر «الفتح» ٧: ٣١٤، و«عمدة القاري» ١٧: ١٠٧.

فقال: والله إنه للموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ، فقال عمر للعباس: عزمت عليك لما صعدت على ظهري حتى تضعه في الموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ، ففعل ذلك العباس[١].

وقال الإمام أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة في كتابه «المغني»:

فصل: «ولا يجوز إخراج الميازيب إلى الطريق الأعظم ولا يجوز إخراجها إلى درب نافذ إلَّا بإذن أهله.

وقال أبو حنيفة ومالك والشافعي: يجوز إخراجها إلى الطريق؛ لأنَّ عمر رضي الله عنه اجتاز على دار العباس وقد نصب ميزابًا إلى الطريق فقلعه، فقال العباس: تقلعه وقد نصبه رسول الله ﷺ بيده؟ فقال: والله لا نصبته إلا على ظهري وانحنى حتى صعد على ظهره فنصبه»[٢]. اهـ.

ابن عمر لم يكن وحده مع الآثار

اشتهر ابن عمر رضي الله عنهما بتتبعه للآثار واعتنائه بها ومحافظته عليها، قال الشيخ ابن تيمية: «سئل الإمام أحمد بن حنبل عن الرجل يأتي هذه المشاهد، فأجاب وذكر في جوابه: أنَّ ابن عمر كان يتتبع مواضع سير النبي ﷺ حتى أنه رُئِيَ يصب في موضع ماء، فسئل عن ذلك، فقال: «كان النبي ﷺ يصب ههنا ماء».

وروى البخاري في «صحيحه» عن موسى بن عقبة، قال: رأيت سالم بن عبد الله يتحرى أماكن من الطريق ويصلي فيها وَيُحدِّثُ أنَّ أباه كان يصلي فيها، وأنه رأى النبي ﷺ يصلي في تلك الأمكنة، قال موسى: وحدثني نافع أن ابن عمر كان يصلي في تلك الأمكنة»[٣]. اهـ.

ولكن لم ينفرد ابن عمر بهذا الأمر، بل شاركه كثير من الصحابة رضي الله عنهم في التتبع للآثار والمحافظة عليها والاهتمام بها، وقد ذكرنا ما يؤيد هذا من قبل من فعل الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين الذين جعل النبي ﷺ فعلهم سنةً

---

(١) المتقي الهندي؛ «كنز العمال» ٧: ٦٦. (٢) ابن قدامة؛ «المغني» ٤: ٥٥٤.
(٣) ابن تيمية؛ «اقتضاء الصراط المستقيم»، ص٣٨٥.

متبعة مستمدة من سنته وهديه وأمر بالتمسك بها والرجوع إليها، ومعلوم أنَّ سنتهم هي سنته؛ لأنهم لا كلام ولا اجتهاد ولا نظر أمام كلامه الذي صح وثبت عنه ﷺ.

وذكرنا في مبحث التبرك بالآثار جملة صالحة من النصوص التي لها اتصال وثيق بهذا البحث، وبها ينجلي ويتضح كيف كان الصحابة رضي الله عنهم يتبركون بآثاره وفيهم ابن عمر وغيره. **والحَقُّ**: أنَّ هذا البحث وذاك متصلان ونابعان من أصل واحد؛ لأنَّ التبرك بالآثار هو فرع المحافظة عليها والاعتناء بها، إلَّا أنَّ الثانية ألصق بالتاريخ والحضارة الاجتماعية، والأولى أنسب للإيمان والمحبة والتعلق.

ابن عباس والآثار القديمة

لما أراد عبد الله بن الزبير هدم الكعبة، جمع الصحابة فاستشارهم في ذلك، فاقترح عليه ابن عباس أن لا يهدمها كلها، وأن يصلح المواضع التي تحتاج إلى إصلاح فقط ليبقى الصالح على ما هو عليه محافظة على الحجارة القديمة التي كانت في العهد الأول عهد الإسلام، عهد البعثة، عهد النبي ﷺ.

عن عطاء، قال: لما احترق البيت ـ زمن يزيد بن معاوية ـ حين غزاها أهل الشام فكان من أمره ما كان؛ تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد أن يجرئهم ـ أو يُحربهم ـ على أهل الشام. فلما صدر الناس قال: يا أيها الناس! أشيروا عليَّ في الكعبة، أنقضها ثم أبني بناءها أو أصلح ما وَهَىٰ منها؟، قال ابن عباس: فإني قد فُرق لي رأي فيها: أرى أن تصلح ما وَهَىٰ منها، وتدع بيتًا أسلمَ الناس عليه، وأحجارًا أسلم الناس عليها، وبُعث عليها النبي ﷺ[1].

غَيرةُ عمر على الآثار النبوية

ولقد كان سيدنا عمر رضي الله عنه شديد الغيرة على الآثار النبوية عظيم العناية بها والحماية لها، ولذلك لما رأى الناس مجتمعين على شجرة زعموا أنها شجرة الرضوان التي حصلت عندها بيعة الرضوان، وذكرها الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم»، ٩: ٩٢ ـ ٩٤.

١٨]؛ قطعها إذ كان رضي الله عنه يعرف حق المعرفة أن الشجرة غير معروفة ولا أحد يعلم مكانها فضلًا عن عينها، وأنَّ أصحابها الذين حضروها وشهدوها وبايعوا تحتها هم بأنفسهم لا يعرفونها فكيف بغيرهم، بل قد صرحوا بذلك؛ كما جاء في «الصحيحين» عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه جاء في العام التالي لعام بيعة الرضوان، قال: فبحثنا عن الشجرة، فلم يقع عليها رَجُلان.

قال المسيب والد سعيد رضي الله عنهما: لقد رأيت الشجرة ثم أُنْسِيتُها بَعدُ فلم أعرفها.

وقال طارق بن عبد الرحمن: انطلقت حاجًّا فمررت بقوم يصلون، فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها. فقال سعيد: إنّ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لم يعلموها وعلمتموها أنتم فأنتم أعلم؟، وفي رواية أنه قال: فعميت علينا(١).

أي لم يتفق رأي رجُلين على شجرة واحدة بالتعيين، فإذا كان هذا في خلال سنة واحدة في عهد واحد، ومع توافر وجود أصحاب الرضوان الذين حضروا عندها وبايعوا تحتها؛ فما بالك بشجرة ظهرت في زمن عمر رضي الله عنه بعد سنوات عديدة.

اختلف العهد ومات أكثر من حضر الموقف، واختلف الناس في تعيين الشجرة المباركة التي تشرفت بالبيعة المحمدية، وحصل عندها أعظم موقف من مواقف التضحية والجهاد اهتزت له السماوات والأرض، وشهدته الملائكة الكرام وسجله القرآن بقوله: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾ [الفتح: ١٨].

ثم كان عند هذه الشجرة المباركة الميمونة إعلان منقبة من أعظم مناقب وخصائص النبي الأعظم والرسول الأكرم ﷺ سجلها القرآن بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) انظر «صحيح البخاري» (كتاب المغازي)، «باب غزوة الحديبية»، و«صحيح مسلم» (كتاب الإمارة)، «باب استحباب متابعة الإمام».

يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

فعمر رضي الله عنه لم يقطع شجرة الرضوان حقيقة، وإنما قطع شجرة مزعومة موهومة يظن الناس أنها شجرة الرضوان، لأنَّ الله سبحانه تعالى أخفاها عليهم لحكمة يعلمها جلّ جلاله.

وَقطعُ عمر رضي الله عنه هذه الشجرة المزعومة غيرة على شجرة الرضوان الحقيقية المنسية، فلا يصح أن يقال: إنّ عمر رضي الله عنه قطع شجرة الرضوان ليمنع التبرك بالآثار لأنه لا يرىٰ ذلك، أو لأنه يراها وسيلة إلى الشرك، بل إنّ الحق والصواب أنّ ذلك المعنىٰ لم يقع في قلبه أصلًا ولم يخطر على باله أبدًا؛ بدليل أنه رضي الله عنه ثبت عنه التبرك وطلب التبرك بالآثار ونحوها؛ كطلبه من الزبير العَنَزَةَ التي كانت عند رسول الله ﷺ، ومحافظته على خاتم رسول الله ﷺ، وغير ذلك، وكان رسول الله ﷺ قد استعار تلك العنزة من الزبير كما في «البخاري» في «باب شهود الملائكة بدرًا»، من (المغازي).

الاهتمام بالنعال النبوية والقيام بدراسة علمية لها

ومن الآثار النبوية التي نالت اهتمام العلماء وعنايتهم النعال النبوية، بل حظيت بدراسة عميقة ودقيقة عن صفتها ومثالها ولونها، فكتبوا عنها البحوث المتخصصة وألفوا فيها الرسائل المستقلة.

والمقصود من ذلك كله هو صاحب النعال، ألا وهو النبي الأعظم والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

وإذا كنا نهتم بآثار العظماء وملابسهم وثيابهم ومتاعهم، ونبذل في تحصيلها الغالي والرخيص، ونقيم لها المتاحف الخاصة والخبراء المتخصصين، فإنه ﷺ ـ نَفْسِي له الفداء ـ أولى وأحق، فلو بذلت المُهَجُ وحرّ الأموال في سبيل ذلك؛ لكان رخيصًا لأجله صلى الله عليه وآله وسلم.

اهتمام المملكة بالآثار

ولقد وفّقَ الله حكومتنا السنية إلى العناية بالآثار عناية عظيمة، حرصًا على تراثنا المجيد، وحفظًا لمعالم الحضارة الإسلامية التاريخية، فجعلت لها دائرة

خاصة تعتني وتهتم بها تسمى «إدارة الآثار»، وأصدرت لها نظامًا خاصًا معتمدًا على المرسوم الملكي رقم م/٢٦، وتاريخ: ١٣٩٦/٢٣هـ[1].

وأنشأت مجلسًا خاصًا للنظر فيما يتعلق بهذا الموضوع يسمى «المجلس الأعلى للآثار»، وصدر قرار مجلس الوزارة رقم ٢٣٥ وتاريخ ١٣٩٨/٢/٢١هـ، بتكوين أعضائه برئاسة وزير المعارف وعضوية مندوبين عن الداخلية والمالية والحج والأوقاف والإعلام والآثار.

وبيّن النظام أنَّ الهدف من إنشاء المجلس الأعلى للآثار هو تجميع أكبر قدر من الخبرات لضمان وصول دائرة الآثار إلى غايتها المرجوة.

المحافظة على الآثار:

جاء في المادة (٦) من النظام: تتولى دائرة الآثار بالتعاون مع الأجهزة الأخرى في الدولة ـ كلٌّ في اختصاصه ـ المحافظة على الآثار والمواقع الأثرية، كما تتولى تقرير أثرية الأشياء والمباني التاريخية والمواقع وما يجب تسجيله من آثار، ويعني تسجيل كل أثر أقرت الدولة بأهميته التاريخية أو الفنية، وعملها على صيانته ودراسته وإظهاره بالمظهر اللائق وفقًا لأحكام هذا النظام.

المساجد وأماكن العبادة من أهم الآثار

وجاء في المادة (٧): الآثار نوعان؛ آثار ثابتة وآثار منقولة:

أ ـ الآثار الثابتة: هي الآثار المتصلة بالأرض، مثل الكهوف الطبيعية أو المحفورة التي كانت مخصصة لحاجات الإنسان القديم، والصخور التي رسم أو حفر عليها الإنسان صورًا أو نقوشًا أو كتابات، وكذلك أطلال المدن والمنشآت المطمورة في بطون التلال المتراكمة، والأبنية التاريخية المنشأة لغايات مختلفة، كالمساجد وأماكن العبادة الأخرى، والقصور والبيوت في المشافي، والقلاع والحصون والأسوار، والملاعب والحمامات، والمدافن والقنوات المشيدة والسدود، وأطلال تلك المباني، وما اتصل بها كالأبواب والنوافذ والأعمدة

---

(١) انظر المذكرة الخاصة بنظام الآثار الصادرة من وزارة المالية والاقتصاد الوطني سنة ١٣٩٩هـ.

والشرفات والسلالم والسقوف والأفاريز والتيجان، وما شابه ذلك.

ب ـ **الآثار المنقولة**: هي التي صنعت لتكون بطبيعتها منفصلة عن الأرض، أو عن المباني التاريخية والتي يمكن تغيير مكانها؛ كالمنحوتات والمسكوكات والمنقوشات والمخطوطات والمنسوجات والمصنوعات، مهما كانت مادتها والغرض من صنعها ووجوه استعمالها.

الآثار ومشاريع الهدم والتخطيط

جاء في النظام: التحذير من تغيير الآثار سواء من الأهالي أم من تخطيط المدن؛ تقول المادة (١١): «يحظر إتلاف الآثار المنقولة أو الثابتة أو تحويرها أو إلحاق الضرر بها، أو تشويهها بالكتابة والنقش عليها، أو تغيير معالمها، كما يحظر على الأهالي إلصاق الإعلانات أو وضع اللافتات في المناطق الأثرية وعلى الأبنية التاريخية المسجلة».

وتقول المادة (١٢): «يتعين عند وضع مشروعات تخطيط المدن والقرى أو توسيعها أو تجميلها المحافظة على المناطق والمعالم الأثرية فيها، ولا يجوز إقرار مشروعات التخطيط التي يوجد في نطاقها آثار، إلا بعد أخذ موافقة دائرة الآثار عليها، وعلى دائرة الآثار تحديد الأماكن التي يوجد فيها معالم أثرية وإحاطة جهاز تخطيط المدن علمًا بذلك».

ومعلوم أنَّ الآثار التي نص النظام على أنَّ منها المساجد وأماكن العبادة تشمل بالدرجة الأولى الآثار الدينية المنسوبة إلى النبي ﷺ أو أصحابه الكرام، بل هذه هي الآثار التي تستحق التكريم والتقديم، وهي التي يفتخر بها المؤمن ويعتز، وهي التي تذكر الأبناء بالآباء والخلف بالسلف.

الحجرة النبوية والمسجد الشريف

وقد أراد بعض المُفتنينَ تغيير وضع الحجرة النبوية بإخراج القبر الشريف المكرم من المسجد، فلما سمع بذلك المرحوم الملك خالد بن عبد العزيز غضب غضبًا شديدًا، وثارت فيه الحمية الدينية وتكلم كلامًا رادعًا لصاحب ذلك الاقتراح الأثيم سمعه من كان حاضرًا في المجلس، ولعل بعضهم لا زال على قيد الحياة. رحم الله ذلك الملك الصالح، وجعل موقفه هذا ذخيرة له عند الله

ويدًا بيضاء عند رسوله سيدنا محمد ﷺ ينال به إن شاء الله شفاعته يوم القيامة.

وبارك في خليفته الملك فهد، ونصر به الدين وحفظ به الديار والآثار والعباد والبلاد. آمين يا رب العالمين.

فتوى الشيخ محمد بن عبد الوهاب في شأن الحجرة النبوية

وقد نسب بعض أهل الفتنة والسوء إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب القول بإخراج الحجرة النبوية من المسجد، فأنكر ذلك وتبرأ منه ومن قائله كما جاء في رسالته لأهل المجمعة التي يقول فيها: «إذا تبين هذا فالمسائل التي شنع بها؛ منها ما هو من البهتان الظاهر وهي قوله: إني مبطل كتب المذاهب، وقوله: إني أقول: إن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء، وقوله: إني أدّعي الاجتهاد، وقوله: إني خارج عن التقليد، وقوله: إني أقول: إن اختلاف العلماء نقمة، وقوله: إني أكفر من توسل بالصالحين، وقوله: إني أكفر البوصيري لقوله: يا أكرم الخلق، وقوله: إني أقول: لو أقدر على هدم حجرة الرسول لهدمتها، ولو أقدر على الكعبة لأخذت ميزابها وجعلت لها ميزابًا من خشب، وقوله: إني أنكر زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقوله: إني أنكر زيارة قبر الوالدين وغيرهما، وإني أكفر من يحلف بغير الله، فهذه اثنتا عشرة مسألة، جوابي فيها أن أقول: سبحانك هذا بهتان عظيم»[1]. انتهى.

القبة الخضراء في رأي الشيخ محمد بن عبد الوهاب

أما القبة الخضراء فقد نسب بعضهم إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب القول بإزالتها وهدمها، ولكن الشيخ رحمه الله نفى ذلك بكل قوة وتبرأ منه واستنكر هذا القول أشد الإنكار في عدة مواضع من رسائله.

الموضع الأول: في رسالته لأهل القصيم التي يقول فيها:

«فهذه عقيدة وجيزة حررتها وأنا مشتغل البال لتطلعوا على ما عندي، والله على ما نقول وكيل.

ثم لا يخفى عليكم أنه بلغني أن رسالة سليمان بن سحيم قد وصلت إليكم وأنه قبلها وصدقها بعض المنتمين للعلم في جهتكم، والله يعلم أن الرجل افترى عليّ أمورًا لم أقلها ولم يأت أكثرها على بالي.

---

(١) الرسائل الشخصية، القسم الخاص، ص٦٣، والدرر السنية، ١:٥٢.

فمنها: قوله: إني مبطل كتب المذاهب الأربعة، وإني أقول: إن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء، وإني أدَّعي الاجتهاد، وإني خارج عن التقليد، وإني أقول إن اختلاف العلماء نقمة، وإني أكفر من توسل بالصالحين، وإني أكفر البوصيري لقوله: يا أكرم الخلق، وإني أقول: لو أقدر على هدم قبة رسول الله ﷺ لهدمتها، ولو أقدر على الكعبة لأخذت ميزابها وجعلت لها ميزابًا من خشب، وإني أحرم زيارة قبر النبي ﷺ، وإني أنكر زيارة قبر الوالدين وغيرهما، وإني أكفر من حلف بغير الله، وإني أكفر ابن الفارض وابن عربي، وإني أحرق دلائل الخيرات وروض الرياحين، وأسميه روض الشياطين، جوابي عن هذه المسائل أن أقول: سبحانك هذا بهتان عظيم»[1].

الموضع الثاني: في رسالته إلى أهل العراق، وهي رسالة أرسلها إلى السويدي عالم من أهل العراق، وكان قد أرسل له كتابًا وسأله عما يقوله الناس فيه، فأجابه بهذه الرسالة، وفيها يقول في رد ما نسب إليه وتكذيبه «منها: إشاعة البهتان بما يستحي العاقل أن يحكيه فضلًا عن أن يفتريه، **ومنها** ما ذكرتم أني أكفر جميع الناس إلَّا من اتبعني، وأزعم أن أنكحتهم غير صحيحة، ويا عجبًا! كيف يدخل هذا في عقل عاقل؟! هل يقول هذا مسلم أو كافر أو عارف أو مجنون؟! وكذلك قولهم: إنه يقول: لو أقدر على أن أهدم قبة النبي ﷺ لهدمتها، وأما «دلائل الخيرات» فله سبب؛ وذلك أني أشرت على من قبل نصيحتي من إخواني أن لا يصير في قلبه أجلّ من كتاب الله ويظن أنَّ القراءة فيه أجلّ من قراءة القرآن، وأما إحراقه والنهي عن الصلاة على النبي ﷺ بأي لفظ كان فهذا بهتان»[2].

هذا الموقف من الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو عين الحكمة والصواب، وهو السياسة الشرعية التي يجب أن يتحلَّى بها العلماء والمرشدون والمشايخ في أمرهم ونهيهم ووعظهم وإرشادهم.

وقد كان الشيخ رحمه الله حريصًا كل الحرص على نفي زعم المفترين ورد قول المفتنين الذين ألصقوا به هذا القول الشنيع، ونسبوا إليه ذلك الرأي

(١) ابن عبد الوهاب؛ مجموعة المؤلفات، القسم الخامس، الرسالة الأولى من الرسائل الشخصية، ص١٢، وهو في «الدرر السنية» ١: ٢٨.

(٢) ابن عبد الوهاب؛ مجموعة المؤلفات، القسم الخامس، الرسالة الخامسة من الرسائل الشخصية، ص٣٧، وهو في «الدرر السنية» ١: ٥٤.

الفظيع، فتراه أنكره في عدة مواطن لخطر المسألة ولما ينبني عليها من السوء والفتنة والشر الذي يجرّ إلى مصائب وبلايا، نحن عنها في غنى، فأين هذا ممَّن ضاقت العلوم في عينيه ولم يجد مسألة يكتب عنها أو بحثًا يقدمه؛ إلَّا قضية القبَّة الخضراء، فما أتفه عقلًا هذا منتهاه!، وما أسفه علمًا ذلك مؤداه!

ولنا بحث خاص عن هذا الموضوع، نسأل الله أن ييسر إتمامه ونشره بعونه وفضله.

المحافظة على الآثار النبوية من رسالة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز

وهنا موقف عظيم يستحق التسجيل للأمانة والتاريخ، وهو أنَّ الملك فهد بن عبد العزيز لما اطَّلع على المخططات المرسومة لبناء وتوسعة مسجد قباء، ورأى أن معالم المسجد الحالي القديمة ستزول داخل التوسعة الجديدة، أمر ـ وفقه الله ـ بإلغاء المخطط الموضوع وإعداد مخطط جديد يُبقي على المنبر والمحراب والمعالم القديمة، بحيث تمتد التوسعة من جانبي المسجد ومن خلفه ليتعرف المسلمون جيلًا بعد جيل على الأماكن الأصلية والآثار النبوية الشريفة، وقال: «من الخير أن نزيد في مساجد الله ولا نزيل».

وكان لهذه اللفتة السامية الكريمة من خادم الحرمين أعمق الأثر في نفوسنا بما فيها من دلالة الحفاظ على معالم التراث الإسلامي وتخليده.

وقد نشرت الجرائد السعودية بالتفصيل هذه المقابلة والحديث في الأعداد الصادرة يوم السبت ١٧ صفر ١٤٠٥هـ؛ مثل جريدة «المدينة» و«الندوة».

مفهوم الاجتماع

جرت عادتنا أن نجتمع لإحياء جملة من المناسبات التاريخية كـ: المولد النبوي، وذكرى الإسراء والمعراج، وليلة النصف من شعبان، والهجرة النبوية وذكرى نزول القرآن، وذكرى غزوة بدر، وفي اعتبارنا أنَّ هذا الأمر عادي لا صلة له بالدين فلا يوصف بأنه مشروع أو سنّة، كما أنه ليس معارضًا لأصل من أصول الدين؛ لأنَّ الخطر هو في اعتقاد مشروعية شيء ليس بمشروع، وعندي أنَّ أمثال هذه الأمور العادية العرفية لا يقال فيها أكثر من أنها محبوبة للشارع أو مبغوضة، وأظن أنَّ هذا القدر متفق عليه. ويدعي البعض أنَّ هذه المناسبات التي يجتمع الناس لإحيائها؛ ينقصها التوقيت

المضبوط المتفق عليه، **فيقول**: إنَّ الناس تعودوا أن يجتمعوا ليلة السابع والعشرين من رجب لإحياء ذكرى الإسراء والمعراج، وأن يجتمعوا ليلة الثاني عشر من ربيع الأول لإحياء ذكرى المولد النبوي، مع أن العلماء اختلفوا في تعيين وقت هاتين الحادثتين بالضبط. **وأنا أقول**: إنَّ عدم الاتفاق على تعيين الوقت لا يؤثر؛ لأننا لا نعتقد مشروعية تحديد الاجتماع بوقت مخصوص، بل الأمر عادي كما أسلفنا، والذي يهمنا هو اغتنام فرصة الاجتماع وكسب ذلك لتوجيه الناس إلى الخير. فهذه الليلة قد اجتمع الناس فيها بشكل كبير وعظيم وسواء أخطأوا في التوقيت أم أصابوا، فإنَّ مجرد اجتماعهم هذا على ذكر الله ومحبة رسول الله ﷺ؛ كَافٍ في استجلاب رحمة الله وفضله.

إني أعتقد تمام الاعتقاد أنَّ اجتماع هؤلاء الناس ما دام أنه لله وفي الله فإنه مقبول عند الله ولو أخطأوا في التوقيت، وأضرب لذلك مثلًا لتقريب القضية للأذهان بـ: رجل دعا إلى وليمة في يوم معين فجاء بعض المدعوين في غير وقت الدعوة ظنًّا منهم أنه هو الوقت، فهل ترى أنَّ صاحب الوليمة يطردهم ويردهم بجفوة وغلظة ويصد عنهم ويقول لهم: ارجعوا وانصرفوا عني فليس هذا هو وقت الوليمة الذي دعوتكم إليه وحددته لكم، أو ترى أنه يقابلهم بالحسنى ويشكرهم على قدومهم ويفتح لهم بابه ويطلب منهم الدخول ثم يطلب منهم الرجوع مرة أخرى في الوقت المحدد؟ هذا الذي أنا أتصوره وهو اللائق بفضل الله وكرمه.

ونحن إذا اجتمعنا للإسراء والمعراج، أو للمولد النبوي، أو لأي ذكرى من الذكريات التاريخية لا يهمنا تعيين الوقت بالضبط؛ لأنه إن كان موافقًا للصواب في الواقع ونفس الأمر فالحمد لله، وإن كان غير ذلك، فإنَّ الله لا يردنا ولا يغلق بابه عنا.

فاغتنام فرصة الاجتماع بالدعاء والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى والتعرض لنفحاته وخيراته وبركاته؛ هو أجل من فائدة الذكرى نفسها عندي، واغتنام اجتماع الناس بتذكيرهم وإرشادهم ونصحهم وتوجيههم إلى الخير، هو أولى من صدهم وردهم والإنكار على اجتماعهم بما لا طائل تحته؛ إذ المشاهد أنَّ ذلك لا ينفع ولا يفيد وأن الناس يزيد إقبالهم ويشتد تمسكهم كلما زاد الإنكار عليهم أو اشتد، حتى كأن الناهي لهم عن ذلك آمر لهم بفعله من حيث لا يشعر.

إنَّ العقلاء من أرباب الفكر والدعوة يتمنون بكل قلوبهم أن يجدوا مكانًا

يجتمع فيه الناس ليبثوا فيهم آراءهم ويكسبوهم إلى صفهم، ولذلك تراهم يرتادون الحدائق والنوادي والأماكن العامة التي يكثر فيها اجتماع الناس ليصنعوا بهم ما يريدون، ونحن نرى الأمة تجتمع في مناسبات متعددة برغبة وهمة وحرص، فما هو الواجب علينا نحوهم؟

إنَّ الاشتغال بالإنكار والأخذ والرد في حكم اجتماعهم وما إلى ذلك هو عبث، بل وحُمقٌ وجَهالة، لأننا نضيع كنزًا عظيمًا ونفوّت فرصة لا يمكن أن يجود الزمان بها؛ إلَّا في مثل هذه المناسبات.

فلنغتنم هذه المجامع الكبرى.

مفهوم المولد النبوي الشريف

يُخْطِئُ كثير من الناس في فهمهم لحقيقة المولد النبوي الشريف الذي ندعو إليه ونشجع عليه، فيتصورون تصورات فاسدة يبنون عليها مسائل طويلة ومناقشات عريضة، يضيعون بها أوقاتهم وأوقات القراء، وهي كلها هباء؛ لأنها مبنية على تصورات ـ كما قلنا ـ فاسدة.

وقد كتبنا عن المولد النبوي كثيرًا، وتحدثنا عنه في الإذاعة والمجامع العامة مرارًا بما يظهر معه وضوح مفهومنا عن المولد الشريف.

إننا نقول ـ وقد قلنا من قبل ـ: إنَّ الاجتماع لأجل المولد النبوي الشريف ما هو إلَّا أمر عادي وليس من العبادة في شيء، وهذا ما نعتقده وندين الله تعالى به.

وليتصور من شاء ما يتصور؛ لأنَّ الإنسان هو المصدَّق فيما يقوله عن نفسه وحقيقة معتقده لا غيره.

ونحن نقول في كل محفل ومجمع ومناسبة: إنَّ هذا الاجتماع بهذه الكيفية أمر عادي ليس من العبادة في شيء، فهل يبقى بعد هذا إنكار لمنكر واعتراض لمعترض، لكن المصيبة الكبرى في عدم الفهم، ولهذا يقول الإمام الشافعي: «ما جادلت عالمًا إلَّا غلبته، ولا جادلت جاهلًا إلَّا غلبني».

إنَّ أقل الطلاب علمًا يعلم الفرق بين العادةِ والعبادة وحقيقةِ هذه وتلك. فإذا قال القائل: هذه عبادة مشروعة بكيفيتها، نقول له: أين الدليل؟ وإذا قال: هذه عادة، نقول له: اصنع ما تشاء، لأنَّ الخطر كل الخطر والبلاء الذي نخشاه كلنا هو أن يلبس ثوب العبادة لفعل مبتدع غير مشروع بل من اجتهاد البشر، وهذا ما لا نرضاه بل نحاربه ونحذر منه.

والحاصل: أنَّ الاجتماع لأجل المولد النبوي أمر عادي، ولكنه من العادات الخيرة الصالحة التي تشتمل على منافع كثيرة وفوائد تعود على الناس بفضل وفير؛ لأنها مطلوبة شرعًا بأفرادها. **ومن التصورات الفاسدة** التي تقع في أذهان بعض الناس: أنهم يظنون أننا ندعو إلى الاحتفال بالمولد في ليلة مخصوصة دون سائر العام، وما دَرىٰ هذا المغفل أنَّ الاجتماعات تُعْقَدُ لأجل المولد النبوي في مكة والمدينة بشكل منقطع النظير في كل أيام العام، وفي كل مناسبة تحدث يفرح بها صاحبها، ولا يكاد يمرُّ يوم أو ليلة بمكة والمدينة إلَّا ويحصل فيه اجتماع للمولد النبوي، علم هذا من علمه وجهله من جهله. فمن زعم أننا نذكر النبي ﷺ في ليلة واحدة فقط ونهجره ونغفل عنه ثلاثمائة وتسعًا وخمسين ليلة، فقد افترى إثمًا عظيمًا وكذب كذبًا مبينًا، وهذه مجالس المولد النبوي تنعقد بفضل الله تعالى في جميع ليالي السنة، ولا يكاد يمرُّ يوم أو ليلة إلَّا وهنا مجلس وهناك محفل، ونحن ننادي بأنَّ تخصيص الاجتماع بليلة واحدة دون غيرها؛ هو الجفوة الكبرى للرسول ﷺ، ولذلك فإنَّ الناس بحمد الله يستجيبون لهذا النداء بكل إقبال ورغبة.

ومن زعم أننا نخصص الاحتفال به ﷺ في المدينة المنورة، فهو جاهل أو متجاهل عن الحقيقة، وما لنا إلَّا أن ندعو الله له بأن ينور بصيرته ويكشف عنه حجاب الجهل، ليرى أن ذلك ليس خاصًا بالمدينة المنورة ولا بليلة مخصوصة في شهر مخصوص، بل هو عام في الزمان والمكان.

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأَذْهَانِ شَيْءٌ ... إِذَا ٱحْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلِ

والحاصل: أننا لا نقول بسنّية الاحتفال بالمولد المذكور في ليلة مخصوصة، بل من اعتقد ذلك فقد ابتدع في الدين؛ لأنَّ ذكره ﷺ والتعلق به يجب أن يكون في كل حين، ويجب أن تملأ به النفوس.

نعم: إنَّ في شهر ولادته يكون الداعي أقوى لإقبال الناس واجتماعهم وشعورهم الفياض بارتباط الزمان بعضه ببعض، فيتذكرون بالحاضر الماضي، وينتقلون من الشاهد إلى الغائب.

وإنَّ هذه الاجتماعات، هي وسيلة كبرى للدعوة إلى الله، وهي فرصة

ذهبية ينبغي أن لا تفوت، بل يجب على الدعاة والعلماء أن يذكّروا الأمة بالنبي ﷺ؛ بأخلاقه وآدابه وأحواله وسيرته ومعاملته وعباداته، وأن ينصحوهم ويرشدوهم إلى الخير والفلاح، ويحذروهم من البلاء والبدع والشر والفتن.

وإننا دائمًا بفضل الله ندعو إلى ذلك ونشارك في ذلك، **ونقول للناس**: ليس المقصود من هذه الاجتماعات مجرد الاجتماعات والمظاهر، بل إنَّ هذه وسيلة شريفة إلى غاية شريفة وهي كذا وكذا، ومن لم يستفد شيئًا لدينه؛ فهو محروم من خيرات المولد الشريف.

ولا نحب أن نُطِيلَ بذكر الأدلة والمسوغات التي استنبطناها في هذا الموضوع؛ إذ لنا رسالة خاصة لذلك بعنوان: «حول الاحتفال بالمولد النبوي الشريف»، غير أننا سنخص قصة عتق ثويبة بالذكر لكثرة الكلام حولها.

قصة عتق ثويبة

يذكر العلماء في كتب الحديث والسيرة قصة عتق أبي لهب لجاريته ثويبة لما أخبرته بولادة النبي ﷺ، وأنَّ العباس بن عبد المطلب رأى أبا لهب في النوم بعد وفاته فسأله عن حاله فقال: لم ألقَ خيرًا بعدكم غير أني سقيت في هذه بعتاقتي ثويبة، وإنه ليخفف عليَّ في كل يوم الاثنين.

قُلْتُ: هذا الخبر رواه ونقله جملة من أئمة الحديث والسير، مثل الإمام عبد الرزاق الصنعاني، والإمام البخاري، والحافظ ابن حجر، والحافظ ابن كثير، والحافظ البيهقي، وابن هشام، والسهيلي، والحافظ البغوي، ومحمد بن عمر بحرق الحضرمي، والأشخر، والعامري، وسأبين ذلك بالتفصيل إن شاء الله.

فأما الإمام عبد الرزاق الصنعاني فقد رواه في «المصنف»[(١)]، وأما الإمام البخاري فقد رواه في «صحيحه» بإسناده إلى عروة بن الزبير مرسلًا[(٢)]. وأما ابن حجر فقد ذكره في «الفتح» وقال: «إنه رواه الإسماعيلي من طريق الذهلي، عن أبي اليمان، ورواه عبد الرزاق عن معمر»، وقال: «وفي الحديث دلالة على أنَّ

---

(١) الصنعاني؛ المصنف، ٧:٤٧٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾.

الكافر قد ينفعه العمل الصالح في الآخرة. لكنه مخالف لظاهر القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، **وأجيب أولًا**: بأنَّ الخبر مرسل أرسله عروة ولم يذكر من حَدَّثَهُ به، وعلى تقدير أن يكون موصولًا؛ فالذي في الخبر رؤيا منام فلا حجة فيه، ولعل الذي رآها لم يكن إذ ذاك أسلم بعد فلا يحتج به.

وثانيًا: على تقدير القبول: فيحتمل أن يكون ما يتعلق بالنبي ﷺ مخصوصًا من ذلك بدليل قصة أبي طالب، كما تَقدّم أنه خُفِّفَ عنه فنقل من الغمرات إلى الضحضاح، وقال البيهقي: «ما ورد من بطلان الخير للكفار فمعناه: أنهم لا يكون لهم التخلص من النار، ولا دخول الجنة، ويجوز أن يخفف عنهم من العذاب الذي يستوجبونه على ما ارتكبوه من الجرائم سوى الكفر بما عملوه من الخيرات».

وأما عياض فقال: «انعقد الإجماع على أنَّ الكفار لا تنفعهم أعمالهم ولا يثابون عليها بنعيم ولا تخفيف عذاب، وإن كان بعضهم أشد عذابًا من بعض. قلت: وهذا لا يرد الاحتمال الذي ذكره البيهقي، فإنَّ جميع ما ورد من ذلك فيما يتعلق بذنب الكفر، وأما ذنب غير الكفر فما المانع من تخفيفه؟. وقال القرطبي: «هذا التخفيف خاص بهذا وبمن ورد النص فيه»، وقال ابن المُنَيِّر في «الحاشية»: «هنا قضيتان: إحداهما محال؛ وهي اعتبار طاعة الكافر مع كفره؛ لأن شرط الطاعة أن تقع بقصد صحيح، وهذا مفقود من الكافر.

الثانية: إثابة الكافر على بعض الأعمال تفضلًا من الله تعالى، وهذا لا يحيله العقل، فإذا تقرر ذلك لم يكن عتق أبي لهب لثويبة قربة معتبرة، ويجوز أن يتفضل الله عليه بما شاء كما تفضل على أبي طالب، والمتَّبع في ذلك التوقيف نفيًا وإثباتًا».

قلت: وتتمة هذا: أن يقع التفضل المذكور إكرامًا لمن وقع من الكافر البر له ونحو ذلك، والله أعلم»[1]. اهـ.

وأما الحافظ ابن كثير، فقد رواه في «البداية والنهاية»، وقال معلقًا: «لأنه لما بشرته ثويبة بميلاد ابن أخيه محمد بن عبد الله أعتقها من ساعته فجُوزِيَ

(١) ابن حجر؛ فتح الباري، ٩:١٤٥.

بذلك لذلك»[١]. اهـ.

وأما الحافظ البغوي فقد رواه في «شرح السنّة»[٢].

وأما العلّامة محمد بن عمر بحرق، فقد رواه في «سيرته» وقال معلقًا: «قلت: فتخفيف العذاب عنه إنما هو كرامة للنبي ﷺ كما خفف عن أبي طالب لا لأجل العتق، لقوله تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾»[٣]. اهـ.

وأما الإمام العامري، فقد رواه في «بهجة المحافل»، وقال شارحه الأشخر: قيل: «هذا خاص به إكرامًا له ﷺ كما خفف عن أبي طالب بسببه، وقيل: لا مانع من تخفيف العذاب عن كل كافر عَمِلَ خيرًا»[٤]. اهـ.

وأما السهيلي، فقد رواه في «الروض الأنف» في شرح «السيرة النبوية» لابن هشام، وقال بعد نقل الخبر: «فنفعه ذلك وهو في النار كما نفع أخاه أبا طالب ذَبُّه عن رسول الله ﷺ، فهو أهون أهل النار عذابًا، وقد تقدم في باب أبي طالب أنَّ هذا النفع إنما هو نقصان من العذاب، وإلا فعمل الكافر كله محبَط بلا خلاف، أي: لا يجده في ميزانه ولا يدخل به جنة»[٥]. اهـ.

حاصل البحث

والحاصل: أنَّ هذه القصة مشهورة في كتب الأحاديث وفي كتب السير، ونقلها حفاظ معتبرون معتمدون، ويكفي في توثيقها كون البخاري نقلها في «صحيحه» المتفق على جلالته ومكانته، وكل ما فيه من المسند؛ صحيح بلا كلام، وأما المعلقات والمرسلات التي فيه فإنها لا تخرج عن دائرة المقبول، ولا تصل إلى المردود، وهذا يعرفه أهل العلم المشتغلون بالحديث والمصطلح، والذين يعرفون معنى المعلق والمرسل، ويعرفون حكمهما إذا جاءا في الصحيح.

فانظر إن شئت ذلك في كتب المصطلح، كألفية السيوطي، والعراقي وشروحها و«تدريب الراوي»، فإنهم تعرضوا لهذه المسألة وبينوا قيمة ما في الصحيح من المعلق والمرسل، وأنَّ ذلك مقبول عند المحققين.

---

(١) ابن كثير؛ «البداية والنهاية» ٢: ٢٧٣.
(٢) البغوي؛ شرح السنّة، ٥: ٦٠.
(٣) بحرق، حدائق الأنوار، ١: ١٣٤.
(٤) الأشخر؛ «شرح البهجة» ١: ٤١.
(٥) السهيلي؛ «الروض الأنف» ٥: ١٩٣.

ثم إنَّ هذه المسألة من المناقب والفضائل والكرامات التي يذكرها العلماء في كتب الخصائص والسير، ويتساهلون في نقلها ولا يشترطون فيها الصحيح بالمعنى المصطلح عليه، ولو ذهبنا إلى اشتراط هذا الشرط الشاذ؛ لما أمكن لنا ذكر شيء من سيرة النبي ﷺ قبل البعثة وبعد البعثة، مع أنك تجد كتب الحفاظ الذين عليهم العمدة وعلى صنيعهم المعول، والذين منهم عرفنا ما يجوز وما لا يجوز ذكره من الحديث الضعيف، تجد كتبهم مملوءة بالمقطوعات والمراسيل، وما أخذ عن الكهان وأشباههم في خصائص رسول الله ﷺ؛ لأنَّ ذلك مما يجوز ذكره في هذا المقام.

أما قول من قال: إنَّ هذا الخبر يعارض قوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، فهذا قول مردود بما قاله العلماء ونقلناه عنهم سابقًا.

وتحرير الكلام في هذا المقام هو أنَّ الآية تدل على أنَّ أعمال الكفار لا ينظر إليها وليس فيها أنهم سواء في العذاب، وأنه لا يُخَفَّفُ عن بعضهم العذاب، كما هو مقرر عند العلماء.

وكذلك الإجماع الذي حكاه عياض، فإنه في عموم الكفار ليس فيه أنَّ الله تعالى لا يُخَفِّفُ العذاب عن بعضهم لأجل عمل عملوه، ولهذا جعل الله تعالى جهنم دركات، والمنافقون في الدرك الأسفل منها.

ثم إنَّ هذا الإجماع يرده النص الصحيح، ولا يصح إجماع مع مخالفة النص كما هو معلوم للطلبة.

وذلك أنه ثبت في «الصحيح» أنَّ رسول الله ﷺ سئل: هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويدافع عنك؟، فقال: «**وجدته في غمرات من النار، فأخرجته إلى ضحضاح منها**»، الحديث.

فها هو أبو طالب قد نفعه دفاعه عن النبي ﷺ، وأخرجه النبي ﷺ من أجل ذلك من غمرات النار إلى ضحضاح منها.

فالتخفيف عن أبي لهب من هذا الباب أيضًا لا منكر فيه، والحديث يدل على أنَّ الآية المذكورة فيمن لم يكن لهم عمل يوجب التخفيف، وكذلك الإجماع.

وفي حديث أبي طالب المذكور دلالة، وأي دلالة، على أنَّ النبي ﷺ يتصرف الآن وقبل يوم القيامة في أمور الآخرة، ويشفع لمن تعلق به ودافع عنه.

وأما قول من قال: إنَّ هذا الخبر رؤيا منام لا يثبت بها حكم، فإنَّ هذا القائل ـ هداه الله للصواب ـ لا يفرق بين الأحكام الشرعية وغيرها.

أما الأحكام الشرعية، فإنَّ الخلاف واقع بين الفقهاء: هل يجوز أخذ الأحكام وتصحيح الأخبار برؤيا رسول الله ﷺ في المنام، أم لا؟

وأما غيرها فإنَّ الاعتماد على الرؤيا في هذا الباب لا شيء فيه مطلقًا. وقد اعتمد عليها الحفاظ، وذكروا ما جاء في رؤيا أهل الجاهلية قبل بعثة رسول الله ﷺ المنذرة بظهوره، وأنه سيقضي على الشرك وما هم عليه من فساد، وكتب السنة مملوءة بهذا.

وفي مقدمتها كتاب «دلائل النبوة»، وعدوها من الإرهاصات التي لا مانع من الاستدلال في شأنها بالرؤيا، ولولا ذلك لما ذكروها.

فقول القائل في شأن رؤيا العباس: إنها ليست بحجة ولا يثبت بها حكم ولا خبر، خروج عن عمل الأئمة من الحفاظ وغيرهم، والمراد به التهويل لا غير، وما هكذا يكون شأن الباحث عن الحق والأمر لله.

وأما من قال: إنَّ الرائي والمخبر هو العباس في حال الكفر، والكفار لا تسمع شهادتهم ولا تقبل أخبارهم، فإن هذا قول مردود، لا رائحة للعلم فيه، وهو باطل، وذلك لأنه لم يقل أحد إن الرؤيا من باب الشهادة مطلقًا، وإنما هي بشارة لا غير فلا يشترط فيها دين ولا إيمان، بل ذكر الله تعالى في القرآن معجزة يوسف عليه السلام عن رؤيا مَلِكِ مصر وهو وثني لا يعرف دينًا سماويًّا مطلقًا، ومع ذلك جعل الله تعالى رؤيته المنامية من دلائل نبوة يوسف عليه السلام وفَضلِه وقَرَنها بقصته، ولو كان ذلك لا يدل على شيء لما ذكرها الله تعالى لأنها رؤيا مشرك وثني لا فائدة فيها، لا في التأييد ولا في الإنكار.

ولهذا ذكر العلماء أنَّ الكافر يرى الله تعالى في المنام، ويرى في ذلك ما فيه إنذار له وتوبيخ وتقريع.

والعجب كل العجب من قول قائل: إنَّ العباس رأى ذلك في حال كفره، والكفار لا تسمع شهادتهم ولا تقبل أخبارهم، فإنَّ هذا القول يدل على عدم المعرفة بعلم الحديث؛ إذ المقرر في المصطلح أنَّ الصحابي أو غيره إذا تحمل الحديث في حال كفره ثم روى ذلك بعد إسلامه أُخِذَ ذلك عنه، وعمل به. وانظر أمثلة ذلك في كتب المصطلح لتعرف بُعْد صاحب هذا القول عن العلم، وإنما الهوى هو الذي حمل المعترض على الدخول فيما لا يتقنه.

الخاتمة

وبعد، فهذا ما تيسر لنا كتابته عن هذه المسائل التي أحببنا أن نبين مفهومنا الذي نراه فيها.

فإن كان ذلك صوابًا فالحمد لله، وإن كان غير ذلك فإنني بشر أصيب وأخطئ، وكل منا يُؤخَذ منه ويُرد عليه إلَّا السيد المعصوم ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلَّا وحي يوحى.

وأعوذ بالله من المراء والجدال والخصام، وأعوذ بالله من علم لا ينفع ودعاء لا يسمع وقلب لا يخشع، وأعوذ بالله من كل سوء وشر وبلاء وشرك وبدعة، وأبرأ مما تبرأ منه رسول الله ﷺ، وأُقِرُّ بما أَقَرَّ به.

وأسأل الله أن يثبتني عليه حتى أموت عليه مسلمًا موحدًا مؤمنًا بالله، في بلاد الله وبين المؤمنين الموحدين الذين يشهدون أن لا إله إلَّا الله محمد رسول الله، منذ أن جاء بها محمد بن عبد الله ﷺ، وسار على ذلك أصحابه وأتباعه وأتباعهم من أئمة السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، في ظل أئمة التوحيد ودعاة الخير من حكامنا الأماجد، وفقهم الله لنصرة الحق وأخذ بأيديهم إلى خير البلاد والعباد.

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

وكتب ذلك بقلمه وقاله بفمه: محمد بن علوي بن عباس المالكي مذهبًا، السلفي عقيدة، المكي موطنًا، الحسني نسبًا، عفا الله عنه، خادم العلم الشريف بالبلد الحرام، تحريرًا بمكة المكرمة في ربيع الأول سنة ١٤٠٤ من هجرة المصطفى ﷺ.

تم بحمد الله تعالى

فهرس المحتويات

الباب الثاني: مباحث نبوية وفيها خصائص النبي ﷺ وحقيقة النبوة وحقيقة البشرية ومفهوم التبرك بالنبي ﷺ وآثاره

الباب الثالث: مباحث مختلفة وفيها بيان الحياة البرزخية ومشروعية الزيارة النبوية وما يتعلق بها من الآثار والمشاهد والمناسبات

مفاهيم يجب أن تصحح

اشتمل هذا الكتاب العظيم للعلامة المُحقق الجليل فضيلة الأستاذ السيد محمد علوي المالكي، على مباحث هَامّة مُفيدة، وموضوعات جليلة عديدة، تنفع المسلمين في هذه الأزمان التي يحتاجون فيها إلى الوقوف على المعلومات الهامة، والأحكام العامة لخدمة الإسلام، وتحقيق العقائد الدينية، والدعوة إلى الأخذ بما جاد به الرسول صلى الله عليه وسلم على الأمة الإسلامية من الخير الجزيل، والفوائد العظيمة النادرة، والنصح لأمّة الإسلام في هذه الأزمان بالموعظة الحسنة، والتي يُحارب فيها الإسلام من كثير من الأعداء، ويحرصُون فيه على تأييد المبادئ الضّالة، والدّعايات الكاذبة ضد الإسلام وأهله، تحقيقًا لأغراضهم ضد الإسلام وأهله، وسعيًا لتأييد أعدائه، والله تعالى مُتِمُّ نُوره على عباده المسلمين؛ بما وُفّق له هذا العالم الجليل لتأييد ونشر دعوته، وتحقيق مسائله والإرشاد إلى ما دعى إليه من العلم الجزيل، والفوائد الثمينة، والموضوعات الهامة التي تحقق الهداية والدراية، والدعوة الصالحة حسمًا للنزاع والمُكابرة، والخلاف والمُدابرة.

وقد ظهر من مباحث هذا الكتاب أنه حُجّةٌ وبُرهان، وقَولٌ صادقٌ وبيان؛ فيه للمسلمين عِزّةٌ وكَرامة، وتحقيقٌ وَافٍ وأمانة، وأن نَشرهُ في هذه الأزمان مما يَعتزّ به الإسلام، ويُقْضَى به على مكائد الأعداء اللئام.

وقد أفاض المؤلف حفظه الله في البيان الواضح، حيث تحدّث بعلم غزير، وتحقيق واضح، عن مسائل هَامّة في معرفة المفاهيم الصحيحة السليمة، والذود عنها في مواجهة كل مفهوم سقيم، ولصدّ الأعداء الكائدين، ولإقامة الحق المبين في بلاد الإسلام والمسلمين.

وكلُّ ذلك يَدعُونا إلى تقدير هذا الكتاب ودعوة المسلمين إلى مطالعته، والقيام بدعوته، وحثّ العالم الإسلامي إلى وجوب دراسته، وتعليم أولادهم بما فيه من الحق الصريح، والقول الصحيح، والدفاع عن حرمات الإسلام، وبيان ما اجترحه الأعداء من الضلالات والأكاذيب والدعوات الباطلة، والله تعالى يُؤيّد عباده الصالحين بتأييد دينه القويم أتم تأييد.

من تقديم فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف





